في القصائد السبع

بقلم : محمد عبد السلام

موضوع « المعلّقات » (1) موضوع خطير عالجه مؤرخو الادب قديما وحديثا وما كنّا لنثير هذا المشكل من جديد لولا ما عثرنا عليه عند مراجعتنا لشروح « القصائد السبع » كشرحيْ ابن الانباري (2) وابن النحّاس (3) من وثائق ذهبت بنا إلى الشكّ في ما أوردته بعض كتب الادب من روايات اعتمدها البحث الحديث (4) .

---

(1) نستعمل هذا المصطلح لشيوع استعماله الآن . ونستعمل غيره من المصطلحات « كالقصائد السبع » و « السبع الطوال » و « السبع الجاهليات »... وانما هي اسماء مختلفة لنفس المسمى .

(2) أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنبارى ، المتوفى سنة 328 هـ ، من نحاة الكوفة (انظر تاريخ الادب العربي لبروكلمان ، ترجمة عبد الحليم النجار ، ج 1 ص 69 و ج 2 ص 214 – 216) وقد نشر عبد السلام محمد هارون شرحه للقصائد السبع الطوال الجاهليات (القاهرة 1963) .

(3) أبو جعفر محمد بن اسماعيل النحاس ، المتوفى سنة 338 هـ ، من نحاة مصر . (عن حياته ومخطوطات شرحه راجع بروكلمان : المرجع المذكور اعلاه : ج 1 ص 70 و ج 2 ص 275 – 276) .

(4) أعتمد جمهور الباحثين رواية جمهرة أشعار العرب لابي زيد القرشي وما نقلته عنها كتب الأدب كالعمدة لابن رشيق والمزهر للسيوطي وسنبين فى هذا المقال أسباب ترجيحنا لخطإ هذه الرواية .

ولن نقصد في هذه الدراسة الوجيزة إلى الاحاطة بالموضوع فقد سبقنا كبار رجال البحث كالمستشرق نولدكه (5) إلى ايضاح كثير من جوانبه وحلّل أستاذنا الاستاذ بلاشار الموضوع تحليلا وافيا (6) وإنّما نريد في هذه الصفحات الرجوع إلى مسألة نعتبرها هامّة وهي مسألة أصحاب « السّبع الطوال » وغرضُنا من ذلك الدعوة إلى إعادة النظر في ما عدّ اختلافا بين أئمة اللّغة في تحديد محتوى مصنّف الاختيارات المعروف « بالمعلّقات » .

ولسنا مبتدعين في اعتبار « السّبع الجاهليات » مجموعة اختيارات فقد كاد الباحثون يجمعون على ذلك فقال بروكلمان (7) مثلا : « وأقدم ما بقي من مجموعات القصائد الكاملة هو الاختيارات التي جمعها حمّاد الراوية وسمّاها على غرار عناوين الكتب الاخرى السّموط أو الاسم الآخر المألوف وهو المعلّقات » . ولكنّ الذي نريد التنبيه إليه هو أنّ هذه المجموعة من القصائد السّبع كانت متناقَلة كمصنَّف خاصّ متَّفَق على محتواه وأنّ ما يذكر من اختلاف الروايات في تعيين أصحاب القصائد انّما نتج عن التباس وقع فيه بعض الادباء لخلطهم بين ما روي عن ائمة اللغة والادب من أقوال تناولت السّبع الطوال من جهة وما روي عنهم في تفضيل بعض الشعراء على بعض من جهة أخرى .

وإلى هذا الالتباس يشير ابن النحّاس إذ يقول (8) بعد شرحه لقصيدة عمرو ابن كلثوم وهي آخر القصائد السّبع عنده :

« فهذه آخر السّبع المشهورات على ما رأيت أهل اللّغة يذهبون إليه منهم أبو الحسن بن كيسان وليس أن نعترض فنقول : في الشعر ما هو أجود من هذه

---

(5) خص نولدكه موضوع المعلقات بدراسة وافية (انظر بلاشار : تاريخ الادب العربي ج 1 ص 143 – 148) .

(6) بلاشار : تاريخ الادب العربي ج 1 ص 143 – 148 .

(7) تاريخ الأدب العربي (ترجمة النجار) ج 1 ص 67 .

(8) شرح القصائد السبع المشهورات لأبي جعفر بن النحاس . مخطوط « المكتبة الصادقية » بالجامعة التونسية رقم : 2805 – الورقة 213 .

القصائد... وإنّما نؤدّيها على ما نقلت إلينا... وقد رأينا من يذهب إلى أنّ قصيدة الاعشى : ودّع هريرة وقصيدة النابغة ، وهي يا دار ميّة ، من هذه القصائد وقد بيّنّا أنّ هذا لا يوجد بقياس ؛ غير أنّا رأينا أكثر أهل اللّغة يذهب إلى أنّ أشعر أهل الجاهليّة امرؤ القيس وزهير والنابغة والاعشى إلاّ أبا عبيدة فإنّهُ قال : أشعر الجاهليّة امرؤ القيس وزهير والنابغة . فحدانا قول أكثر أهل اللّغة على إملاء قصيدة الاعشى وقصيدة النابغة لتقديمهم إياهم وإن كانتا ليستا من القصائد السبع عند أكثرهم .

قال أبو جعفر : واختلفوا في جمع هذه القصائد فقيل : إنّ العرب كان أكثرها يجتمع ويتناشدون فإذا استحسن الملك قصيدة قال : علّقوها وأثبتوها في خزانتي . فأما قول من قال : إنّها علّقت في الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة . وأصحّ ما قيل في هذا أنّ حمّادا الرّاوية لمّا رأى زهد النّاس في الشعر جمع هذه السّبع وحَضّهم عليها وقال لهم : هذه المشهورات فسمّيت القصائد المشهورة لهذا » .

وقد رأينا أن نثبت كامل النصّ لانّ الباحثين لم يوردوا إلاّ القسم الثاني منه (9) في سياق حديثهم عن معنى « المعلّقة » وأهملوا القسم الاوّل وهو في نظرنا عظيم الاهميّة .

فلنستخلص ما جاء فيه من معلومات قد تنير البحث .

---

(9) اكتفى بعضهم بالرجوع إلى ما أوردته كتب الأدب من آراء ابن النحاس إذ جاء فى نزهة الألباء لأبي بركات عبد الرحمان بن محمد الانباري (ص 43) : « وأما حماد الراوية... فهو الذي جمع السبع الطوال . هكذا ذكره أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة » . وأورد ياقوت فى معجم الادباء (ج 10 ص 266) نفس النص الذي جاء فى النزهة .

ورجع بعض مؤرخي الأدب إلى مخطوطات الشرح ولكنهم اكتفوا بنقل القسم الثاني من النص . فقد جاء في تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان (طبعة سنة 1957) ج 1 ص 105 : « فقد قال [أبو جعفر ابن النحاس] في شرحه بالنسخة الخطية الموجودة منه في مكتبة برلين ما نصه : « واختلفوا في جمع هذه القصائد...... على الكعبة » .

1) يرجّح ابن النحّاس قول من يعتبر أنّ « القصائد السّبع » مصنّف صنعه حمّاد الراوية .

2) يدعو إلى التمييز بين رواية القصائد السّبع — وهو أمر لا يمكن للرّاوي أن يخرج فيه من أمانة النقل إلى الاجتهاد والقياس — وبين ما ذكره الائمة في تفضيل بعض الشعراء على بعض .

3) يثبت أنّ أكثر أهل اللّغة كانوا متّفقين على أنّ أصحاب « المعلّقات » هم امرؤ القيس وطرفة وزهير ولبيد وعنترة والحارث بن حلّزة وعمرو بن كلثوم وأنّ من شذّ منهم فذهب إلى القول بأنّ الاعشى والنابغة من أصحاب « السّبع » فإنّما لاعتبار قصيدتيهما أجود من بعض القصائد السّبع وأنّ ذلك قياس لا رواية .

4) يذكر أنّه أضاف إلى شرحه للقصائد السّبع قصيدتيْ النابغة والاعشى لتقديم أهل اللّغة للشاعرين وأنّ ذلك زيادة منه .

وإذا تذكّرنا ما جاء في مقدّمة (10) مصنّفه من أنّه يريد استقصاء ما في القصائد من المسائل النحوية أدركنا السبب الذي دعاه إلى تلك الزيادة .

ويجدر بنا أن نلاحظ ما يمتاز به نصّ ابن النحّاس من وضوح ودقّة وما يمتاز به منهاجه في التصنيف من الامانة والتثبّت وإنّ في ذلك ما يدعو إلى الاطمئنان إلى ما ذكر . وقد قوّى اطمئناننا إليه ما عثرنا عليه عند مراجعة بعض المصادر الاخرى كبقيّة شروح « المعلّقات » وطبقات ابن سلاّم وجمهرة أشعار العرب من قرائن تؤيّد ما نبّهنا إليه ابن النحّاس .

---

(10) راجع المخطوط المذكور الورقة : 1

فمن هذه القرائن اجماع ابن كيسان (11) وابن الانباري وابن النحّاس ومن تبعهم كالزوزنـي والتبريزي على أنّ أصحاب القصائد السّبـع هم امرؤ القيس وطرفـة وزهيـر ولبيد وعنترة وعمرو بن كـلثوم والحارث بن حلّزة .

ومنها أنّ التبريزي لمّا أثبت في شرحه بعض القصائد الاخرى ذكـر أنّـه اتّبـع ابن النحّاس في إضافة قصيدتـيْ الاعشى والنابغة إلى القصائد السبـع المتّفق عليها وزاد قصيدة عبيد بن الابرص لتمام العشر (12) .

ومنها أنّ صاحب العقد الفريد ذكـر أنّ « المعلّقات لامرىء القيس ولزهير ولطرفة ولعنترة ولعمرو بن كـلثوم وللبيد وللحارث بن حلّزة » (13) فوافق بذلك ما أجمع عليه شارحو القصائد السبـع .

هذه رواية أقدم المراجـع وأثبتها لم يخالفها إلاّ أبو زيد القرشي (14) ومن نقل عنه (15) . فقد أورد في القسم الاوّل من جمهرته سبـع قصـائد سمّـاها « بالمعلّقات » وهـي قصائد امرىء القيس وزهير ونابغة بني ذبيان وأعشى بـكر

---

(11) أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان من نحاة البصرة . قيل إنه توفي سنة 299 هـ وقيل سنة 320 هـ (راجع بروكـلمان : تاريخ الأدب العربـي ج 2 ص 171) .
وشرحه لم ينشر بعد . ولـكـن بروكـلمان نص (ج 1 ص 70) على أن منه مخطوطـا ببـرليـن لا يحتوي إلا على شروح معلقات امرىء القيس وطرفة ولبيد وعمرو والحارث . ونحن نذهب إلى أن المخطوط ناقص لما ذكره ابن النحاس في النص أعلاه من أنه اعتمد رواية ابن كيسان وما أثبته صاحب نزهة الألباء (ص 302) من أن من مصنفات شرح القصائد السبع الطوال .

(12) شرح القصائد العشر ص 1 (راجع ايضا بلاشار : تاريـخ الادب العربـي ج 1 ص 147) .

(13) ابن عبد ربه : العقد الفريد (طبعة لجنة التـأليف والترجمة والنشر) ج 5 ص 269 .

(14) أبو زيد محمد بن أبـي الخطاب القرشي : وهو مجهول الهوية . لم يدرج اسمه بين البرواة الأقدمين واختلف مؤرخو الأدب في تحديد القرن الذي عاش فيه فذهب جرجي زيدان وبلاشار إلى أنه من رجال القرن الثالث وذهب شوقي ضيف إلى عده من أبناء القرن الرابـع . (راجع بلاشار : تاريخ الأدب العربـي ج 1 ص 142) وجرجـي زيدان : تاريـخ آداب اللغـة العربية ج 2 ص 125 وحاشية شوقي ضيف على كـتاب جرجـي زيدان المذكـور .

(15) نقل عنه ابن رشيق في العمدة (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) ج 1 ص 78 والسيوطي في المـزهر (ط الازهرية) ج 2 ص 297 وذكـر كـلاهما أنه اعتمد الجمهرة .

ابن وائل ولبيد بن ربيعة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد (16) . وذكر أنّها القصائد السبع الطوال (17) . وهذا ما جعل الباحثين يذهبون إلى القول باختلاف الروايات في تعيين المعلّقات . فلنمعن النظر في الجمهرة علّنا نهتدي إلى أسباب هذا الاختلاف .

تتألّف جمهرة أشعار العرب من أقسام سبعة يشتمل كلّ قسم منها على سبع قصائد وافتتحها صاحبها بمقدّمة جمع فيها دون نقد ولا تمحيص كثيرا من الاخبار والخرافات عن « أوّل من قال الشعر » وموقف النبيء من الشعر « وشياطين الشعراء »...

والجمهرة في جوهرها أشبه بكتب « الطبقات » منها بكتب « الاختيارات » (18) لاعتمادها تبويبا يقصد إلى التفضيل كما يظهر من عناوين أقسامها (19) ومن الفصل الذى أدرجه صاحبها في مقدمة مصنّفه وسمّاه « بطبقات الشعراء » محاولا أن يبرّر فيه تنزيله من ذكر من الشعراء المنازل التي حدّد .

---

(16) أضافت بعض نسخ الجمهرة معلقة ثامنة وهي قصيدة عنترة ولكن يظهر أن ذلك من تحويرات النساخ . فقد ذكر صاحب الجمهرة قصيدة عنترة في « المجمهرات » . (انظر بلاشار : المرجع المذكور اعلاه) .

ونلاحظ من جهة أخرى أن قصيدتي الأعشى والنابغة المذكورتين في الجمهرة غير القصيدتين المذكورتين في شرح ابن النحاس .

(17) الجمهرة (ط دار صادر) ص 80 – وقد اثبتنا النص أسفله .

(18) لم يغب ذلك عن الأستاذ بلاشار فقال : « إن هذه المجموعة (يعني الجمهرة) تذكرنا من بعض نواحيها بطبقات ابن سلام ولكنها تبدو من نواح أخرى . وخاصة ما جاء في مقدمتها من أحاديث سخيفة كمرجع ضعيف الأهمية... » (تاريخ الأدب العربي ج 1 ص 143) .

(19) وهي : « المعلقات » و « المجمهرات » و « المنتقيات » و « المذهبات » و « المراشي » و « المشوبات » و « الملحمات » .

وقد اعتمد في هذا الفصل أبا عبيدة (20) من جهة ومن سمّاه بالمفضّل (21) من جهة أخرى ، اعتمد أبا عبيدة في تفضيل بعض الشعراء على بعض بينما أخذ عن المفضّل طريقته في جمع الشعراء سبعة فسبعة وحشر كلّ سبعة في قسم معيّن ولكنّه خلط بين أقوال هذا وذاك . فقد جاء في أوّل هذا الفصل ما نصّه (22) :

« قال أبو عبيدة : أشعر النّاس أهل الوبر خاصّة ، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة فإن قال قائل : إنّ امرأ القيس ليس من أهل نجد ، فلعمري إنّ هذه الديار التي ذكرها في شعره ديار بني أسد بن خزيمة .

وفي الطبقة الثانية : الاعشى ولبيد وطرفة .

وقيل : إنّ الفرزدق قال : امرؤ القيس أشعر النّاس وقال جرير : النابغة أشعر الناس . وقال الاخطل : الاعشى أشعر الناس وقال ابن أحمر : زهير أشعر الناس وقال ذو الرمة : لبيد أشعر الناس وقال ابن مقبل : طرفة أشعر الناس وقال الكميت : عمرو بن كلثوم أشعر الناس .

والقول عندنا ما قال أبو عبيدة : امرؤ القيس ثم زهير والنابغة والاعشى ولبيد وعمرو وطرفة .

وقال المفضّل : هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسمّيها العرب السموط . فمن قال : إنّ السّبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة » .

---

(20) أبو عبيدة معمر بن المثنى (110 – 210 ؟) من مشاهير ائمة الأدب (راجع بروكلمان ج 2 ص 142) .

(21) ليس هذا المفضل بالمفضل الضبي ولم يهتد الباحثون إلى معرفته (انظر : بلاشار : المرجع المذكور ص 142) .

(22) الجمهرة (ط . دار صادر) ص 80 .

فالملاحظ في هذا النصّ أنّ صاحب الجمهرة قد تصرّف في ما رواه من أقوال أبي عبيدة فجمع بين طبقتيْن من طبقاته وأضاف عمرو بن كلثوم وما ذُكر عمرو بن كلثوم في قول أبي عبيدة ثم انتقل من الحديث عن طبقات الشعراء إلى الحديث عن القصائد وقد كان الحديث عن الشعراء لا عن القصائد وقد أراد بذلك التمهيد إلى قوله الخاصّ الذي قدّمه على أنّه قول أبي عبيدة وما هو بقول أبي عبيدة واحتجّ بقول المفضّل وأورده على أنّه اجماع وما هو بالاجماع .

وهذا ما يحملنا على اعتبار رواية الجمهرة رواية ضعيفة لا يمكن اعتمادها . ولكن قد يكون من المفيد لرفع ما أوقعنا فيه صاحب الجمهرة من الالتباس أن نحاول ايضاح آراء أبي عبيدة ومرجعنا ما دامت طبقاته (23) لم تنشر طبقات ابن سلاّم الجمحي (24) وما أوردته شروح القصائد السّبع من أقوال أبي عبيدة .

وليس في هذه المراجع ما يدلّ على أنّ أبا عبيدة قد خالف غيره من أئمة اللّغة في رواية المعلّقات ؛ بل في شروح القصائد السبع ما يذهب بنا إلى ترجيح خلاف ذلك . فقد اعتمد ابن الانباري مثلا في شرحه على كثير من الاقوال المروية عن أبي عبيدة (25) فجاء في الصفحة 432 من شرحه ما نصّه :

أخبرنا أحمد بن محمد الاسديّ . قال : أخبرنا أبو عبد الله بن النطّاح . قال : حدّثنا أبو عبيدة قال : « أجود الشعراء قصيدةً واحدة جيّدة

(23) ذكر بروكلمان أن لأبي عبيدة مصنفا في « طبقات الشعراء » منه مخطوط ببيروت (المرجع المذكور ج 2 ص 143) .

(24) أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي المتوفي سنة 231 وقيل سنة 232 هـ . وهو من أثبت الرواة وطبقاته من أجل كتب الأدب فائدة (راجع بلاشار : تاريخ الأدب العربي ج 1 ص 139).

(25) ذكر أبو عبيدة في 92 موضعا من شرح ابن الأنباري (انظر نشرة الشرح لعبد السلام محمد هارون : ص 700) .

طويلة ثلاثة نفر : عمرو بن كلثوم والحارث بن حلّزة وطرفة بن العبد » (26) .

وذكر ابن الانباري أبا عبيدة في شرحه لبعض أبيات قصيدة الحارث فقد جاء في تفسيره للبيت 32 منها وهو :

هل علمتم أيام ينتهب النّا س غوارا لكلّ حيّ عواء

ما نصّه (27) :

« قال أبو عبيدة في قوله : « أيام ينتهب الناس » قال : هي أيام غزا فيروز الترك فاسروه فضعف أمر ملك العرب فجعلت بكر بن وائل تغير على القبائل حتّى أغارت على تميم فأصابت منها أسرى وسبايا » .

فهذه الامثلة ترجّح عندنا أنّ أبا عبيدة ساهم كغيره من أئمة اللّغة في رواية مجموعة القصائد السّبع وشرح غريبها وأنّه لم يخرج في روايته لها عن الاجماع الذي ذكرناه . أمّا ما يروى من أقواله في تفضيل بعض الشعراء غير أصحاب السّبع على بعض أصحاب السّبع فلا علاقة لها برواية المعلّقات وإنّما هي أحكام تنتظم في نظرة نقديّة عامّة تهدف إلى تحديد مكانة كلّ شاعر من الحياة الشعريّة في عصره .

ويجدر بنا أن نذكر في هذا المقام أنّ مصنّفات أئمة اللّغة في ذلك العصر كانت على نوعيْن مختلفيْن : الاختيارات وهي منتخبات لقصائد معلومة

(26) يؤيد ذلك ما ذكره ابن سلام في طبقاته (ص 115 و127) من أنهم من أجود الشعراء واحدة ونلاحظ أن صاحب الجمهرة لم يذكر الحارث بن حلزة في جمهرته .

(27) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابي بكر محمد بن القاسم الأنباري (القاهرة 1963) ص 470 — 471 .

اختيرت لاشتهارها أو لجودتها أو لغاية تعليميّة (28)... « والقصائد السّبع » من هذا الصنف وتصانيف نقدية أعظم خطورة وأجلّ شأنا تنزع إلى تنزيل الشعراء منازلهم من المجاري الادبية في عصرهم وجمعهم في طبقات باعتبار بيئتهم وجودة آثارهم وخصوبة إنتاجهم والاغراض التي تناولوها وتتمثل هذه النزعة في أحكام أبي عبيدة وفي طبقات ابن سلاّم .

وممّا يشعرنا بالفرق الجوهري بين المنهاجيْن أنّ ابن سلاّم ذكر في طبقاته « أنّ طرفة أشعر الناس واحدة » وعدّه في الطبقة الرابعة لا الطبقة الاولى وأنّه جمع في هذه الطبقة الرابعة « رهطا من فحول الشعراء موضعهم مع الاوائل وإنّما أخلّ بهم قلّة شعرهم بأيدي الرواة » (29) .

فقد كان مصنّف الاختيارات لا ينظر إلاّ إلى جودة القصيد المنتخب بينما كان صاحب الطبقات يراعي مقاييس نقديّة عديدة لتحديد مكانة الشاعر تحديدا دقيقا .

وقد التبس الامر على بعض الرواة فخلطوا بين أقوال الائمة . وكان الفضل لابن النحّاس في تنبيهنا إلى هذا الالتباس الذي لاحظ بوادره في عصره وتبيّنّاه جليّا في دراستنا للجمهرة .

أمّا القصائد السّبع الطوال « فنذهب إلى عدّها من كتب الاختيارات وقد يكون حمّاد جامعها وقد لا يكون ولكنّ اعتقادنا هو أنّ هذه « القصائد السّبع » كانت متناقلة في القرنيْن الثاني والثالث كمصنّف متّفق على محتواه تناوله بالشّرح والدراسة أئمة اللغة والادب فاختلفوا في رواية بعض أبيات قصائده أمّا في تعيين القصائد وتعيين أصحابها فلا اختلاف بينهم .

---

(28) كالمفضليات مثلا .

(29) طبقات فحول الشعراء لا بن سلام (تحقيق محمود شاكر) ص 115 .

هذا ما استنتجناه من تأمّلنا في بعض المراجـع نقدّمه إلى الباحثين على أنّه افتراض وترجيـح ونأمل أن نجد في ما قد يتفضّلون بابدائه من ملاحظات مـا يهدينـا إلى الصـواب .

محمد عبد السلام

اضواء حـول مشكلـة « قصر الجـم »

بقلم : الهـادى سليـم

امام الباحث في آثـار Thysdrus (الجم حاليا) مشاكـل عدة اثارت همم المؤرخين منذ اجيال عديدة ولـكـن اهم هذه المشاكـل في نظرنا واجدرها بالعناية تحديـد اسباب اقـامة الرومـان للملعب « Amphithéâtre » كـقصر الجـم في عظمته واتساعه ، ملعب هو اعظم ملعب في افريقية الرومانية والسادس اهمية في العالم الرومانـي بصفة عامة نعنـي تحديد اسباب اقامة مثل ذلك الملعب في جهة تعتبر الآن اقتصاديا جهة قليلة الموارد .

ان الزّائر يلاحظ بلا شك ما بين هذا القصر العظيم وبين ما يحيط به من اراض وبناءات من تباين يدعو الى الاستغراب .

فجهة الجم تعتبر حاليا جهة فلاحية فقيرة لا تـكـاد تفـي بحاجة سكـان هذه القرية ، وعددهم لا يفوق العشرة آلاف ، بينما اسس هذا القصر لثلاثين الف من النظارة على اقل تقدير .

واذا اعتبرنـا عظمـة القصـر (Amphithéâtre) واهميـة الملعب (Cirque) التـي تساوي اهمية ملعب مكسانس (Maxence) برومة ولاحظنا ما في دور الجم

القديمة من فسيفساء ثمينة تدل على بذخ السكـان (1) وثروتهم اتظحت لنا قيمة الجم كمركـز معماري في ذلك العهد ويمكـننا ان نفترض افتراضين لحل هذا المشكـــل :

اولهما ان الامكـانيات الفلاحية لهذه الجهـة كانت اوفـر في ذلك العصـر فعملت على بروز تلك المظاهر الحضارية .

ثانيهما ان هذه الجهة لم تـكـن جهة فلاحية فحسب وان عوامل اقتصاديـة اخرى ، غير الفلاحة ، كالصناعة او التجارة كانت متوفرة لها في ذلك الحيـن فساعدت على ازدهارها بل كانت السبب الاساسـي لذلك الازدهار .

هذا هو المشكـل . وسنحاول قدر المستطاع واعتمادا على ما لدينا من وثائق تاريخية واثرية ان نوضح بعض جوانبه واملنا ان تمدنا الحفريات الحالية بوثائق ادق واوفر فنخرج من الترجيـح الى التحقق العلمـي المركـز .

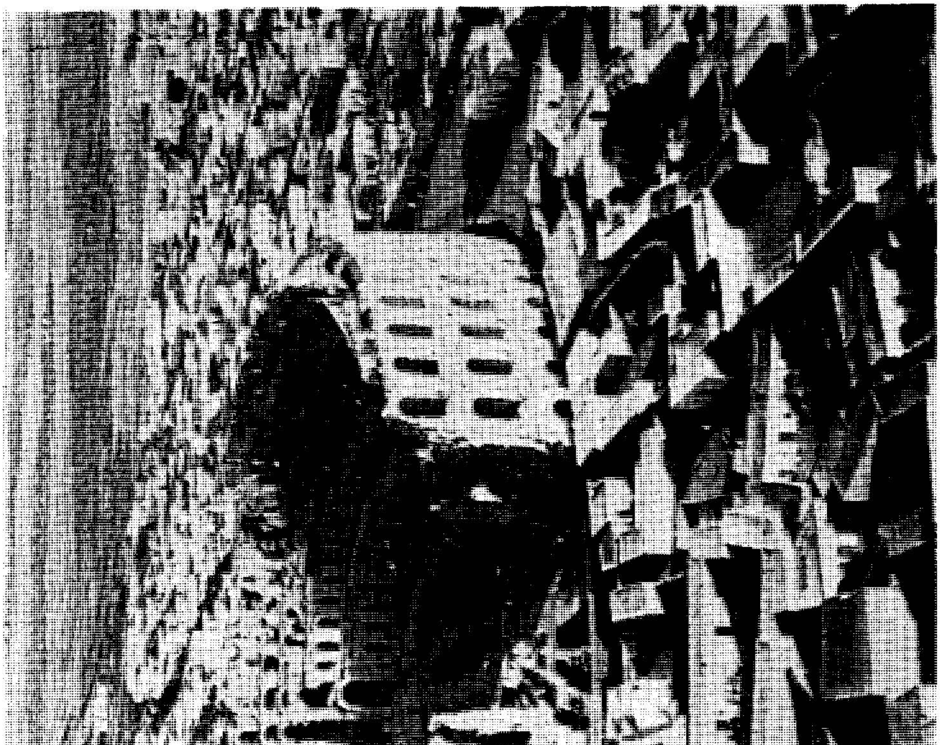
ان علماء الاثار في القرن الماضـي دفعهـم اعجابهـم بمـا تحملـه الارض الافريقية من آثار وتـأثرهم بما جاء في الادب اللاتينـي من وصف فاخر لثروة افريقية الرومانية الى وضع نظرية تحاول ان تفسر الفقر النسبـي الحـالي لهـذه الجهة بتغيير مناخ البلاد تغييرا جوهريا .

وانها لنظرية مغرية لو لم يبن التحقيق العلمـي خطاها فقد أوضح المـؤرخ Gsell (2) مواطن الضعف والخلل في هذه النظريـة فاقـام علميا الدليل على ان

---

(1) انظر : *Louis Foucher :* « Découvertes Archéologiques à Thysdrus 1960
« Découvertes Archéologiques à Thydrus 1961
« La Maison de la pocession Dionysiaque à El Djem ».

(2) انظر : *St. Gsell :* « Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord ».
ج 1 ص 99



مناخ شمال افريقية في ذلك العهد كان شبيها بمناخها اليوم ان لم نقل كان نفس المنـاخ وقد ايده في ذلك الاستـاذ Despois (3) اذ لاحظ ان الابار التـي كانت مستعملة في ذلك العهد ما زالت مستعملة اليوم ممـا يدل على ان مستوى المياه لم يتغير وقام نفس الاستاذ بتحقيقات عديدة في الجهة فاثبت علميا مـا يلاحظه كـل منا من فقر هذه الرقعة من البلاد التونسيـة لفساد التـربـة ونـدور الامطار وقلة انتظامها وطول فترات القحط ورداءة ماء الارض وملوحته فـكـل هذه العوامل تجعل نشاط سكـان الجهة مقصورا على الفلاحـة ، فلاحة قليلـة الانتاج لا يمكـن ان تفـي بحاجيات سكـان مدينة عظيمة .

ان الرومان ولا شك حاولوا ان يخففوا من وطأة الظروف الطبيعية القاسيـة فاستغلوا العبيد لجلب المياه وسقـي ما غرسوه من اشجار الزيتون وهـي اشجـار اكـثر ملائمة للمناخ ، فانشاوا غابة من الزيتون اثارت اعجاب جيش المسلمين عند فتح افريقية ولـكـن موارد هذه الزياتيـن لم تـكـن لتبلـغ من الاهميـة مـا يجعلها العامل الاقتصادي الوحيد على ازدهار مدينة الجم القديمة ذلك الازدهار .

فعلينا اذا ان نوجه بحثنا الى بقية ميادين الحيـاة الاقتصـاديـة علنـا نجـد لمشـكـلنـا حـلا .

ليس لدينا عن الصناعة اية وثيقة تاريخية ولـكـن انعدام الوثائق عـن هـذه الناحية من النشاط الاقتصادي يدعونا الى اعتبارها ناحية ثانوية قليلة الاهمية .

لذلك وجهنا عنايتنا الى دراسة النشاط التجاري لمدينة الجم في القديم فاتضح لنا ان هذه المدينة اتجهت نحو التجارة منذ القرن الاول قبل المسيـح .

فقد جاء في كـتاب « حرب افريقية » المنسوب الى يوليوس قيصر ان بعثة من سكـان الجم اتوه عندما كان بالمنستير واعلموه ان لهم ما يساوي ستة وعشرين

(3) انظـر : *Despois :* « La Tunisie Orientale : Sahel et Basse Steppe » ص 244

الفا ومائتين واثنين وخمسين هكتوليتر قمحا مذخرا في مدينتهم ملكا لبعض التجار (4) الايطاليين ورغبوا منه ان يوجه اليهم فرقة من جنوده لحمايتهم وحماية املاكهم .

فيمكن ان نستنتج من دراسة هذه الوثيقة :

اولا انه كان بالجم في ذلك الحين جماعة من التجار قدموا من ايطاليا لابتياع القمح وكانت الجم السوق التي اتجهوا اليها .

ثانيا — ان كمية القمح المتحدث عنها هامة جدا خاصة والظروف السياسية المضطربة والحروب الدامية كان من شأنها ان تنقص من نشاط الفلاحين . واذ منتوج ثلاثة قناطير من القمح في الهكتار يعتبر الآن منتوجا مرضيا جدا فتكون هذه الكمية اذا منتوج سبعة آلاف هكتار اي منتوج مساحة فسيحة جدا وليست هذه مساحة واحدة اذ ان فلاحي ذلك العصر كانوا لا يزرعون الا في الاودية تاركين مساحات واسعة للمرعى .

فلا بد ان يكون تجار الجم قد اتجهوا عند جمعهم هذا المقدار من القمح لا الى فلاحي جهتهم فحسب بل الى فلاحي منطقة متسعة جدا فتبدو لنا اذا الجم منذ ذلك العهد كسوق تتجمع فيها المنتوجات الفلاحية لمنطقة مترامية الاطراف ولكن الجم بقيت رغم ذلك حتى القرن الثاني مركزا تجاريا متواضعا لان منتوجات الجهة اذا استثنينا القمح لم تكن هامة جدا .

ولكن الثورة الفلاحية التي عرفتها افريقية في القرن الثاني والمتمثلة في انتشار غرس الزيتون (5) جعلت من الجم عاصمة الزيوت في الجهة كصفاقس حاليا .

(4) انظر : *J. Caesar :* « De Bello Africano » XXXVI.

(5) انظر : *H. Camps-Faber :* « L'olivier et l'huile dans l'Afrique Romaine ». ص 26

وقد وافق ذلك ازدهار اقتصادي عام في افريقية فنما عدد السكـان وكـثرت المدن واتسعت (6) وتعددت الطرقات وتحسنت فاصبحت الجم واسطة شبكـة الطرقات في الجهة الوسطى من البلاد التونسية فكـانت لموقعها الممتاز تربط تجاريا بين موانـي الساحل ومدن داخل البـلاد فكـانت تجمع منتوجات الجهة وتمـد الموانـي بالمصدرات وتوزع من ناحية اخرى ما تورده تلك الموانـي .

والجم كانت مفترق طرق (7) تربط بينها وبين سوسة (8) وبينها وبيـن لمطـة (9) وبينها وبين سلقطة (10) وبينهـا وبين انشلـة (10) وبينهـا وبيـن طينة (10) ولـكـن من اهم الطرقات التـي كانت تمر بالجم هـي الطريق الرابطة بينها وبين سبيطلة وتلبت (11) تلك الطريق التـي تتصـل بطريـق قـرطـاج الى تبسه (12) وتمر بعدة مراكـز معمارية هامة واستعمل اهالي الجم هذه الطرقات للقيام بتجارتهم المتنوعة البضاعات وللزيت في هذه التجـارة المقام الاول ولنا عن ذلك ادلـة :

اولا ــ اهمية غابة الزيتون في تلك الربوع ، تلك الغابة التـي اندثر القسم الوافر منها ولـكـن ما زالت آثارها تظهر لنا مرتسمة في الصورة الجوية لتلك الجهـــة (13) .

(6) انظـر : G. C. Picard : « La Civilisation de l'Afrique Romaine ».

(7) انظـر الخريطة المصاحبة لـكتاب : P. Salama : « Les Routes Romaines d'Afrique du Nord ».

(8) اي : Hadrumetum في القـديم

(9) اي : Lepti Minor او Lepti Minus

(10) اي : Sullectum و Usulu و Thaenae

(11) قـرب فريانـة :

(12) اي تبسـة : Tebessa

(13) انظـر : P. Bourde : « Rapport ». ص 17 و 18
كـذلك Ch. Saumagne : C.R.A.I. 1929.
« Cahiers de Tunisie » 1962. ص 207 الى 212



ثانيا — وفرة المصابيـح الزيتية الدالة عن نمو الانتاج الزيتـي . فاحصائيات فهرست متحف « باردو » (14) وتدل على ان هذا المتحف يشتمل ، حالما وقعت الاحصائيات ، على مصابيـح عثر عليها في الجم ، صنعت في القرن الثانـي والثالث (15) ، وتساوي سدس مجموع المصابيـح الرومانية التـي وجدت بتونس وليس لقرطاج ، اي عاصمة البلاد الا الرتبة الثانية بعد الجم .

ثالثا — ما نلاحظه مرسوما على اوانـي تلك الفترة من مشاهد تصـور رواج استغلال الزيت في نفس الفترة (مثلا صورة العبد الحامل لاحدى جرات الزيت) .

رابعا — قيام ثورة سنة مائتين وثمان وثلاثين بعد المسيـح في الجم ومبـايعـة والي افريقية قرديان (Gordien) امبراطـورا (16) في شهر فيفـري اي في شهر تم فيه جمع الزيتون وابتدات العمليات التجارية لبيـع الزيوت فمبايعة قرديان امبراطورا في هذه المدينة يدلّ على انها كانت تعرف في مثل هذه الفترة من كـل سنة نشاطا عظيما وان اهالي الجهة يتجمعون في ذلك الشهر في هذه المدينة .

والمعتقدات الدينية لاهالي هذه المدينة تؤيد ما افترضناه من اهمية التجـارة بالنسبة لحياة المدينة . فقد كانت غالب مدن وقرى افريقية في ذلك العهد تعبد آلهة فلاحيـة « كساتـورن » « Saturne » بينمـا كان اله الجم السـاهر على كيانها وحامي حماها « مركور » « Mercure » اي اله التجارة والهالاسفار (17) .

---

(14) انظـر : « Catalogue du Musée Alaoui ».

(15) انظـر : *Carton :* « Bulletin de la Société de géographie et d'archéologie d'Oran ».
« Les fabriques de lampes dans l'ancienne Afrique »
ص 72
كـذلك *Hautecœur :* « Gazette des Beaux-Arts » 1902.
ج II ص 265 الخ ......

(16) انظـر : « Histoire Auguste ».

(17) انظـر : ج « Corpus Inscriptionum Latinarum » VIII.
رقـم 22.845
51 الخ ......

وعبادة هذا الإله بهذه الصفة اي باعتباره الإله الساهر على كيان المدينة ظاهرة نادرة فهو الاه الجم ولطة (Lepti Minus) وصبراطة (Sabratha) فحسب وهي كلها مدن تجارية قبل كل شيء .

واعتبار اهل الجم « مركور » الإله الساهر على مدينتهم تثبته عدة نقائش سنخص بالدرس منها نقيشة البصرة (Bostra) عاصمة المقاطعة الرومانية بالبلاد العربية اذا ذاك والمركز الفلاحي لتلك الجهة المنتجة للحبوب وهي نقيشة رسمت على مذبح شيده بعض اهالي الجم الذين كانوا مقيمين في تلك المدينة للمتاجرة واقاموه تقربا للاله مركور حامي مدينتهم وهذا نص النقيشة (18) : النّص بالفرنسية !

MERCU
RIO
AUG(usto)
SAC(rum)
TUSDRI
TANI
GEN(io)COL(oniae)
S(uae)F(erunt)

وهذه ترجمة نص النقيشة :

الى مركور المقدس .
نحن ابناء الجم
(نقيم هذا المذبح)
لحامي حمى مدينتنا
(اقمناه) من مالنا الخاص .

فهذه النقيشة تؤيد ما قدمناه من ان « مركور » هو الاله الحامي لمدينة الجم وان هذه المدينة مدينة تجارية كانت تجارتها تمتد الى ابعد الاقطار كما يدل على ذلك وجود هؤلاء التجار ابناء الجم في البصرة (Bostra) .

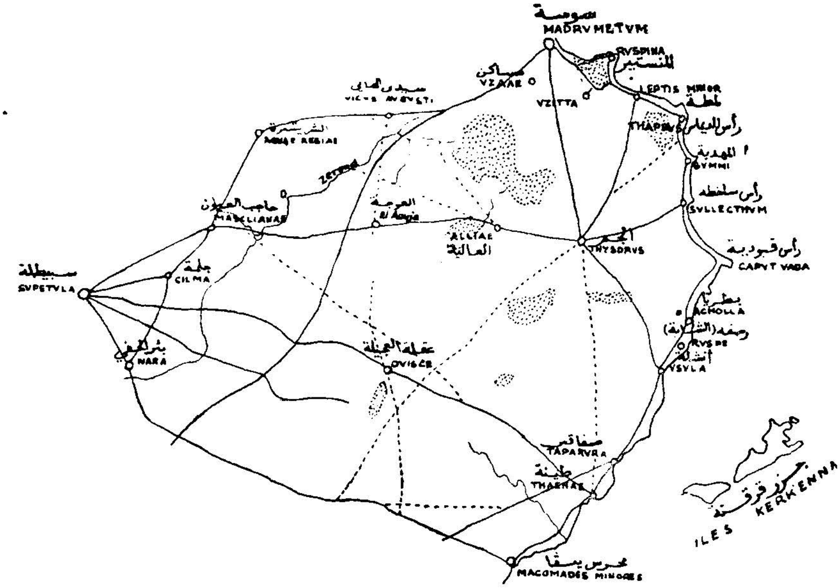
لقد اتضح لنا اذا في هذه الدراسة السريعة ان مدينة (Thysdrus) الجم الحالية قد تطورت بين القرن الاول قبل المسيح والقرن الثالث بعده تطورا اقتصاديا هاما فمن مركز فلاحي لجمع القموح تحولت الى مركز تجاري هام سيطر اقتصاديا على جهة فسيحة من البلاد وكان ذلك نتيجة طبيعية لازدهار فلاحة الزيتون من ناحية وتعدد الطرقات وتحسنها من ناحية اخرى وقد ازدهرت هذه التجارة ازدهارا جعلها تمتد الى ابعد البلدان .

(18) انظر : « Mélanges de l'université Saint Joseph de Beyrouth » XXV, 1942-43. ص 50 الى 53

كذلك « Bulletin Archélogique du comité... », 1946-1949. ص 200

فاذا رجعنا الآن الى النظر في التطور المعماري للجم القديمة وجدناه يماشـي هذا التطور الاقتصادي ويسايره .

قد اقامت هذه المدينة في الفتـرة الاولى من نموها ملعبـا (Amphithéâtre) صغيرا (19) حفرته في الصخر ثم بنـي في مرحلـة ثانيـة ووسع في مرحلـة ثالثـة ولـكـنه لم يصل الى ان يفـي بحاجيات اهالي الجهة خاصة وقد ازدهرت المدينة



ازدهارا عظيما في مستهل القرن الثالث فشيد « القصر » الذي بقيت لنا آثـاره ماثلة وشيد على حسب حاجيات الجهة فـكـان فخما عظيما اذ كانت الجـم وهـي العاصمة الاقتصادية الجهوية التـي اوضحنا اهميتها عاصمة الالعاب ايضا يـأتيها النظـارة من مختلف نواحـي الجهـة فـكـانت بذلك عاصمـة جـدهـم ونشاطهـم وعاصمة انسهم ولهوهم .

(19) يوجد جنوب « الملعب الـكـبير » وعلى مسافـة نصف كلمتر منه .

« المكتبة الافريقية »

سلسلة :
من نصوص ودراسات فى تاريخ افريقية والمغرب

تحقيق : فرحات الدشراوى

II

قضية اقريطش
فى عهد المعز لدين الله

قضية اقريطش

فى عهد المعز لدين الله

هذه وثيقة عمّا كان من صراع حادّ في عهد المعزّ لدين الله بين الدّولة الفاطمية بإفريقية والدّولة البيزنطية . وهي تبرهن عمّا كان يسعى اليه الخليفة الفاطمي من الهيمنة السّياسيّة بحوض البحر الابيض المتوسّط قبل استيلائه على مصر في عهد إمبراطوري بيزنطة قسطنطين الثامن ورومانوس الثاني . وتحتوي هذه الوثيقة على أربعة نصوص من كتاب « المجالس والمسايرات » للقاضي النّعمان (م : 974/363) .

وقد درست هذه النّصوص باللّغة الفرنسيّة في مجلّة « Cahiers de Tunisie » عدد 26 — 27 سنة 1959 وإني أنشرها هنا لاعرّف ببعض ما للكتاب من قيمة كبرى لمن يدرس تاريخ الدّولة الفاطمية بافريقيّة .

وإني أعدّ « المجالس » للطّبع اعتمادا على النّسخة المخطوطة التي تفضّل شيخي الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب فسمح لي باستعمالها وزوّدني بما عوّدني به من جميل نصحه ووجّهني إلى تحقيقها وشجّعني عليها جزاه الله خيرا عن خير سعيه .

النّصّ الاوّل

من ورقـة 244 إلى ورقـة 254

خطاب خاطب به المعزّ (ص) رسول طاغيـة الـروم

قال : وقدم إليه (ص ع) بطريق من بطارقة الرّوم وأشرافهـم رسولا عـن طاغيتهم صاحب القسطنطينية بما أوجبه على نفسه من مغرم الجزية عن أرض قلورية كما يبعث بذلك لكـل سنة وجاء منه بهدايا كثيرة من آنية الذهـب والفضة مرصّعة بالجوهر وديباج وحرير وبرذون وغير ذلك من نفيس ما عندهـم وبكـتاب من مرسله يخضع فيه اليه ويرغب ويسأل ويطلب الكـفّ عن حربه ويسأل الموادعة وبعث بعدد كـثير من أسارى أهل المشرق ما لم يكـن قـطّ قبل ذلك طاغية الرّوم بعث بمثلهم إلى ملك من ملوك المغرب ولا إلى أحد ممـن مضى من الائمة (ص ع) قبل المعزّ (ص ع) ولا أن طاغية الرّوم يؤدّي خـراجا ولا جزية عن أحد من أهل ملته إلى غيره (ص ع) فقبل ذلك الرّسول الارض مرارا بين يدي المعزّ (ص ع) ومثل قائما بين يديه فأدّى إليه رسالة مرسلة ودفع إليه كـتابه واستأذنه في إدخال هديته وذلك بعد أن وصل مال الجزية إلى عامل صقلية على الرّسم المقدم الجاري فأذن له أمير المؤمنيـن (ص ع) في أدخـالهـا وأسعفه بقبولها وكان أكـثر ما أدى اليه الرّسول عن طاغيـة الرّوم وما جاء في كتابه اليه سؤاله الهدنة مؤبدة على ما أجراه من الخراج والجزية على أهل قلورية وبأن يرسل رسولاً من قبله ليسر بذلك ويفعل فيه ما يجب على مثله لمحبته بزعمه وميله فاجاب المعز (ص ع) رسوله عن ذلك بأن الدّين والشريعة يمنعان من الذي سأله من الهدنة المؤبدة لان الله (عج) إنّما بعث محمّدا رسوله (صلع) وأقـام الائمة من ولده يدعون إلى دينه ويجاهدون من خالفه حتى يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون داخلون في حكـم إمام أهل الاسلام وذمته وأن الموادعة إنّما تجوز لمدّة معلومة على ما يراه إمام المسلمين صلاحا لهم وللدّيـن

ولو كانت مؤبدة لبطل الجهاد المفروض على العباد وانقطعت دعـوة الاسـلام وخولف حكـم الـكـتاب وعرفه أنه ممـا ينبغـي لمثل من كان في محلّ ملكـه الذي أرسله الا يغيب عنه مثل هذا من شريعة من يخاطبه ويـكـاتبه والا يسئل ما لا يوجبه الشريعة لمن سأله فاعترف العلج بذلك على مرسله وسأل الزّيادة في مـدّة الهدنة عنه فقال المعز (ص) جواب هذا في كـتابنا المقدم معك قبل اليوم إليه أنّـه ما دام على ما شرطناه عليه وأوجبه لنا على نفسه لم نبدءه... حتى ننبذ اليـه عهده أو بعد أن تنقضـي مدّة الموادعة بيننا وبينه لا نخفر ولا نغدر كما تخفرون انتم وتغدرون وعدد عليه أشياء من ذلك فعلوها فاعتذر منها من ملـكـه بأن ذلك لم يـكـن من فعله فقال له المعز (ص) فاذا كان الامر على ما تصفه من ملـكـك أنّـه يغلب على أمره ويعجز عمن خالفه وغلب عليه من أهل ملته فاي فائدة في موادعته إذا كان عاجزا مغلوبا ولـكـن هل لك وله في أن أعقد له ما يتفق معـه على ما عقده على من يرى أنّـه في غير ممـلـكـتـي ممـن يقابلنـي من جهة المشرق كابن حمدان وغيره فان خرجوا عمّا أعقده عليهم فلا عقد بينـي وبينه فاما من حوته ممـلـكـتـي وحدود طاعتـي فقد علم وعلمت أنّـهم أقدر على أهل دينـه وممـلـكـته وبلده لو أرادوا الخفر والغدر كابن حمدان فهل بلغه أر بلغك أن أحدا منهم تعدى لي فيما جعلته له أمرا وخالف شيئا منه فجعل العلج يعتـرف بذلك وبالفضل لولي الله (ص) ويسأل ويرغب إليه فأعرض المعز (ص) عـن جوابه عن ذلك وجعل يسأله عن كـيف الحال بينهم وبين أهل طرطوس وابـن حمدان في حروبهم ومعاملتهم اياهم في حديث أطاله وكـل ذلك العلج يجيبـه عما يسأله من ذلك عنه فنظر بعض من في المجلس إلى بعضهم كمن لا يدري ما مضى السـّؤال عن ذلك والمفارقة فيـه ثم عـاود العلـج في سؤال رسـول يرسلـه المملـكـة وذكـر له تواتر رسوله عليه وعلى آبـائه قد أقضى الله (عج) بالامـر إليهم وأنّـه لم يمض رسول منه ولا منهم اليه فقال المعزّ (ص) أن أحدا من النّاس لا يرسل رسولا إلى أحد إلا لحاجة له إليه أو لامر يجب عليه ونحن بحمد الله فلا نعلم أن لنا إلى صاحبك من حاجة ولا له علينا أمر راجب فلماذا ترسل

اليه اللّهم الاّ ان يكون أمر من أمور الدّين ينبغي لنا مراسلة ومفاوضة فيه وهو من المباح في دينه ولكن نظن أنّه يكبر عليه فان نحن أرسلنا فيه إليه فعلمت أنّه يجيبنا فيه سهل عليه أن نرسل إليه رسولا كما سئل وسألت عنه فلولا أن ذلك لله (عج) ولدينه لم نفعل ذلك ولا ينبغي لنا أن نفعله إلا بعد أن يتحقق عندنا أنّه يجيب اليه لانا لا نرى أن نسأل أمرا وإن كان لوجه الله (عج) فنجيبه فيه ولان ذلك لو كان لكانت سوء عاقبته عليه ونحن لا نلزمك الجواب في ذلك عنه والقطع فيه عليه إن ذلك مما لا يلزمك ولا ينبغي لك ولكنا سنأمر بذكر ما نريد ذكره لك وتنصرّف وتقف على ذلك منه فاذا علمت منه بالحقيقة أنّه يجيب اليه عرفتنا ذلك عنه فيسهل علينا أن نرسل إليه ولو كان ذلك فيما حوته الدّنيا بحذافيرها أو اشتملت عليه بأقطارها لما سهل علينا أن نرسل فيه رسولا من قبلنا ولكنه لما كان لوجه الله (عج) وابتغاء ثوابه سهل علينا ووجب لدينا فاستعظمه العلج القول في ذلك وأقبل على أمير المؤمنين بالمدح والشكر حتى خرج في قوله ذلك إلى الكفر والتشبيه الذي يعتقده فرد ذلك المعز (ص) عليه وتواضع لله (عج) كما يجب أن يتواضع له وعرفه ذلك ليعلم أنّه لم يرضه من قوله وان كان عند نفسه انّما قصد به تعظيمه ورأى أن ذلك مما يجوز عنده ثم أمره (صلع) بالانصراف إلى المكان الذي انزله فيه فانْصَرَف ثم عطف على من كان في المجلس كانه اطلع على ما كان في قلوبهم فقال لعل بعضكم أنكر ما أطلنا سؤاله عنه عن أمرهم مع أهل المشرق ولم نرد بذلك منه الحديث والمذاكرة ولكنني علمت أنّه رسول قد لقن ما يقول وأوقف عليه وعلى ما يجيب فيه قد لعلّ من أرسله علم أنّه سيسأل عنه فاتيناه من مكان نعلم أنّه لم يتقدّم إليه فيه ولم يعلم مرسله أنّه يسأل عنه حتى أخذنا من قبله ما تقوم به حجتنا عليه من وجه كذا ووجه كذا وعدد وجوها كثيرة مما سمعناه جرى بينهما لم ندر أن في ذلك حجّة حتى ذكره (ص) فاذا فيه حجّة وكيدة لم يظهر إلى أحد ممن حضر إلا عند ذكره إياها وبيانه لها فقبلوا الارض بين يديه وأظهروا السّرور بما وهب الله من التأييد له وأمره من العلم والحكمة به وكان ذلك عنه (ص)

بعد أن سـألهم ما رأوه في مخاطبته إياه فيما خاطبه وما توهموه في مراده في ذلك فلم يـكـن عند أحد منهم علم من ذلك ثم سألهم هل فيما سمعوه من حجّـة يرون أنها تقوم عليه أو على مرسله فما علم أحد منهم ذلك فبعد ذلك قال مـا قاله لهم ممـا ذكـرته عنه (ص) .

النّـص الثانـي

من ورقـة 411 إلى ورقـة 416

فصل من كـتاب كـتَبَ به المعزّ (صلع) إلى طاغية الروم في أمـر أهـل إقـريطش

قال : وكان طاغية الرّوم قد رغب إلى أمير المؤمنين المعز لدين الله (ص) في الموادعة وبذل له على ذلك أموالا وكانت رغبته إليه في الموادعة مدّة طويلة أو أبدية ان وجد ذلك فرأى الامـام لما تبيّن له أن ذلك خيـر للاسـلام والمسلميـن وليستجمعوا فيقووا على حرب المشركـين إن أجابه إلى موادعة خمس سنين ثـم اتصل به بعد ذلك وقبل أن تنقضـي مدّة الموادعة أنّه أرسل الدّمستق الذي هو أقرب رجاله درجة اليه وأخصهم به في عدة من السفن كـثيرة وجيوش ثقيلة حتى أناخ بها على جزيـرة اقريطش وهم في دعـوة بنـي الهامش : فلمـا حل بهم من ذلك ما لا قوام لهم به وعلموا أنّـه ليس عند بنـي العبّـاس .

العبّـاس : نهضة ولا لديه نصرة أرسلوا مركـبا فيه رجال من قبلهم مع وجـه من وجوههم إلى أمير المؤمنيـن المعـزّ لديـن الله (ص) يستغيثـون به ويسألونـه استنقاذهم واعانتهم فلم ير صلوات الله عليه وإن كانوا تنـكـبوا عنه أن يخيـب رجاءهم عنده ولا أن يسلمهم للمشركـين فأمر عندما اتصل به خبرهم وقبل أن يصل إليه رسولهم بالاخذ في الاهبة والعدّة ليكون نفوذ الاساطيل إليهم في أوّل

زمان الامكان ثم قدم الرّسول عليه وأدى عنهم ما أرسلوه به إليه فرأى أن ينبذ إلى المشرك عهده كما أمر الله (تع) بذلك في كتابه إذ هو أمر على حربهم وأمر بكتاب في ذلك اليه واملاه على الكاتب بحضرة من بين يديه بكلام ما سمعت أجزل ولا أبلغ منه فقال بعد أن خيره بين أن يقلع عن حرب أهل اقريطش وبين ان ينبذ إليه عهده كما نبذ رسول الله (ص) إلى مشركي العرب عهدهم وأرسل ببراءة فقرأها في الموسم عليهم ولقول الله أصدق القائلين واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم ثم قال له في كتابه (ع م) ولا يرى ان دعوة أهل اقريطش قبل اليهم إلى غيرنا وقد أنابوا اليوم الينا واستغاثوا بنا ممّا يوجب لك عندنا تمام الموادعة بتركهم إليك وترك اعتراضك فيهم ان امتناع أهل الباطل من اهل الحق ليس بمزيل حقّهم وان تغلبوا عليه دونهم بل هو لهم بتصيير الله (تع) اياه اليهم فاقريطش وغيرها من جميع الارض لنا بما خولنا الله منها وأقامنا له فيما اطاعنا منها ما اطاعنا وعصانا من عصى وليس بطاعتهم يجب لنا ان نملك ولا بعصيانهم يحق علينا أن نترك ولو كان ذلك لكان الامر اليهم لا لله (تع) الذي خولنا ولا لنا ان شاؤا اعطونا وان احبوا منعونا كلا ان ذلك لله الذي له ما في السموات وما في الارض هو الذي اصطفانا وملكنا واعطانا ولو كان ذلك للخلق لما وسعنا فقال من امتنع منهم علينا ولا رد ما انتزعوه بالغصب من أيدينا إذا أقدرنا الله على ذلك وبه قوانا فان قلت أنت غير ذلك وأنت ترى أن ما في يديك لك فقد كان رومانس تغلب عليك وعلى أبيك من قبلك ثم دارت لكما عليه الدّائرة فان رأيت أن من احتجر شيئا وتغلب عليه فهو له دون صاحب الحق الذي ملكه فلم يكن لك ولا لابيك القيام على رومانس ولا انتزاع ما صار اليه من بين يديه فهذه سبيل اهل الحق عندنا فان اعترفت لها فقد انصفت وإن جهلتها لم يكن جهلك اياها حجّة على من عرفها وعهدك ان تماديت على حرب من اناب الينا منبوذا اليك فانظر لنفسك ولاهل ملتك فانا مناجزوك واياهم الحرب بعون الله لنا وتأييده ولا حول ولا قوّة الا به .

النّــص ّ الثـالث

من ورقــة 416 الى ورقـة 420

وفي مثــل ذلك إلى صاحــب مصر

قال : واستمدّ أهل اقريطش هؤلاء صاحب مصر وهم من اهل دعـوتـه تجمعهم دعوة آل عبّاس ومراكـبهم بخيرات بلدهم وأطعمتها تمير أهل مصر وهداياهم تصل إلى عمالها فعجز عن مضرتهم وسئل من ينظر لامير المؤمنين فيما قبله في ان يكتب اليه (صلع) في اغاثتهم واستنقاذهم وأرسل قوما كانوا منهم قبله ليسألوا أمير المؤمنين (صلع) ويرغبوا اليه في ذلك ثم اظهر انه ينصرهم ورمى بعض مراكـب في البحر لما اتصل به انكـار العامّة عليه للتخلف عن نصرتهم فكـتب أمير المؤمنين المعز لدين الله (ص) إلى من يكاتبه بمصر جوابا عن كـتابه اليه بذلك يخبره أنـّه قد أمر باخراج الاساطيل واخذ في عدتها وكان فيما كـتب به اليه ان قل لصاحبك ان الله سبحانه قد خولنا من فضله وأمرنا من معونته وتـأييده بما نرى انا بحوله وقوته ونصره لنا واظهارنا على عدونا انا نـكـف ايدي الكـفرة عما تطاولت اليه من حرب هذا الصّقع والايقاع باهله وقد انتهى الينا أنك اظهرت الحركـة الى الجهاد وامداد هؤلاء القوم بمراكـب من قبلك وأنت لعمري بذلك اجدر لقربهم منك واتصالهم بك وجيرتهم بلدك وكـونهم واياك في دعوة واحدة ولو اسلمنا فهم اليك رقعدنا عنهم لما كان لك ولا لهم علينا حجـّة في ذلك ولـكـنا آثرنا نصرة امة جدنا محمد(ص) ولم نر التخلـّف عن ذلك وقد رجونا له والقوا بانفسهم الينا فيه ونحن لا حول بينك وبين الجهاد في سبيل الله ولا نمنعك من تمام ما املت منه فلا يـكـن ما يتصل بك من انفاذ اساطيلنا يريثك عن الذي هممت من ذلك وان تخشى على من تبعث به وعلى مراكـبك منا فلك علينا عهد الله وميثاقه انا لا نـكـون معهم الا بسبيل خير وانا نحلهم محلّ رجالنا ونجعـل ايديهم مع أيدينا ونشركـهم فيما أفاء الله علينا ونقيمهـم في ذلك وغيـره مقـام

رجالنا ومراكبك مقام أساطيلنا حتى يفتح لنا إن شاء الله ثم ينصرفوا إليك على ذلك أو يكون من امر الله وقضاءه ما هو فاعله فاعلم ذلك وثق به منا ففي تظافر المسلمين على عدوهم واجتماع كلمتهم اعذار لدين الله وكبت لاعداءه فقد سهلنا لك السبيل والله على ما نقول وكيل فان وثقت بذلك ورأيت ايثار الجهاد فاعمل على ان تنفذ مراكبك إلى مرسى طنبة من أرض برقة لقرب هذا المرسى من جزيرة اقريطش ويكون اجتماعهم مع اساطيلنا بهذا المرسى مستهل ربيع الآخر بتوفيق الله وقوته وتاييده ونصره وعونه والا ترى ذلك فقد ابلغنا في المعذرة إليك والنصيحة لك وخرجنا مما علينا اليك (ص) ونحن بحول الله وقوته وتأييده ونصره وعونه مستغنون عنك وعن غيرك وعلى عزم وبصيرة في انقاذ اساطيلنا ورجالنا وعدتنا وما حولنا الله اياه واقدرنا عليه مما نرى بحوله وقوته نبلغ به ما نؤم اليه بذلك ونصمد نحوه فبالله نستعين وعليه نتوكل وعلى تأييده نعول وهو حسبنا ونعم الوكيل .

النّصّ الرابع

من ورقة 421 الى ورقة 423

في بصيرة امير المؤمنين في جهاد المشركين

قال : ولما قدم عليه (ص) رسول أهل اقريطش أمر بإدخاله اليه . فلما مثل بين يديه قبل الارض مرارا وأدّى إليه عن القوم ما أرسلوه به من تضرعهم واستغاثتهم وسؤالهم ورغبتهم واسترحامهم وجعل يذكر له قدر البلد وموضعه من بلد الروم ومن مصر وأنه فرضة لهما وأن الله (تع) إن قدره على دفع المشركين عنه وملكه كان سبب فتح القسطنطنية والمشرق عليه ان شاء الله وعدد ما فيه من الآلات والمعادن وما يتهيّأ به من انشاء الاساطيل وقربه من القسطنطينية ومن مصر في كلام طويل ذكره . فقال المعزّ (ص) : نحن بحول الله وقوته نبلغ

من تحقيق آمالـكم وتصديق ظنـّكم فينا حسب ما أملتموناو رجوتموه وقد أمرنا بتجهيز الاساطيل عندما بلغنا مصيرك إلينا . ولو كان أهل بلدك عجـّلوا ببعثك لوجدنا أنه لم يـكـن أساطيلنا هذا الوقت إلاّ عندهم . ونحن نرجو أنّ الله إذ وفـّقهم الى التطارح إلينا أن يؤيدهـم ويثبتهـم الى أن تصـل أساطيلنـا إليهـم ويستنقذهم الله بذلك بمنـّه وفضله وبما عوّدنا من تـأييده ونصره . وغرضنا في ذلك القيام بما أوجبه الله (تع) علينا من الجهاد لعدونا واستنقاذ من أناب إلينـا من أمة جدّنا ونصرتهم ومعونتهم .

وأما أغراض الدنيا فقد ملـكـنا الله (تع) منها وأعطانا وخوّلنا ما يجاوز الآمال والغايات ويفوت الآمانـي والنهايات ونحن على ثقة من وعده اياه اراثنا الارض كما قال الله في كتابه وإظهارنا بحوله وقوته على جميع أعدائـه . فطـب نفسا وأقم الى أن تنصرف مع أصحابك في أساطيلنا وأمر بردّ رجلين من أصحابه مع رجال من قبله الى أرض إقريطش بجوابهم وبما عزم عليه من إغاثتهم ونصرتهم في أوّل وقت الإمـكـان من الزمان ان شاء الله (تع) .

فرحات الدشراوي

كتاب علل التثنية

لابن جني

بقلم : عبد القادر المهيرى

ظلت شهرة ابن جنى (المتوفى سنة 1002/392) طيلة مدّة من الزمن قائمة على كتابة « الخصائص » (1) الذي لم ينفك علماء اللغة في مختلف العصور يثنون عليه ويقتبسون منه والذي يعتبر عن جدارة اهم ما الف قديما في موضوع اصول النحو العربي . وقد نشر في السنوات الاخيرة كتابان هامان له هما « سر صناعة الاعراب » (2) الذي خصص ابن جني قسما كبيرا منه لدراسة الاصوات العربية « والمنصف » (3) في تفسير تصريف ابي عثمان المازني » الذي يمكن ان يعد من اهم ما وضع في الصرف العربي من الكتب استقصاء وتبويبا .

ولئن كانت هذه الكتب الثلاثة هي اهمّ ما خلّف لنا ابن جنّي واكثر مؤلفاته طرافة ودلالة على تضلّعه في علوم اللغة فإنه لا يمكن اهمال مؤلفاته الاخرى التي

(1) نشر بالقاهرة (1952 – 1956) تحقيق محمد علي النجار (ثلاثة أجزاء) .
(2) نشر الجزء الاول منه بالقاهرة (1954) تحقيق مصطفى السقا وابراهيم مصطفى...
(3) نشر بالقاهرة (1960 – 1954) تحقيق ابراهيم مصطفى وعبد الله امين .

لم يتلفها الزمن والتـي ما زال الـكـثير منها مخطوطا وهذه المؤلفات هـي في غالب الاحيان قصيرة خاصّة بمسألة من مسائل النحو او الصرف او العروض ويمكـن ان نذكـر منها كـتاب المقتضب (4) وهو دراسة لاسم المفعول المعتل العيـن وكـتاب مختصر القوافي (5) وكـتاب علل التثنية (6) .

وموضوع هذا الـكـتاب الاخير مسألة اعراب المثنى وما اثارته من خـلافـات بين نحاة المدرستين وليست اهميته في طرافة الآ راء الواردة فيه فابن جنّـي لا يـكاد يأتـي بجديد هنا بل هو يستعرض اراء مختلف النحاة ويعتنق في نهاية الامـر راي سيبويه (7) فيدعمه بمجموعة من الحجج يستمدّ بعضها من استاذه ابـي على الفارسـي (8) ويستنبط هو البعض الآخر وانما اهمـّيته في النزعة التـي يدلّ عليهـا وفي علاقتـه ببعض مؤلفـات ابن جنّـي الاخرى ولا شك ان اول مـا يسترعـي الانتباه فيه عنوانه الذي يوحـي بغاية المؤلف ويدُلّ على نزعة التعليـل التـي تأصّلت في النحو العربـي لاسباب عديدة اهمها فيما نعتقد الخلاف بين البصرة والـكـوفة وكـتاب « علـل التثنيـة هذا » نموذج لمنهج التعليـل عند ابـن جنّـي وهو يتضمـّن تقريبا انواع الحجج المختلفة كـلها التـي تجدها في اهـمّ مؤلفاته وفيه يلمس الدارس ارتباط مناقشات قد تلوح شـكـلية بمسائل جوهرية هـي اساس النحو العربـي فهو ينتمـي الى طائفة من المؤلفات النحويـة بدأت تظهر منذ القرن الثـالث الهجـري هـي طائفـة كـتب العلـل ولعـل كـتـاب « الايضاح في علل النحو » (9) للزجاجـي المتوفي سنة 337 من اقدمها .

(4) نشره Pröbster (1930) تحت عنـوان المغتصب .
(5) توجد منه نسخة في لالـه لي تحت رقـم 3740 .
(6) توجـد منـه نسخـة بليـدن تحـت رقـم 145 .
(7) اشهـر نحـاة البصرة تـوفي حـوالي (75/79) .
(8) أبو على الفارسـي من نحاة القرن الرابـع الهجري (377 – 288 / 987 – 846) .
(9) نشر بالقاهرة (1959) تحقيق مازن المبارك . انظر فصل كتبه Gérard Troupeau تحت عنـــوان : La grammaire à Bagdad du IX^e au XIII^e siècle. مجلـــة Arabica الجـزء التـاسع 1962 .

و « كتاب علل التثنية » يسترعي الانتباه ايضا بما بينه وبين كتاب سر صناعة الاعراب من علاقة فنصّ علل التثنية يكاد يوجد بحذافيره في سر الصناعة موزعا في اماكن مختلفة من فصلي حرف النون وحرف الالف ولعلّ مقارنة دقيقة بين ما ورد في الكتابين تساعد على استخلاص معلومات حول طريقة ابن جنّي في التأليف .

وانا ننشر فيما يلي كتاب علل التثنية هذا واعتمدنا في تحقيقه على نسخة مصوّرة للمخطوط الوحيد المعروف لهذا الكتاب والموجود بمكتبة ليدن وقد وقع نسخه سنة ستمائة ويتضمن اربعا وعشرين ورقة خصص وجه اولاها للعنوان واسم المؤلف وسجل في ظهر الورقة الرابعة والعشرين تاريخ الانتهاء من نسخه وتحتوي كل صفحة على احد عشر سطرا والخط واضح الا ان الرطوبة قد اثرت في الصفحات الاخيرة فطمست عدّة كلمات . وقد استعنا في تحقيق النص بنسخة مصورة لمخطوط سر صناعة الاعراب الموجود بالمكتبة القومية بباريس تحت رقم 3988 والتي نسخت سنة 552 .

كتاب فيه

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

كتاب علل التثنية

لابن جني

تحقيق : عبد القادر المهيري

بسم الله الرحمن الرحيم ،

قال الشيخ العالم الاوحد ابو الفتح عثمان بن جنّي رحمة الله عليه :

اعلم ان الالف زيدت في الاسم المثنى علما للتثنية وذلك قولك : رجلان وفرسان وزيدان ، واختلف الناس من الفريقين في هذه الالف ما هي من الكلمة فقال سيبويه (1) : هي حرف الاعراب وليس فيها نية الاعراب وان الياء في النصب والجرّ في قولك : مررت بالزيدين ورايت الزيدين حرف اعراب ايضا لا تقدير اعراب فيه ، وهو قول ابو اسحاق (2) وابن كيسان (3) وابي بكر (4) وابي علي (5) . وقال ابو الحسن (6) : ان حرف التثنية ليس بحرف اعراب ولا

(1) انظر التعليق رقم 7 من المقدمة .

(2) ابو اسحاق : الزجاج من نحاة البصرة توفي سنة 310/23 — 922 .

(3) ابن كيسان : ابو الحسن محمد بن احمد نحوي بصري كوفي على حد قول الزبيدي (ص 170) توفي سنة 299/12 — 911 .

(4) ابوبكر : محمد بن السري بن السراج من النحاة الذين اخذوا عن المدرسين وتوفي سنة 316/29 — 928 .

(5) ابو علي : انظر التعليق رقم 9 من المقدمة .

(6) ابو الحسن : ابو الحسن سعيد بن مسعدة من نحاة البصرة (توفي بين 210 و 221/835—825)

هو ايضا باعراب ولـكـنه دليل الاعـراب ، فـاذا رأيت الالف علمت ان الاسم مرفوع واذا رأيت الياء علمت ان الاسم مجرور او منصوب واليه ذهب ابـو العباس (7) وقال ابو عـمَـر الجرمـي (8) : الالف حرف الاعراب كما قـال سيبويه الا انه كان يزعم ان انقلابها هو اعراب ، وقال الفرّاء (9) وابو اسحاق الزيادي (10) وقطرب (11) : الالف هي اعراب وكـذلك الياء واقوى هذه الاقوال قول سيبويه والدليل على صحّة قول سيبويه ان الالف حرف الاعراب دون ان يـكـون الامر فيها على (12) ما ذهب اليه غيره وان الذي اوجب للواحد المتمكـن حرف الاعراب في نحو رجل وفرس هو موجود في التثنية في نحو قولك : رجلان وفرسان وهو التمكـن ، فـكما ان الواحد المتمكـن المعرب يحتاج الى حرف اعراب فـكـذلك الاسم المثنى اذا كان معربا متمكـنا احتاج الى حرف اعراب ؛ وقولنا : رجلان ونحوه معرب متمكـن محتاج الى ما احتاج اليه الواحد المتمكـن من حرف الاعراب اذن . ولا يخلو حرف الاعراب في قولنا : الزيدان والرجلان من ان يـكون ما قبل الالف او الالف او ما بعد الالف وهو النون ، فالذي يفسد ان يـكـون الدال من الزيدان هـي حرف الاعراب انها قد كانت في الواحد حرف اعراب في نحو : هذا زيدٌ ورأيت زيدا ومررت بزيدٍ ؛ وقد انتقلت عن الواحد الذي هو الاصل الى التثنية التي هي الفرع كما انتقلت عن المذكر الذي هو الاصل في قولنا : هو قائم الى المؤنث الذي هو الفرع في قولك : هـي قائمة ؛ فـكما ان الميم في قائمة ليست حرف الاعراب فـكـذلك ينبغـي ان يـكـون علم التثنية في نحو قولك : الزيدان والعمران هو حرف الاعراب وعلم التثنية هو الالف ؛ فينبغـي ان تـكـون هـي حرف الاعـراب كـمـا كانت الهاء في قائمـة حـرف

(7) أبو العباس احمد بن يحيى ثعلب من نحاة الـكـوفة (291 — 904/200 — 815) .

(8) ابو عمر صالح بن اسحاق الجرمي من نحاة البصرة توفي سنة : 225 هـ / 839 ـ 840 م .

(9) الفـراء : من نحـاة الـكـوفـة (20 — 822/144 — 761) .

(10) ابو اسحاق الزيادي : من نحـاة البصرة توفي سنة 64/249 — 863 .

(11) قطرب : أبو علي محمد بن احمد المستنصر من نحاة البصرة توفي سنة 221/206

(12) في الاصـــل : علي .

الاعراب ، على ان احد لم يقل : ان ما قبل الف التثنية حرف الاعراب وانما قلنا احتياطا لئلا تدعو (13) الضرورة انسانا الى التزام ذلك فيكون جوابه بما يفسد به مذهبه حاضرا ؛ وايضا فلو كان حرف الاعراب في الزيدان هو الدّال كما كان في الواحد لوجب ان يكون اعرابه في التثنية كإعرابه في الواحد ، كما ان حرف الاعراب في فرس لما كان هو السين وكان في افراس ايضا هو السين كان اعراب افراس كإعراب فرس (14) وهذا غير خفي ، ولا يجوز ان تكون النون حرف الاعراب لانها حرف صحيح يحتمل الحركة فلو كانت حرف اعراب لوجب ان نقول : قام الزيدانُ ورأيت الزيدانَ ومررت بالزيدانِ فتعرب النون وتقر الالف على حالها كما نقول : هؤلاء غلمانٌ ورايت غلماناً ومررت بغلمانٍ ؛ وايضا فإن النون قد تحذف في الاضافة ولو كانت حرف اعراب لثبتت كما تقول : هؤلاء (15) غلمانُك ورأيت غلمانَك ومررت بغلمانِك ، فقد صحّ ان الالف حرف الاعراب . فإن قال قائل : فإذا كانت الالف حرف الاعراب فما بالهم قلبوها في الجرّ رالنصب ؟ وهلا دلك قلبها على انها ليست كدال زيد اذ الدال ثابتة على كل حال ؟ فالجواب عن ذلك من وجهين : احدهما ان انقلاب الالف في الجرّ والنصب لا يمنع من كونها حرف اعراب لانا قد وجدنا فيما هو حرف اعراب بلا خلاف بين اصحابنا هذا الانقلاب ، وذلك الف كلا وكلتا من قولهم : قام الرجلان كلاهما والبنتان كلتاهما ومررت بهما (16) كليهما وكلتيهما وضربتهما كليهما وكلتيهما ، فكما ان الالف في كلا وكلتا حرف اعراب وقد قلبت كما رأيت فكذلك ايضا الف التثنية هي حرف اعراب وان قلبت في النصب والجرّ ؛ ومثل ذلك من حروف الاعراب التي قلبت قولهم : ابوك واخوك وحمءك وفوك وهنوك وذو مال ،

---

(13) في الاصل : ليلا تدعوا .

(14) في الاصل : افراس .

(15) في الاصل : هآولا .

(16) في الاصل : بها .

فـكما ان هذه كـلها حروف اعراب وقد تراها منقلبة فـكـذلك لا يستنـكـر في حرف التثنية ان يقلب وان كان حرف اعراب . قال ابو علي : ولو لم تـكـن الواو في ذو وفو حرف اعراب لبقـي الاسم الواحد على حرف واحد وهو الذال ؛

واما الوجه الآخر فإن في ذلك ضربا من الحـكمة والبيان ، وذلك انهم ارادوا بالقلب ان يعلموا ان الاسم باق على اعرابه ، وانه متمكـن غير مبنـي ، فجعلوا القلب دليلا على تمكـن الاسم ، وانه ليس بمبنـي بمنزلة متى واذا وأنّى ممـا هو مبنـي في آخره الف فإن قيل : فإذا كـانت الالف في التثنيـة حـرف اعـراب فهلا بقيت في الاحوال الثلاث الفا على صورة واحدة كما ان الف حبلى وسكرى حرف اعراب ، وهـي في الاحوال الثلاث باقية على صورة واحدة في قولك : هذه حبلى ورأيت حبلى ومررت بحبلى ، فالجواب ان بينهما فرقا وذلك ان الاسماء المقصورة التـي حروف اعرابها الفات وان كانت في حال الرفع والنصب والجـر على صورة واحدة فإنها قد يلحقها من التوابـع بعدها ما ينبه على موضعها من الاعراب ، وانت لو ذهبت تصف الاثنين لوجب ان تـكـون الصفة بلفظ التثنية، الاترالك لو تركـت التثنية بالالف على كـل حال لوجب ان تقول في الصفة : رأيت الرجلان الظريفان (17) ومررت بالرجلان الظريفان فتـكـون (18) لفظ الصفة كـلفظ الموصوف على كـل حال فلا تجد هناك من البيان ما تجده اذا قلت : رأيت عصا معوجة او طويلة ونحو ذلك مما يبين فيه اعراب ، فلما كـان كـذلك عدلوا الى ان قلبوا لفظ الجر والنصب الى الياء ليـكـون ذلك ادلّ على تمكـن الاسم واستحقاقه الاعراب ؛ على ان من العرب من لا يخاف اللبس ويحري الباب عـلى قياسه فيدع الالف ثابتة في الاحوال الثـلاث فيقول : قام الزيدان ومررت بالزيدان وهم بنو الحرث بن كـعب وبطن من ربيعة ؛ فاعلـم ان سيبويه يرى ان الالف في التثنية كما انه في لفظها اعراب فـكـذلك لا تقدير

(17) في الاصـل : الطـريقـان .

(18) سـر صنـاعـة ورقـة 204 ظهـر ، سطـر 20 .

اعراب فيها كما يقدر في الاسماء المقصورة المعربة نية الاعراب ؛ ويدلّ على ان ذلك مذهبه قوله : ودخلت النون كأنها عوض عما منع الاسم من الحركة والتنوين ، فلو كان في الالف عنده نية حركة لما عوض منها النون كما لا يعوض في قولك : هذه حبلى ورايت حبلى ومررت بحبلى النون . قال ابو علي : ويدلّ على صحّة ما قال سيبويه من انه ليس في حرف الاعراب من التثنية تقدير حركة في المعنى كما ان ذلك ليس موجودا فيها في اللفظ صحّة الياء في الجرّ والنصب في نحو مررت برجلين وضربت رجلين ؛ فلو كان في الياء منها تقدير حركة لوجب ان تقلب الفا كرحَى وفتى ؛ الا ترى ان الياء اذا انفتح ما قبلها وكانت في تقدير حركة وجب ان تقلب الفا . وهذا استدلال أتى على قياس وهو في نهاية الحسن وصحّة المذهب وسداد الطريقة ؛ فإن قلت : النون عند سيبويه عوض مما منع الاسم من الحركة والتنوين فما بالهم قالوا في الجرّ والنصب : مررت بالزيدين ورأيت الزيدين فقلبوا الالف ياء وذلك علم الجرّ والنصب ، ثم عوّضوا من الحركة نونا ، وكيف يُعَوّض من الحركة نون وهم قد جعلوا قلب الالف ياء قائما مقام علم التثنية في الجرّ والنصب ؟ وهل يجوز ان يعوض من شيء شيءٌ وقد أقيم مقام المعوّض منه ما يدلّ على ذلك ويغني عنه ؟ فالجواب ان ابا علي ذكر انه انما جاز ذلك من الانقلاب معنى لا لفظ اعراب ؛ فلما لم يوجد في الحقيقة في اللفظ اعراب جاز ان يعوّض منه النون وصار الانقلاب دليلا على التمكن واستحقاق الاعراب . قال ابو الفتح : وهذا ايضا من لطيف ما حصلتُه عنه فافهمه . ونظير الف التثنية في انها حرف اعراب وعلامة التثنية الف التأنيث في نحو حبلى وسكرى ، الا ترى انها حرف اعراب وهي علم التأنيث الا انهما تختلفان في ان حرف التثنية لا نية حركة فيه والف حبلى فيه نية حركة . قال ابو علي : ويدل على ان الالف في التثنية حرف اعراب صحة الواو في مِذْرَوَانِ ، قال : الا ترى انه لو كانت الالف اعرابا ودليل اعراب وليست مصوغة في جملة بناء الكلمة متّصلة بها اتصال حرف الاعراب بما قبله لوجب ان تقلب الواو ياءً فيقال : مِذْرَيَان لانها كانت

تكون على هذا القول كَلاَمِ مغزى ومَدعى ، فصحة الواو في مذروان دلالة على ان الالف من جملة الكلمة وانها ليست في تقدير الانفصال الذي يكون في الاعراب . قال : فجرت الالف في مذروان مجرى الالف في عنوان وان اختلفت النونان ، وهذا حسن في معناه .

فاما قول ابي الحسن ان الالف ليست حرف اعراب ولا هي اعراب ولكنها دليل الاعراب فإذا رأيت الالف علمت ان الاسم مرفوع واذا رأيت الياء علمت ان الاسم مجرور او منصوب . قال : ولو كانت حرف اعراب لما علمت بها رفعا من نصب ولا جر كما انك اذا سمعت دال زيد لم تدلّ على رفع ولا نصب ولا جر . وهذا الذي ذكره غير لازم وذلك انا قد راينا حروف اعراب بلا خلاف تفيدنا الرفع والنصب والجرّ وهي ابوك واخواته . واما قوله ليست باعراب فصحيح [وسنذكر] (19) ذلك في فساد قول الفرّاء والزيادي . واما قوله لو كانت حرف اعراب لوجب ان يكون فيها اعراب هو غيرها كما ان كان ذلك في دال زيد فيفسده ما ذكرناه من الحجاج في هذا عند شرح مذهب سيبويه اولا قال ابو علي : ولا تمتنع الالف على قياس قول سيبويه انها حرف اعراب ان تدلّ على الرفع كما دلّت عليه عند ابي الحسن لوجودنا حروف اعراب تقوم مقام الاعراب في نحو هذا ابوك ورأيت اباك ومررت بأبيك واخواته وكلاهما وكليهما . ولكن وجه الاختلاف بينهما ان سيبويه قد زعم انها حرف اعراب لا تدلّ على الاعراب .

واما قول الجرمي (20) انها في الرفع حرف اعراب كما قال سيبويه – ثم كان يزعم ان انقلابها هو الاعراب – فضعيف مدفوع ايضا وان كان ادنى الاقوال الى الصواب الذي هو راي سيبويه رحمه الله ، ووجه فساده انه جعل الاعراب في الجرّ والنصب معنى لا لفظا وفي الرفع لفظا لا معنى فخالف بين جهات الاعراب

---

(19) سر صناعة : وجه ورقة 206 سطرا 17 .

(20) الجرمي : ابو عمرو بن اسحاق من نحاة البصرة توفي سنة 840/225 .

في اسم واحد . الا ترى ان القلب معنى لا لفظ ، وانما اللفظ المقلوب والمقلوب اليه ، وليس كـذلك قول سيبويه ، إنه قال : ان النون عوض لما مُنِـع الاسم من الحركـة والتنوين لان النون على كـل حال لفظ لا معنى . [فاذا قلت : فاذا كان] (21) قلب الالف ياء في النصب والجر هو الاعراب عند الجرمـي فما الذي ينبغـي ان يعتقد في النون [في] (22) حال النصب والجر وهل هـي عنـده عوض من الحركـة والتنوين جميعا او عوض من التنوين وحده اذا كان القلب قد ناب – على مذهبه – عن اعتقاد النون عوضا عن الحركـة ، فالجواب ان ابا علي سوّغ ان تـكـون النون عوضا عن الحركـة والتنوين جميعا وانه كان يقول : ان الانقلاب هو الاعراب وذلك انه لم يظهر الى اللفظ حركـة وانما هناك قلب فحسن العوض من الحركـة ولو قام القلب مقامها في الاعراب . وهذا الذي رآه ابو علي حسن جدا .

فلو ان قائلا يقول : قياس قول ابـي عمرو (23) ان تـكـون النون في تثنية المنصوب والمجرور عنده عوضا من التنوين وحده لان الانقلاب قد قـام مقام الحركـة لم ار به بأسا .

واما قول الفراء وابـي اسحاق الزيادي ان الالف هـي اعراب فهو ابعـد الاقوال من الصواب . قال ابو علي : يلزم من قال ان الالف هـي اعراب ان يـكـون الاسم متى حذفت منه الالف دالا من معنى التثنية على ما [كان] (24) يدلّ عليه والالف فيه لانك لم تعرض لصيغته وانما حذفت اعرابه ويدلّ على ان معنى الاسم قبل حذف اعرابه وبعده واحدا ان زيدا و نحوه متى حذفت اعرابه فمعناه الذي كان يدل عليه معربا باق فيه بعد سلب اعرابه ؛ ويفسده ايضا

(21) سـر صنـاعة : ورقـة 268 وجـه ، سطـر 9 .
(22) سـر صنـاعة : ورقـة 268 وجـه ، سطـر 10 .
(23) هو الجـرمـي : انظـر التعليـق رقـم 20 .
(24) سـر صنـاعة : ورقـة 208 ظهـر سطـر 13 .

شيء آخر وهو ان الالف لو كانت اعرابا لوجب ان تقلب الواو في مذروان ياء لانها رابعة قد وقعت طرفا والالف بعدها اعراب كالضمّة من زيد وبكر وجميع ما ذكرناه من الخلاف في الالف واقع في واو الجمع نحو الزيدون والعمرون .

فإن قال قائل : فما بالهم ثنّوْا بالالف وجمعوا بالواو ؟ وهلا عكسوا الامر ؟ فالجواب ان التثنية اكثر من الجمع بالواو ؛ الا ترى ان جميع ما يجوز فيه التثنية من الاسماء فتثنيته صحيحة لان لفظ واحدها موجود فيها وانما زيد عليه حرف التثنية وليس كل ما يجوز جمعه يجمع بالواو ؛ الا ترى ان عامة المؤنث وما لا يعقل لا يجمع بالواو وانما يجمع بغير واو ، إمّا بالالف والتاء وإمّا مكسّرا ، على ان ما يجمع بالواو قد يجوز تكسيره نحو زيود في زيد ، وفي قيس اقياس وقيوس . فالتثنية اذن اصح من الجمع لانها لا تخطىء لفظ الواحد ابدا ، فلما شاعت فيمن يعقل وفيما لا يعقل وفي المذكر والمؤنث ، وكان الجمع الصحيح انما هو لضرب واحد من الاسماء ، كانت التثنية اوسع من الجمع فجعلوا الالف الخفيفة في التثنية الكثيرة ، وجعلوا الواو الثقيلة في الجمع القليل ليقل في كلامهم ما يستثقلون ويكثر ما يستخفون ، فاعرف ذلك .

قال ابو علي : ولما كان الجمع اقوى من التثنية لانه يقع على اعداد مختلفة ، وكان ذلك اعم تصرّفا من التثنية التي تقع لضرب واحد من العدد لا تجاوزه وهو اثنان ، جعلوا الواو التي هي اقوى من الالف في الجمع الذي هو اقوي من التثنية .

واما تثنية المبهم فإن المؤنث فيه يثنى على لغة اقوام من العرب فيقال : تان . والعلّة في ذلك انهم لو قالوا ذان ألبس المؤنث بالمذكر في لغة الذين يقولون ذي ، فاستعملوا لغة الذين يقولون بزوال اللبس . واما المذكر نحو ذا والذي فتثنيتهما ذان واللذان . فإن قال قائل : اخبرنا عن الالف التي في ذان ونحوه

اهـي الالف التـي في ذا ام هـي الف التثنية ؟ فـالجواب انهـّا الف التثنية وقـد سقطت الالف الاولى . والدليل على ذلك انها تنقلب ياء في الجرّ والنصب كألف التثنية ، فعلمنا انها الف التثنية ، وان الف ذا هـي الساقطة . ومن الـكـوفيين من يزعم ان الالف في ذان هـي الالف التـي كانت في الواحد ؛ ويفسده ما ذكرناه من انقلابها ياء في الجر والنصب .

قال ابو الفتح : اعلم ان اسماء الاشارة نحو هذا وهذه والاسماء الموصولـة نحو الذي والتـي لا تصح تثنية شـيء منها من قبل ان التثنية لا تلحق الا النـكرة ، وذلك ان المعرفة لا تصح تثنيتها من قبل ان حدّ المعرفة ما خصّ الواحد من جنسه ولم يشعّ في امـّته ؛ فإذا شورك في اسمه فقد خرج من ان يـكـون علما معروفـا وصار مشتركا شائعا . فإذا كان الامر كـذلك فلا تصحّ التثنية اذن الا في النـكـرات دون المعارف . واذا صحّ ما ذكـرناه فمعلوم انك لم تثن زيدا ونحوه حتى سلبته تعريفه واشعته في امـّته فجعلته من جماعة كـل واحد منهم زيد ، فجرى لذلك مجرى فرس ررجل في ان كـل واحد منهما شائع لا يخص شيئا بعينه . ويدلك على ان الاسم لا يثنى الا بعد ان يخلع عنه ما كان فيه من التعريف جواز دخول اللام عليه بعد التثنية ولا تلحق الا النـكـرة ، وذلك ان المعرفة في قولك الزيدان والعمران ، ولو كان التعريف الذي كانا يدلان عليـه ويفيدانـه مفردين باقيا فيهما لما جاز دخول اللام عليهما بعد التثنية كما لا يجوز دخولها عليهما قبل التثنية في وجوه الاستعمال وغالب الامر . فاذا صح بذلك انه لا يثنى الا ما يجوز تنـكـيره فما لا يجوز تنـكـيره هو ان لا يصح تثنيتـه اجدر ؛ واسماء الاشارة والاسماء الموصولة لا يجوز ان تنـكـر ولا يجوز ان يثنى شـيء منها . الا ترى انها بعد التثنية على حد ما كانت عليه قبل التثنيـة وذلك قولك : هذان الزيدان قائمين فنصبت قائمين بمعنى الفعل الذي دخلـت عليه الاشارة والتثنية كما كـنت تقول في الواحد : هذا زيد قائما ، فتجد الحال واحدة قبل التثنية وبعدها ، وكـذلك قولك : ضربت اللذيـْن قـَامـَا يتعرّفـان

بالصلة كما يتعرّف بها الواحد في قولك : ضربت الذي قام ، والامر في هذه الاشياء بعد التثنية هو الامر فيها قبل التثنية وكذلك ياهنان وياهنون ، وهذه الاسماء لا تنكر ابدا لانها للكنايات وجارية مجرى المضمر فإنما هي اسماء مضمرة موضوعة للتثنية والجمع بمنزلة الذي والذين وليست كذلك سائر الاسماء المثناة نحو زيد وعمرو ، الا ترى ان تعريف زيد وعمرو انما هو بالوضع والعلمية ، فإذا ثنيتهما تنكرا فقلت : رأيت زيدين كريمين ، فإذا اردت تعريفهما فبالاضافة او باللام فقد تعرّفا بعد التثنية من غير وجه تعريفهما قبلها ولحقا بالاجناس وفارقا ما كانا عليه من العلمية والوضع ؛ فإذا صح ذلك فينبغي ان تعلم ان هذان وهاتان واللذان واللتان انما هي اسماء موضوعة للتثنية مخترعة لها وليست بتثنية الواحد على حدّ زيد وزيدان ، الا انها صيغت على صورة ما هو مثنى على الحقيقة لئلا تختلف التثنية ، وذلك انهم يحافظون على التثنية ولا يحافظون على الجمع ؛ الا ترى انك تجد في الاسماء المتمكنة الفاظ جموع من غير الفاظ لآحاد نحو رجل ونفر وامرأة ونسوة وبعير وابل وواحد وجماعة ، ولا تجد في التثنية شيئا من هذا وانما هي من لفظ الواحد لا يختلف ذلك ؛ فهذا يدلك على محافظتهم على التثنية وعنايتهم بها ان تخرج على صورة واحدة ، فلذلك لما صيغت للتثنية اسماء مخترعة غير مثناة على الحقيقة كانت على الفاظ المثناة تثنية حقيقية ، وذلك ذان وتان واللذان واللتان . ويدلك على ان ما كان من الاسماء لا يمكن تنكيره فإن تثنيته غير جائزة وانهم انما يصوغون له في التثنية اسماء مخترعة ليس على حد زيد وزيدان قولهم انت وانتما وهي وهما وضربتك وضربتكما ، فكما لا شك في ان انتما ليس تثنية انت اذ لو كان تثنية لوجب ان تقول في انت : انتان ، وفي انتما هُوان ، وفي هي : هيانِ ، وكذلك لا ينبغي ان يشك في ان هذا ليس تثنية هذا وانما هو اسم صيغَ ليدلّ على التثنية كما صيغ انتما وهما يدلّ كل واحد منهما على التثنية وهو غير مثنى على حدّ زيد وزيدان . الا ترى ان اسماء الاشارة والاسماء الموصولة جارية مجرى الاسماء المضمرة في ان كل واحد منهما لا يجوز تنكيره ولا

خلع تعريفه منه . فإن قلت : فإذا كان ذا والذي ونحوهما كالاسماء المضمرة من حيث أريت فما بالهم صـاغوا التثنيـة ولم يقولـوا في انت انتـان ونحـوه ، فالجواب أنهم صاغوا لِـذا والذي اسمين على صورة الاسماء المثناة من قبل ان اسماء الاشارة والاسماء الموصولة أشبه بالاسماء المتمكـنة من الاسماء المضمرة . قال ابو علي : الا تراهم يصفون اسماء الاشارة ويصفون بها ، فلما قربت الاسماء المشار بها والاسماء الموصولة من الاسماء المتمكـنة صيغت لها اسمـاء التثنية على نحو الاسماء المتمكـنة . ولما كانت الاسماء المضمرة لا توصـف ولا يوصف بها بعدت عن الاسماء المتمكـنة فخالفوا بينها وبين ما قارب المتمكـنة ، فصاغوا لها اسماء التثنية على صورة الاسماء المثناة المتمكـنة .

فأما قولهم : مررت بك انت ومررت به وانت فهما ليسا وصفا ليستفاد بهما البيان والايضاح ، وانما الغرض فيهما التوكـيد والتحقيق ؛ فإذا صح الذي ذكرناه علمت ان النون في هذان واللذان واللتان ليست عوضا من حركـة ولا من تنوين ولا من حرف محذوف كما يظن قوم ولا حُـكْـمُ هذان واللذان في انهما اسمان مثنيان حكـم الزيدان والعمران لما ذكـرنا .

قال : واعلم ان للنون في التثنية والجمع ثلاثة احوال : حالا تـكـون فيهـا عوضا من الحركـة والتنوين جميعا ، وحـالا تـكـون فيهـا عوضـا من الحركـة وحدها ، وحالا تـكـون فيها عوضا من التنوين وحده .

اما كـونها عوضا من الحركـة والتنوين ففـي كـل موضع لا يـكـون الاسم المتمكـن فيه مضافا ولا معرّفا بالالف واللام وذلك نحو رجلان وفرسان وغلامان وجاريتان . الا ترى انك اذا افردت الواحد على هذا الحد وجدت فيه الحـركـة والتنوين جميعا وذلك قولك : رجل وغلام وجارية وفرس ؛ فالنون في رجلان انما هـي عوض ها هنا ممـا يجب في الف رجلان التـي هـي حرف الاعراب بمنزلة لام رجل ، فـكما ان لام رجل ونحوه ليس مضافا ولا معرّفا باللام يلزم ان تتبعه الحركـة والتنوين فـكـذلك كان يجب في حرف التثنية .

واما الموضع الذي تكون نون التثنية فيه عوضا من الحركة وحدها فمع لام المعرفة في نحو قولك : الغلامان والرجلان والزيدان والعمران ، فالنون ثبتت مع لام المعرفة كما ثبتت معها الحركة كقولك : الغلام والرجل ؛ وكذلك النداء نحو يا رجلان ويا غلامان ؛ الا ترى ان الواحد من نحو هذا لا تنوين فيه وانما هو يا غلام ويا رجل ، فالنون فيهما بدل من الحركة وحدها . فإن قلت : فإن واحد الزيدان والعَمْران زيد وعَمْرو وهما كما ترى منونان فهلا زعمت ان النون في الزيدان او العَمْران بدل من الحركة والتنوين جميعا لوجودك اياهما في واحدهما وهو زيد وعمرو ، وكما زعمت انهما في رجلان وفرسان بدل من الحركة والتنوين جميعا لوجودك الحركة والتنوين في واحدهما وهو رجل وفرس ، فالجواب ان قولك : الزيدان كقولك الرجلان لان اللام عرفت زيدين كما عرّفت رجلين والنون في زيدان عوض من الحركة والتنوين جميعا وهي في الزيدان عوض من الحركة وحدها .

واما الموضع الذي تكون فيه نون التثنية عوضا من التنوين وحده فمع الاضافة وذلك قولك : قام غلاما زيد ومررت بصاحبي عمرو ؛ الا تراك حذفتها كما تحذف التنوين للاضافة ، فلو كانت هنا عوضا من الحركة وحدها لثبتت فقلت : قام غلامان زيد كما تقول : هذا غلام زيد فتضم الميم من غلام .

فإن قلت : فما انكرت ان تكون اللام مع النون ثابتة غير محذوفة لانها لم تكن عوضا من التنوين وحده فتحذف ، بل لما كانت عوضا من الحركة والتنوين جميعا ثبتت ، فالجواب انه لو كان الامر كذلك لوجب ان تثبت مع الاضافة لانّها لم تكن عوضا من التنوين وحده وهذا كما تراه محال ؛ فقد صح بما ذكرناه ان النون في التثنية تكون في موضع عوضا من الحركة والتنوين جميعا وفي موضع عوضا من الحركة وحدها وفي موضع عوضا من التنوين وحده ؛ إلا ان اصل وضعها ان تكون عوضا مما منع الاسم منها جميعا ، ولو كانت عوضا من الحركة وحدها لثبتت مع الاضافة ولام المعرفة

فجعلت في موضع عوضا من الحركـة فثبتت كما تثبت الحركـة ، وفي موضع عوضا من التنوين فحذفت كما يحذف التنوين ليعتدل الامران فيها .

واما قولهم هذان وذانك واللذان فإنما نقلت في هذه المواضع لانهم عوّضوا بنقلها من حـرف محذوف . أمـا في هذان فَعـوَض من الـف ذا ، وكـذلك في اللذان عـِوَض من ياء الذي ، وهو في ذانك عـِوَض من لام ذلك ، وقد يحتمل ان يـكـون عـِوَضا من الف ذلك . وقيل : انما شددت في هذه المواضع للفرق بين المبهم وغيره ليدلّوا بالتشديد على انه على غير منهاج المثنى الذي ليس بمبهم، ولانه لا تصح فيه الاضافة ، وغيره من التثنية تصح اضافته فتسقط نونه ، فكـان ما لا يسقط بحال اقوى ممـا يسقط تارة ويثبت اخرى ، فشددت لذلك .

وحركـة نون التثنية كسرة وحركـة نون الجمع الذي على حدّ التثنية فتحـة وكـلتاهما متحركـة بالتقاء الساكـنين ؛ وخالفـوا الحركـة للفـرق بيـن التثنيـة والجمع ، وكانت نون التثنية اولى بالـكسر من نون الجمع لانها قبلها الف وهـي خفيفة ، والـكسرة ثقيلة فاعتدلا ؛ وقبل نون الجمع واو وهـي ثقيلة ففتحوا النون ليعتـدل الامـــر .

فإن قلت : فقد اقول مررت بالزيدين وضربت العمرينِ فتـكسـر النـــون وقبلها ياء فهلا هربت الى الفتحة لمـكـان الياء كما هربت الى الفتحة لمـكـان الياء في نحو أين وكـيف ، فالجواب ان الياء في نحو الزيدين والعمرين ليست بلازمة كـلزومها في اين وكـيف ، الا تراك تقول في الرفع الذي هو الاصـل رجلان ، وانما النصب والجر فرعان عليه فلا يلزم الياء النون ؛ فلما كانت الياء غير لازمة في التثنية وكان الرفع وهو الاصل لا تجد فيه ياء أجري الباب على حكـم الالف التـي في الاصل ، وانما الياء بدل منها ؛ ولو انهم فتحوا النون في الجر والنصب وكسروها في الرفع لاختلف حال نون التثنية . على ان من العرب من يفتحها في حال الجرّ والنصب تشبيها بأين وكيف وتجري الياء وان كانت

غير لازمة مجرى الياء اللازمة فتقول : مررت بالزيدينَ وضربت الزيدينْ َ وانشدوا في ذلك لبعضهم :

على اجردين استقلّت عليهما فما هي الا لمحة فمغيب (25)

وفتحها بعضهم مع الالف فقال :

اعرف منه الانفَ والعينانَا ومنخرين اشبها ظبيانَا(26)

وقد حكي ان منهم من ضمّ النون في الزيدان فقال : الزيدانُ والعمرانُ ، وهذا من الشذوذ بحيث لا يقاس عليه .

واما النون في يقومان وتقومان ويقومون وتقومون فإنها تقوم مقام الضمير في يقوم ويقعد ، وليست من اصول الاعراب ؛ الا ترى ان جنس الاعراب هو الحركة ولذا جعل جنس الياء سكونا اذا كانا ضدين ؟ وكانت الحركة ضدّ السكون ويدلك على رفع المضارع الذي رفعه النون انه ليس على طريق قياس اصول الاعراب حذفك النون في موضع النصب في قولك : لن يقوما ؛ الا ترى ان النصب مدخل على الجزم كما ادخل النصب في الاسماء المثناة والمجموعة على سبيل التثنية على الجر في قولك : ضربت الزيدين والعمرين ؛ ولست تجد في الاسماء الآحاد المتمكنة الاعراب ما تحمل فيه احد الاعرابين على صاحبه فان احتججت بأحمد فإن ما لا ينصرف غير متمكن من الاعراب [ويزيد] (27) عندك في بيان ضعف اعراب الفعل المضارع انك اذا ثنيت الضمير فيه او جمعته او انثته لم يخل حرف اعرابه من ان يكون الميم او الالف او النون ؛ فمحال ان يكون الميم لان الالف بعدها قد صيغت معها

(25) من البحر الطويل .
(26) من البحر الرجز .
(27) سر صناعة : ورقة 207 وجه – سطر 10 .

فحصلت الميم لذلك حشوا لا طرَفا ، ومحال ان يكون حرف الاعراب وسطا ، ولا يجوز الا ان يكون آخرا طرَفا . ولا يجوز ان يكون الالف في يقومان حرف اعراب ، قال سيبويه : لانك لم ترد ان تثنّي يفعل فتضم اليه يفعل آخر ، اي لم ترد ان تضم هذا المثال الى مثال آخر وانما اردت ان تعلم ان الفاعل اثنان فجئت بالالف التي هي علم الضمير والتثنية . ولو اردت ان تضم الفعل الى فعل آخر من لفظه لكانت الالف في يقومان حرف الاعراب كما كانت الالف في الزيدان حرف الاعراب ، لانك اردت ان تضم الى زيد زيد آخر ، فقد بطل اذن ان يكون الالف حرف اعراب ؛ ومحال ايضا ان تكون النون حرف اعراب في يقومان لامرين : احدهما انها متحركة محذوفة في الجزم ، والآخر انه لو كانت النون حرف اعراب لوجب ان تجري عليها حركات الاعراب فتقول : هما يقومانُ ، واريد ان يقومانَ ؛ فتضمها في الرفع وتفتحها في النصب ، فإن صرت الى الجزم وجب تسكينها . واذا سكنت والالف قبلها ساكنة كسرت لالتقاء الساكنين فقلت : لم يقومانِ . [فلما](28) كان القضاء بكون نون يقومان حرف اعراب يعود الى هذا الذي ذكرته ورايت العرب قد اجتنبته ، علمت ان النون ليست عندهم بحرف اعراب . واذا لم يجز ان تكون الميم حرف اعراب ولا الالف ولا النون علمت انه لا حرف اعراب في الكلمة ، واذا لم يكن لها حرف اعراب دلّك ذلك على ان الاعراب فيها ليس له تمكن الاعراب الاصلي الذي هو الحركة ؛ فإذا كان ذلك علمت ان النون في يقومان تقوم مقام الضمّة في يقوم ، وانها ليس لها تمكن الحركة وانما هي دالّة عليها ونائبة عنها .

(28) سر صناعة : ورقة 207 ظهر سطر 2 .

قضيــة الفصحى واللهجـات فى نظر بعــض الادبــاء المعــاصرين

بقلـم : عبد المجيد التــركى

قضية هذه الثنائية اللغوية هي قضية كلّ لغة حضارية تعتمد — من جهة — على الكتابة لتثبيت دعائم فقهها ، وعلى النطق — من جهة أخرى — لتعايش التطور وحاجيات التعبير عنـه .

وبقدر ما تنشط حركـة التطور ، يحتدّ الوعـي بفارق ما بين طريقتــي التعبير ، الى حدّ الازمـة .

وقد عرضت هذه القضية للمجدّدين من الشعراء في أواخر القرن الاول للهجرة وفي القرن الثانـي . ولم يتأت لهم أن يبحثوها من حيث معطياتها اللغوية البحتة وإنما جاء بحثهم مرتبطا بقضية الروعة الشعرية . فهؤلاء الشعراء كانوا — لقـرب عهدهم بالعصر الجاهلي — عاجزين عن التخلص من تـأثير نزعته . وبقطع النظر عمّا كـان لاولي الامر المحافظين من نفوذ على المُلتحـقِين بهم من الشعـراء المجدّدين ، فان هؤلاء كانوا يشعرون شعورا صادقا أن اللغة الفصيحة هـي ملك للقدماء . فكـانوا يهذّبون لغتهم ويجرّدونها ممـا قد يشوبها من مدد الحضـارة الجديد قبل أن يعنوا باستيحاء معانيهم من مصدر هذه الحضارة . فيتتلمذون

لذلك على الاعرابي الوارث للسنة اللغوية الجاهلية ، فيلقونه في الاسواق بظاهر المدن أو يرحلون اليه للأخذ عنه في قبيلته .

وأما بالنسبة للنثر فالظاهر أن هذه القضية لم تبحث لذاتها وإنما وضعت في إطار لم يَخل من عناصر خارجة عن الميدان اللغوي البحت . فكما أن شعر القدماء اتّخِذ على أنه أشبه شيء بقانون يُتبع ، فكذلك أصبح الشأن بالنسبة للقرآن . فقد رأى فيه الناثرون مثالا يجدر بهم احتذاؤه وإن كانوا في الحقيقة يؤمنون بعجزهم عن الاتيان بمثله « وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

وسرعان ما حاول علماء اللغة في القرن الثاني للهجرة أن يقفوا دون تطوّر لغة القرآن . فكانوا يرون ضرورة أن تحتفظ هذه اللغة بصفائها الذي أصبحت تهدده عجمة من أسلم حديثا من الامم الاجنبية عن العنصر العربي .

وكانوا حريصين على أن تبقى هذه اللغة مفهومة لدى جمهور المسلمين ؛ لذلك وضعوا شبه معاجم للمفردات اللغوية وأثبتوا أصول النحو والصرف . وهنا أيضا اعتُمِد على شعر القدماء وعلى البدو المعاصرين لجمع المواد الصالحة لهذا العمل (1) .

ولما كانت النهضة الثانية ، احتد الوعي وثارت الازمة من جديد وما زال العرب يعانون شدتها من أواخر القرن الثامن عشر للمسيح الى يومنا هذا ، ولعلها لا تهدأ ما دامت لغة الكتابة محافظة على الكيان اللغوي ولغة التخاطب والتعامل حريصة على مسايرة التطور .

---

(1) R. BLACHERE. « Le Classicisme dans la littérature arabe » (Classicisme et Déclin culturel dans l'histoire de l'Islam - Symposium de Bordeaux Paris 1957. p. 280).

ومن الطبيعي أن تثير الازمة مشاعر مختلفة في النفوس وأن يُنظر الى الحلول من زوايا متباينة تباين حاجيات الباحثين وتكوينهم . وقد لَفَتَ انتباهَنا — من بين ما كُتِبَ وما يُكْتَب — جدل ثار في الصحافة المصرية حول الثنائية اللغوية ، بعيد الحرب العالمية الاولى . والمهم فيه لا الحلول التي قد يتمخض عنها هذا الجدل ، بل الشكل الذي جرى عليه . فهو يمثل حوارا منسقا متماسك الاجزاء مثيرا لشتى النظريات والقيم إذ أنّ كلا من اطرافه أي مصطفى صادق الرافعي المتوفي سنة 1937 وعباس محمود العقاد المتوفي سنة 1964 وطه حسين ينتمي الى مدرسة لغوية خاصة ألهمته سلوكا خاصا في هذا الجدل .

فسبيل الرافعي الى المشاركة في هذا الحوار يُبَيِّنها الكاتب بنفسه ويحدد معالمها ويُنِم عن الروح الحافزة لها عندما يؤكّد : « ... أن الجديد والقديم لم يكونا قديما الا في الشعر فقط ، أما اليوم ففي اللغة والدين بآثارهما ، وهذا هو العجيب..! » (2) وذلك بعد أن يستعرض حركات التجديد في الشعر العربي من أبي نواس الى ابن شرف القيرواني . فمن الجليّ أن مؤلف « تحت راية القرآن » يحرص على احياء سنة من سبقه من اللغويين والنحاة القدماء اذ يجعل اللغة القرآنية المحور لهذا الجدل : « ثم إن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة . ولا يدنو الفهم منها الا بالمران والمزاولة ودرس الاساليب الفصحى والاحتذاء عليها وإحكام اللغة والبصر بدقائقها وفنون بلاغتها والحرص على سلامة الذوق فيها... » (3) وهكذا « ... فلا تزال اللغة كلّها مذهبا قديما... » (3) . ومن البديهي أن تؤدّي هذه النظرة الرافعي الى انكار مبدأ التطور اللغوي فلا ثنائية لغوية عادية على شاكلة التي عاشها العرب من قبل أو التي تعيشها المجموعات اللغوية اليوم وإنما هناك اللغة العربية كما دُوِّنت في كتب السلف

(2) « تحت راية القرآن » (القاهرة 1953) ص 205 .
(3) نفس المصدر ص 16 .

ولغـةً أخـرى هي « ... الى حـال من الجفـوة جعلتهـا كالواغلـة علينا والغريبـة عنـا... » (4).

وعندما ينكـر الرافعـي سنة التطور اللغوي يقع في دائرة مغلقة لا يتخلص منها الا اذا استنجد بعوامل اجنبية عن الاطار اللغوي الصرف . فاذا لجأ الى العامل السياسـي لاحظ ما يبذله المستعمـرون من مجهود لافناء الامة العـربية بإفناء لغتها الاصيلة . ويجره هذا إلى الحديث عن تـأثير اللغات الاجنبية ليقرّر أن المعرّبين يلفقون الجملة العربية على منوال « الجملة الانجيلية » ، ولذلك ينشأ المتـأدبون في جوّ غريب عن « الجملة القرآنية » وهـكـذا فقد العربـي الفطـرة اللغوية العربية وأصبـح النطق السليم القويم لا يستقيم على لسانه سليقة (4) . فما بقـي له الا أن يتلقى العربية « علمـا » يأخـذه عن أصحابـه ! وهـكـذا ينظـر الرافعـي الى اللغة نظرة توقيفية . فإن كان عصر جدير بالاعتبار في تاريـخ العربية فلا يكون غير عصر الفطرة أي نشأة العربية . أما ما عداه فما هو الا سلسلة من حلقـات الانحطاط والانحلال .

ولربما عاش الرافعـي ضحية صممه فأتى تفـكيـره اللغوي متـأثرا بهذه العلة التـي أصابته وهو حدث . فالظاهر أنه كان يجهل جهلا تاما اللهجات العربية الحديثة فإن كان هذا فانه ينتج عنه عجزه عن تصور تطور اللغات وتقديره (5) . وقد نشأ على اتصال دائب بـكـتب القدماء فتـكـونت فيه حاسية كـبرى تلمس دقائق العربية وتنخدش لاقل تجديد مستمد من اللغة العامية أو من مـرتجـلات المدرسة الجديدة للتعبير عن التطورات الحاصلة (6) . وعلى مرّ الايام ، وخاصّـة بعدما قـرأ فصلا نشرته جريدة تصدر بطنجة ، استقر بذهنه شيئا فشيئا أن اللغـة العربية الفصيحة غريبة عن سكـان هذا العصر (7) .

(4) نفـس المصـــدر ص 26 .
(5) محمد سعيـد العـريـان : « حيـاة الرافعـي » (الطبعة الثالثة – القاهرة 1955) ص 31 – 32.
(6) نفـس المصـــدر ص 75 .
(7) » تحـــت..... ص 27 – 28 .

ويقاوم العقاد النظرة التوقيفية هذه ويأخذ بالنظرية التطورية المعاكسة . وكأنه يبدو متأثرا بالعالم اللغوي أنطوان ماياي (8) . عندما يقول : « واذا كانت السنة الغالبة في كل شيء هي أن تنتقل الاشياء من التوحد الى التعدد ، ومن التماثل الى التنوع . فلماذا تشذ اللغات عنها فتنشأ متوحدة ثم تتفرّق ثم تعود الى توحّدها القديم » (9) . وظاهر أن هذه النظرية تنطبق على اللغات الرومانية (Romanes) المتفرّعة عن اللاتينية اكثر مما تنطبق على اللهجات العربية المنحرفة عن العربية الكلاسيكية . ومن الجدير بالملاحظة أن أ . ماياي يحذر من تطبيق هذه النظرية على اللغات السامية فيذكر ثلاثة شروط لا بد من توفّرها في اللغة الام حتى تنتقل من التوحد الى التعدّد . فيجب أولا أن تصبح المواصلات بين الناطقين باللغة المشتركة صعبة وبالتالي نادرة وعديمة الفائدة . ثم يتحتم ثانيا أن يفقد الناطقون بهذه اللغة الشعور بأنهم ينتمون الى حضارة واحدة . وهنا يلاحظ العالم اللغوي أن العربية ثبتت الى اليوم كوحدة لغوية أمام الانقسامات السياسية المتنوّعة لان الحضارة الاسلامية هي على شاكلة واحدة حيثما ذهبت . لهذا فاللغات العربية الحديثة وان اختلفت فيما بينها إن هي الاّ لهجات تنتمي الى لغة واحدة . والشرط الثالث والاخير لغوي بحت . فهناك بعض اجهزة لغوية كالتي نجدها في اللغات السامية متماسكة يشد بعضها بعضا وعلى جانب عظيم من المتانة والصلابة حتى إنك لا تقدر أن تغيّر منها شيئا دون أن تهدم البناء بأكمله (10) .

---

(8) انطوان ماياي Antoine Meillet هو عالم فرنسي . توفي سنة 1936 ويعتبر من زعماء المدرسة اللغوية الفرنسية الحديثة (انظر خاصة كتابه « Linguistique historique et Linguistique générale »
ونحن قد أحلنا على طبعه 1948 بباريس .

(9) العقاد : « ساعات بين الكتب » . الجزء الأول (الطبعة الثانية . القاهرة 1950) ص 97 .

(10) أ . ماياي . المصدر المذكور . فصل : « Le développement des langues » من ص 70 الى ص 83

وعندما يَقسِرُ العقاد نظرية التطور على ما يريد أن يثبته تكون النتيجة أن يهمل اللهجات الحديثة . فلا حاجة لاستعمالها لغرض فني في القصة أو المسرحية ! ويصل الرافعي الى هذه النتيجة نفسها بعد أن يكون قد اتبع طريقا مخالفة لطريق العقاد فيطالب بألا نعير اهتماما اللهجات محتجا لذلك ببراهين هي كبراهين العقاد شبها .

أما طه حسين فقد شاهد ما وقع فيه الكاتبان من اسراف . فنصح نفسه باتباع المثل اليوناني القائل : « لا تسرف » وهكذا لاحظ أن اللهجات الحديثة ليست غريبة كل الغرابة عن اللغة العربية الام . فبرنامج من الاصلاحات يمهد السبيل للتقريب بينها وبين الاصل بل لادماجها جميعا فيها . « وهي [اللغة العامية] خليقة أن تفنى في اللغة العربية الفصحى اذا نحن منحناها ما يجب لها من العناية فارتفعنا بالشعب من طريق التعليم والتثقيف وهبطنا بها هي من طريق التيسير والاصلاح الى حيث يلتقيان في غير مشقة ولا جهد ولا فساد » (11) .

ويلتقي طه حسين وأنطوان ماياي عندما يثبتان أن الفرق في العربية بين اللهجات الحديثة واللغة الام لا يمس البناء اللغوي . وفي نظر طه حسين يكون الاصلاح المُهَيِّيء لتلاقي اللهجات واللغة الام لغويا خاصة. أما عن النحو والصرف فبرنامج لتيسير الفصحى يسهل الاتصال بل الاندماج... ويطمئن جماعة المحافظين وخاصة الرافعي عندما يؤكّد « نستطيع أن نفهم القرآن ونذوقه كما يفهمه الاستاذ [الرافعي] وأصحابه ويذوقونه . ذلك أن مذهبنا الجديد لا يقتل اللغة ولا يصرف الناس عنها ولا يغير من أصولها وقواعدها... » (12) ذلك أن الرافعي — كما يفهم بديهة من نظرته — يعتقد اعتقادا راسخا أن مِثْلَ هذه المحاولة يقتل اللغة الفصحى لانه ينكر الوجود

(11) « مستقبل الثقافة في مصر » في جزءين (القاهرة 1938) . الجزء الثاني ص 315 .

(12) نفس المصدر بنفس الصفحة .

اللغوي للّهجات ويرى أن كـل اصلاح يتخذ بالنظر الى هذه اللهجات لا يؤدي الاّ الى خلق لغة هـي غير لغة القـرآن... ويُعـرض العقـاد عن هـذه الفـكـرة الاصلاحيـة أي عن هاتين الحركـتين المتناقضتين المتكـاملتين حركـة النـزول بالفصحى والصعود بالعامية ، ولا يؤمن باتصالهما فضلا عن اندماجهما بعضهما ببعض لانه لا يـكـون الا مخالفا لطبيعة الاشيـاء . فيؤكـد في وضوح وقـوة : «... وهل وجدت قط قبل الآن أمة ذات حضارة وعمران كانت تنطق بلهجة واحدة في الـكـتابة والـكـلام ؟ » (13) وهـكـذا يؤمن بمبدأ الثنائية اللغوية ويدعو اليه عندما يلح في التمييز بين لغة الـكـتابة ولغة التخاطب .

ومن البديهـي أن يتـأثر كـل من المفـكـرين الثلاثة في عرضه لمشـكـل الثنائية اللغوية بنظرته الخاصة الى اللغة . فإن أكـّد الرافعـي « أن هذه اللغة بنيت على أصل سحري يجعل شبابها خالدا عليها فلا تهرم ولا تموت لانها أعدّت من الازل فلـكـا دائرا للنيّرين الارضيين العظيمين : كـتاب الله وسنة رسول الله (صلعم)... » (14) أجاب طه حسين : « ... ولـكـنا نعلم أن اللغة ليست من وحـــي السمـاء..! » (15) .

ثم أي ضمان للعربية اذا ركـزت حياتها ومصيرها على هذا الاساس ونحن نعرف « بين المسلمين أنفسهم أممـا لا تتـكـلم العربية ولا تفهمها ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم ولغتها الدينية هـي اللغة العربية . ومن المحقق أنها ليست أقلّ منا ايمانا بالاسلام واكـبارا له وذيادا عنه وحرصا عليه..؟ » (16) .

وإن نصح الرافعـي بالاقبال على عربية « العصر الذهبـي » والاقتصار عليها « اذ لا فصاحة ولا لغة الاّ بالحـرص على القـرآن والحـديـث وكـتب السلـف

(13) « ساعـــات..... الجـــزء الأول ص 97 .
(14) تحـــت.... ص 16 .
(15) « حديث الاربعـاء » . الجـزء الثالث (القاهرة ص 1952) ص 33 .
(16) « مستقبـــل.... » الجـــزء الثـانـي . ص 306 .

وآدابهم » (17) . أثبت طه حسين أننا « لا نتعلم اللغة العربية ولا نعلمها لانها لغة الدين فحسب وإنما نتعلمها ونعلمها لانها أوسع من ذلك وأشمل وأعمّ » (18) . ونحن ايضا « لا نتعلم اللغة العربية ونعلمها لانها لغة القدماء من العرب والمستعربين » فقط !

ويُطعّم الرافعي نظرته الدينية اللغوية هذه بنزعة سياسية وطنية اذ يلاحظ : « أن اللغة مظهر من مظاهر التاريخ والتاريخ صفة الامة والامة تكاد تكون صفة لغتها » (19) . ويحاول طه حسين هنا أيضا أن يجرّد الميدان اللغوي من العناصر الاجنبية عنه ويؤكّد أن شخصية الامة أقوى من أن يتأخذ منها تطور اللغة .

وجلي أن الرافعي – في موقفه هذا – يستمد عناصر تفكيره من الحركة السلفية الدينية السياسية التي ازدهرت في الشرق الادنى وخاصة في مصر في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن على يدي جمال الدين الافغاني المتوفى سنة 1897 ثم محمد عبده المتوفى سنة 1905 ، ثم رشيد رضا المتوفى سنة 1935 ودراسة هذا الجهاز من التفكير اللغوي قد لا يؤدّي الى كبيري فائدة اذا اعتبرنا في حدّ ذاته ، ولكنا اذا وضعناه في الجوّ الفكري والروحي والمادّي الذي أحاط به وغذّاه قد لا يؤدي الىالروحي والمادي الذي أحاط به نكون قد قمنا بعمل مفيد الا أنه يخرج عن نطاق هذا البحث اللغوي

---

(17) « تحت.... » ص 20 .

(18) « مستقبل.. » . الجزء الثاني ص 305 .

(19) « تحت.... » ص 46 .

الصرف ونفضل أن نحيل على بعض ما كُتب من دراسات عن الحركة السلفية (20) .

أما طه حسين فبانصرافه عن العناصر الاجنبية عن الميدان اللغوي يحاول أن يبني جهازا لغويا قائما بذاته على غرار ما كان يفعله علماء اللغة في اوربا في ذلك العهد وخاصة فرديناند دي سوسير (21) .

فاللغة عند طه حسين « ظاهرة من ظواهر الاجتماع الانساني لم يضعها فرد بعينه ولا جماعة بعينها ، وانما اشتركت في وضعها الامة التي تتكلمها دون أن تعلم متى وضعتها ودون أن تستطيع أن تعين لكل فرد من أفرادها أو جماعة من جماعاتها حظا من ألفاظها وأساليبها » (22) أو بعبارة أخرى ننقلها عن فرد فردينند دي سوسير

---

(20) H. Laoust : « Le Réformisme orthodoxe des « Salafiya » et les caractères généraux de son orientation actuelle ». (Revue des Etudes Islamiques; année 1932; p.p. 175-224).

H. Laoust : « Essai sur les doctrines sociales et politiques de Taqi ad-Din Ahmad B. Taimiya. Canoniste hanbalite 661/1262 - 728/1328 ». Chapitre 3. Livre 3. (1939).

Ch. Adams : « Islam and Modernism in Egypt. » (Londres 1933).

تعريب عباس محمود : « الاسلام والتجديد في مصر » (القاهرة 1935) .

شكيب أرسلان : « السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة » (القاهرة 1937) .

H.A.R. Gibb : « Les Tendances Modernes de l'Islam » (traduction française de B. Vernier. Paris 1949).

M. Colombe : « L'évolution de l'Egypte 1924-1950 » (Paris 1951)

J. Jomier O.P : « Le Commentaire Coranique du Manâr » (Paris 1954).

(21) Ferdinand De Saussure : « Cours de linguistique générale » reconstitué et publié par ses élèves genevois Bally et Sechehaye en 1916 à Lausanne et Paris.

إن المقالات التي نشير اليها كتبها طه حسين سنة 1923 بالقاهرة . وكان قد التحق قبل ذلك بباريس للدراسة في ديسمبر سنة 1915 وأقام بها حتى اكتوبر 1919 (انظر « طه حسين في ميلاده السبعين » (القاهرة 1962) ص ص 12 – 13 – 14) فمن المحتمل أن يكون قد سمع بأفكار دي سوسير اللغوية إن لم يكن قد تأثر بها كما تحملنا على ذلك مقارنة النصوص المنشورة في هذا المقال لكل منهما .

(22) « حديث .... » . الجزء الثالث . ص 33 .

«فاللغة [لغة الكتابة] هي القسم الاجتماعي من اللسان [أي لغة الكتابة والنطق معا] الخارج عن نطاق الفرد الذي لا يقدر بمفرده على خلقه ولا تبديله . ولا يوجد الا بفضل نوع من العقد يجريه أعضاء الجماعة في ما بينهم » (23). فنحن هنا قد بعدنا عن عربية المكتبات كما يتصورها الرافعي ونزلنا ميدان الواقع والحياة لنعتبر اللغة « الاداة الطبيعية التي نصطنعها في كل يوم بل في كل لحظة ليفهم بعضنا بعضا وليعاون بعضنا بعضا على تحقيق حاجاتنا العاجلة والآجلة وعلى تحقيق مهمتنا الفردية والاجتماعية » (24) . وليس هناك الا الحياة المادية فحسب بل هناك حياة أخصب وأعمق هي حياة التفكير والشعور «ونحن لا نفكر في الهواء ولا نستطيع أن نعرض الاشياء على أنفسنا الا مصورة في هذه الالفاظ التي نقدرها ونديرها في رؤوسنا » (25) . « ونحن نصطنع هذه الاداة لنفهم أنفسنا أيضا... » (25)

فاللغة تشريع اجتماعي تملكه الجماعة التي تنطق بها .

وإن هذه الجماعة اذا اعتبرناها ككلّيّة (Entité) لا تملك أن تبدل شيئا من قانون اللغة . فقد أخذتها عن الاجيال الماضية وعليها أن تسلمها كاملة غير منقوصة الى الاجيال المقبلة « فإنما نتعلمها ونعلمها لانها لغتهم [القدماء] ولانها لغتنا ولانها لغة الاجيال المقبلة أيضا ولاننا نريد أن تظل لغة هذه الاجيال » (26) .—

(23) « Cours... » (4 édition. Paris 1949). P. 31 : « Elle [la langue] est la partie sociale du langage, extérieure à l'individu, qui à lui seul, ne peut ni la créer, ni la modifier; elle n'existe qu'en vertu d'une sorte de contrat passé entre les membres de la Communauté ».

(24) « مستقبل.... » الجزء الثاني ص 304 .

(25) « مستقبل.... » الجزء الثاني ص 304 .

(26) « مستقبل.... » الجزء الثاني ص 305 .

ولكن ما الجماعة ؟ إن هو الا تعبير مجرّد او اذا ما حافظت على وحدة اللغة وكليتها فلانها ترى فيها صفة لشخصيتها الوطنية التي يجب عليها أن تحفظها من كل نقص وشائبة .

غير أن الافراد الذين يُكَوِّنُون الجماعة ويحيون فيها ويتطورون داخلها مضطرون الى التعبير والبيان عن أفكارهم وشعورهم وحاجياتهم المادية في لغة موروثة عن الماضي البعيد أو القريب بحيث لا يمكن لها في كل الاحوال أن تستجيب لحاجاتهم وترضي مطامحهم وآمالهم . ومن هنا تنشأ هذه الشقة التي نشاهدها بين الناطقين باللغة العربية المعاصرة وبين اللغة الكلاسيكية القديمة . وبقدر ما تقوى الحاجيات ، بقدر ما تطور لغة التخاطب والتعامل بين الناس وتبتعد عن اللغة المدونة في كتب الاجداد الاولين منهم والمتأخرين . اذن فعامل الحياة والقوة والتطور في العربية غير متوفر الا في لغة التخاطب والنطق . وهي — حسب عبارة العالم السويسري — التي تعمل على تطوير لغة الكتابة » (27)

وهكذا يعتبر كل فرد ، على حدة ، صاحب الحق في تطوير اللغة واليه يرجع القيام بأي سعي يراه صالحا . فلا يمكنه أن ينطق بشيء دون أن يخلق ويبْتكر . فهو الناطق الخالق أبدا ! ثم يأتي بعد ذلك دور الجماعة التي ينتمي اليها الفرد وهي الحكم الوحيد فيما اذا كان لها أن تتبع — بعد أمد ما — مشروع أي كان وابتكاره . وهنا يلعب الفرد دوره بفضل شخصيته الجماعية . المحافظة على كيان الجماعة وشخصيتها . وبما أن الجماعة ، أو الشخصية الجماعية للفرد محافظة ، فهي التي تقوم مقام الثقل المعادل ازاء الارتجالات الفردية أو الارتجالات الشخصية الفردية الانانية الحريصة على خاصيتها وطرافتها المُشَجِّعة على ماهيتها للخلق المطرد الذي ربما ينجر عنه تطور سريع ومفاجيء للغة . اذن فالامر على هذا القياس . فما دام الافراد يفكرون تفكيرا مختلفا ويشعرون شعورا متباينا

(27) « Cours... » p. 38 « C'est la parole qui fait évoluer la langue ».

فمن المتحتم على اللغة أن تتطور نتيجة لا لكل ابتكاراتهم ولكن للتي تتوفر فيها القوة الكافية للحياة والبقاء وذلك في نظر الجماعة طبعا .

فمن الصعب ، والحال هذه ، أن يؤدي التجديد الذي يدعو اليه طه حسين ، الى فصل اللغة الحديثة عن قديمها . بل نفهم كيف يؤكد المفكر المجدد لجماعة المحافظين ليطمئنهم : « فاللغة العربية التي أريد أن تعلم في المدارس على احسن وجه واكمله هي اللغة الفصحى لا غيرها . لغة القرآن الكريم والحديث الشريف » (28) .

ذلك انه وإن لم يؤمن بنظرة الرافعي التوقيفية المجمّدة للغة كما دونت في « العصر الذهبي » فهو أيضا لا يؤمن بمبدأ الانفصال والانقطاع الذي يقرره مايای في بحثه عن اللغات الرومانية (Romanes) ويثبته العقاد في بحثه عن العربية . فقد أدرك أن العربية لم تتبع هذا التطور تطورَ الفرنسية مثلا وانفصالها عن اللاتينية ولن يقدر لها أن تتبعه في يوم من الايام . وقابل مبدأ الانفصال هذا بمبدأ الاتصال .

ويفسره بقوله : « فكما أن الحياة تطور ، فالحياة اتصال ، وليس بين أجزاء الحياة فراغ وانما هي انتقال من شيء الى شيء . ففيها حركة وفيها ثبات ، ولولا ذلك لما كانت للامم شخصيتها الاجتماعية ولما كانت للافراد شخصيتهم الفردية . اذن ففي كل شيء من هذه الاشياء الاجتماعية عنصران مُختلفان لا قوام لاحدهما بدون الآخر : أحدهما عنصر الاستقرار والآخر عنصر التطور وقوام الحياة الصالحة لامة من الامم او مظهر من مظاهرها الاجتماعي انما هو التوازن الصحيح بين هذين العنصرين . فإذا تغلب عنصر الاستقرار فالامة منحطة واذا تغلب عنصر التطور فالامة ثائرة والثورة عرض والانحطاط عرض

(28) « مستقبل.... » . الجزء الثاني ص 314 .

كلاهما يزول ليقوم مقامه النظام المستقر على اعتدال هذين العنصرين » (29) ويختم طه حسين فكرته : « في اللغة اذا قديم لا بد منه اذا أردنا أن تبقى اللغة وفيها جديد لا بد منه اذا أردنا أن تحيا . وأنصار الجديد في اللغة والحياة لا يريدون الا" هذا النوع من الحياة.. » (29) أو بعبارة فرديناند دي سوسير فاللسان [أي لغة النطق ولغة الكتابة] هو في كل ساعة جهاز قائم وتطور معا . وهو في كل حين نظام حالي وتراث الماضي » (30) .

أما عنصر الاستقرار فهو طبعا في هيكل اللغة أي في جهاز الصرف والتصريف ونحو المفردات والجمل والبيان والبلاغة : « فليس من الجديد في شيء أن تفسد اشتقاق اللغة وتصريفها وأن تعدي الافعال بالحروف التي لا تلائمها وأن تقلب نظام المجاز وضروب التشبيه . كل ذلك ليس تجديدا وليس اصلاحا للغة ولا ترقية لها وانما هو مسخ وتشويه » (31) ، يؤدي حتما الى انقطاع لغة النطق والتعامل عن لغة الكتابة المدونة . وما يوصي به طه حسين من اصلاح في هذا الميدان هو تيسير النحو . فما دامت اللغة شبه عقد يجريه كل افراد المجموعة اللغوية في ما بينهم لا يُسْتَثْنَى منهم أحد فمن حق عامة الناس على علماء النحو أن يجعلوا قواعده في متناولهم . « فهذا النحو من الاصلاح اذا تم أغنى كثيرا وأراح من عناء ثقيل . فهو يغني عامة الناس عن تعمق النحو واضاعة الوقت في درسه . وما حاجة العامة الى النحو [كما أثبت في كتب النحاة الاقدمين منهم خاصة] اذا ضمنت لهم الاصابة وعصموا من الخطأ حين يقرأون ويكتبون ؟ » (32) . ويوصي ، أيضا بنوع آخر من الاصلاح لا يؤثر شيئا

(29) « حديث الاربعاء.... » الجزء الثالث ص 35 .

(30) « Cours » p. 24 « à chaque instant il [le langage] implique à la fois un système établi et une évolution; à chaque moment, il est une institution actuelle et un produit du passé ».

(31) « حديث.... » الجزء الثالث . ص 35 .

(32) « مستقبل.... » الجزء الثاني . ص 327 . وأيضا في «خصام ونقد » (بيروت 1955) ص . ص 190 — 191 — 192 .

في عامل الاستقرار هذا فيجدد اقتراحا كان تقدم به من قبله — كما يلاحظ ذلك نفسه — بهي الدين بركات ويتمثل في تحويل الكتابة المقطعية Ecriture syllabique الى كتابة نطقية Ecriture phonétique وهكذا يقرأ الناس ليفهموا ولا يفهمون ليقرؤوا . « أريد أن تكون الكتابة تصويرا صادقا دقيقا للنطق لا أن تصور بعضه وتلغي بعضه ، لا أن تصور نصف اللفظ وتلغي نصفه الآخر ؛ أريد أن تصور الكتابة ما نسميه الحروف وما نسميه الحركات تصويرا لا اهمال فيه من جهة وتصويرا قوامه اليسر والسهولة والسرعة والاقتصاد في الوقت والجهد والمال من جهة أخرى... » (33) .

وعنصر التطور لا يكون — والحال هذه — الا في ميدان المفردات والعبارات المستحدثة . « فليس من القديم الصالح في شيء أن تكثر الاسماء المستحدثة التي تصطنعها في كل يوم بل في كل ساعة ، فلا تستطيع أن تنطق باسمها الاّ اذا وجدت لها اسما عربيا ورد في المعاجم اللغوية القديمة... » (34) كما أنه « ليس من القديم الصالح في شيء أن تشعر الشعور الذي لم يكن يشعره غيرك من القدماء ، فلا تستطيع أن تصفه الاّ على نحو ما كان يصفه القدماء » (34) . اذن فللفرد حق الخلق لما يحتاج اليه من المفردات والعبارات . كما أن له الحق في الاخذ عن اللغات الاجنبية الحديثة ولكنه هنا ينصح بالحذر، فلكل لغة عبقريتها كما يقال : « كما لا نكره أن يستعير الكتاب في قصد وحسن اختيار من اللغات الحديثة الاوربية معاني وأساليب وألفاظا دون أن يفسد ذلك جمال اللغة العربية وروعتها... » (35) .

وبالرغم من هذا الاعتدال والاقتصاد في الدعوة الى الاصلاح اللغوي ، ينبري الرافعي بكل عنف وشدة لتحطيم كل محاولة تجديدية . ولعله لم يدرك

(33) « مستقبل.... » الجزء الثاني . ص 326 — 27 . وأيضا في « خصام » ص 191 و 192

(34) « حديث.... » الجزء الثالث . ص 35 وكذلك في « خصام... » ص ص 182 و 188

(35) « حديث.... » الجزء الثالث . ص 13 .

الثنائية الخصبة التي ارتكز عليها طه حسين اذ . قسم ، على غرار فردينند سوسير . اللغة الى عنصر جماعي جوهري أي استقراري وعنصر فردي عرضي أي تطوري ، فلهذا تصدر عنه مثل هذه الصيحة : «فألف جندي أجنبي بأسلحتهم وذخيرتهم في أرض هالكة بأهليها ربما كانوا غوثا تفتحت به السماء ، ولكن جنديا واحدا من هؤلاء في امة قوية مستقلة تنشق له الارض وتكاد السماء أن تقع » (36) .

ولكي يقنعنا بصحة أساس تخوّفاته يروي لنا نقاشا دار بينه وبين أحد المجددين حول اصلاح العربية ، وهو إذْ لاَ يذكر اسمه يعبّر عن نيته في اعتباره رمزا لحركة التجديد التي يرى طه حسين من أهم أنصارها . « قال لي ذلك الكاتب في بعض كلامه : « إن الميراث العربي القديم الذي ورثناه يجب هدمه كلّه وتسويته بالعدم . » قلت : « أفتحدث أنت للناس لغة وأدبا وتاريخا ثم طبائع متوارثة تقوم على حفظ اللغة والادب والتاريخ ، أم تحسب أنك تستطيع بمقالة عرجاء في صحيفة معقدة... أن تهدم شيئا أنت بين أوله وآخره كعود من القش يؤتى به لاقتلاع جبل من أصوله ؟ » (37) .

اذا فالجبل هو هذه اللغة التي نزل بها القرآن ، بل خلقت قبل أن ينزل القرآن وكأنها أعدت له من الازل . ثم أتى « العهد الذهبي » أي القرون الاوائل من فجر الاسلام وأثبتها ودعم أصولها ودوّنها في مجلدات ضخمة . فهي « هذه الملايين من الاعمار في عصور متطاولة » (38) التي أقرتها في إجماع تام فوقفت تقاوم في صلابة كالجبل لا يتزحزح اجتهاد الفرد « هذا العمر الواحد في العصر الواحد » (38) . فلا ظن ولا رأي « فان شذ عن الجماعة فئة... قالوا

(36) « تحت.... » ص 23 .
(37) « تحت.... » ص 21 .
(38) « تحت.... » ص 13 .

برأيهم . فهؤلاء مهما كثروا لا يستطيعون أن يحدثوا حدثا ، بل يفنون والجماعة باقية » (39) .

ولكن الرافعي يقرّ بأن اللغة العربية الفصحى ، لغة القرآن أصبحت « كالواغلة علينا » ! ! فما العمل ؟ . الطريق واضحة أمامه !

لو كنا من رجال « العصر الذهبي » لتمكنا من الفطرة ولامكن لنا التصرف في العربية تصرفا لا يفقدها خاصيتها وروعتها .

ولكن اليوم ، بل منذ أحقاب طويلة « انقضت فينا الفطرة واختبلت الالسنة » (40) . فأصبحت اللغة عند ذاك « علما » و« شعبا من الدفاتر قامت عليه حكومة من المجلدات وتملك فيها ملك من المعجمات الضخمة » (41) . ويتعجب الرافعي اذ يرى الناس اذا عرضت لهم مسألة في فن من الفنون يرجعون الى كتبها والى أهلها لكي يتقوا الخطأ بصوابهم ويتحاموا التقصير « باجتهادهم » وينزلون على « رأيهم » ولا يكون حالهم كذلك « في اللغة وأصولها والكتابة وأساليبها والبلاغة ومذاهبها » (42) .

ويخشى إن نحن أهملنا هذه الاصول وأهلها الا يبقى من اللغة شيء . ويتصور . هذا الوضع هكذا : « فاذا أهملناها [الفصحى]... وجئت أنت تقول : « هذا الاسلوب لا أسيغه فما هو من اللغة ، ويقول غيرك : وهذا لا أطيقه فما هو منها وتقول الاخرى : وأنا امرأة اكتب كتابة أنثى... وانسحبنا على هذا القول بالرأي ونستريح الى العجز ونحتج بالضعف... فماذا عسى أن تكون لغتنا هذه بعد... وأين تكون نهايتها ؟ » (42) .

---

(39) « تحت.... » ص ص 62 — 63 .
(40) « تحت.... » ص 43 .
(41) « تحت.... » ص ص 28 — 29 .
(42) « تحت.... » ص 29 .

ولكن رغم انصرافه كليا عن فكرة الاصلاح اللغوي فهو يحبذ نوعا من الجديد على شرط « أن تتصل المادة الجديدة بالقديم فاذا هو هو » (43) . وذلك « ببعض الزيادة أو بعض الزينة أو بعض القوة وكل ذلك لاحداث بعض المنفعة ! » (43) . وفي هذا المعنى ولهذا الغرض كتب « رِسَالَةً في العتب » (44) الى بعض أدباء الشام كنموذج لهذا النحو الجديد من الكتابة .

لعلنا أسهبنا في سياق أقوال الاطراف الثلاثة وخاصة منهم طه حسين والرافعي وعذرنا في ذلك أننا أردناه — كما قيل في البداية — حوارا وجدلاً لا نقحم فيهما نفسنا الا لربط فكرة بأخرى أو التمهيد لها أو التلخيص ان كان يقوم مقام الاستشهاد المطنب أو مناظرتها بأختها أو ارجاعها لاصل سابق لها .

وعلى كل ، فهو بالاضافة الى قيمته الفنية اللغوية — وان كانت النتائج الايجابية الملموسة دون ما ينتظر — يلقى أضواء على أخلاق عصر ما زال متصلا بحاضرنا وعلى جوّ من البحث الفكري والروحي لا ننفك نحنّ الى خصبه وحماسه .

عبد المجيد التركي

(43) « تحــت.... » ص 203 .

(44) نشرتها له « السياسة الاسبوعية » لمحمد حسين هيكل المتوفي في 1956 في صفحتها الادبية ومديرها اذ ذاك طه حسين وذلك سنة 1923 . وهذه الرسالة تعتبر السبب القريب العركة القدماء والمحدثين في قضية اللغة . وقد أثبتها طه حسين في أول الجزء الثالث من كتابه « حديث الاربعاء » (ص ص 5 — 6 — 7) (سننشر قريبا عملا جاهزا يروي قصة معركة القدماء والمحدثين هذه ويحلل أهم القضايا التي مستها . وهذه المعركة احدثت خاصة بمصر في ما بين الحربين العالميتين . والمقال هذا فصل من هذا التأليف) .

القصة فى تونس منذ الاستقلال
من خلال المجلات التونسية

بقلم : صالح القرمادى

يبدو وأنه آن الاوان لتصدي الباحثين والناقدين لدراسة الانتاج القصصي العربي بتونس والحكم على كمه وكيفه وضبط مناهجه وتياراته . ذلك ان القصة في تونس وعمرها لا يكاد يتجاوز بضعة عقود آخذة في الانتشار والتكاثر خصوصا فيما يتعلق بالقصة القصيرة أو الاقصوصة . فالصحف اليومية والمجلات حافلة عندنا بهذا النوع الجديد في الادب العربي والذي يبدو وأن جدته جعلت منه غاويا لاقلام الشباب المولع بالخلق الادبي .

وما الغاية من هذه العجالة الا تقديم اطار عام كمي — مع ابداء بعض الملاحظات الكيفية — للقصة بتونس في العقد الاخير . ومثل هذا الاطار ليس من شأنه طبعا ان يستفرغ دراسة هذا الموضوع وانما ربما كان معينا لمن سيتصدون للتعمق في دراسته بتصنيف الكتب والبحوث المفردة فيه اذ يجدون هنا ترتيبا أولا وخطوطا رئيسية واحصائيات أساسية في موضوع القصة بتونس المنشورة بالمجلات منذ الاستقلال .

لقد خصصت مجلة « الفكر » عددها الصادر في أفريل سنة 1959 لدراسة « قضية القصة التونسية » وسألت رجال الفكر والادب في تونس فيما سألت عن

« فقر الادب التونسـي في فن القصة » وعن « أسباب هذا الفقر ان كان » وعن « رأيهم في النتاج القصصـي الموجود » . فتعددت الاجوبة واليك بعض النتف منهـــا :

— « الرواية قديمة عند التونسـي... والقصة موجودة قديما وحديثـا وهـي اكـثر الاشياء وجودا . القصة التغريبية الملحمية... كالجازية وخليفة الـزنـاتـي والقصة التندرية كجحا وبوك عـكـرك... » « المشكـلة بعد ليست مشكـلة انتاج بـل نشر » فيجب أن « نُتَوْنِسَ ذهنيتنـا الادبيـة » وألا نـكـتفـي « بـالادب العربـي المشرقي والاندلسي فالمثل التونسي يقول « النعجة تفاخر بلية الخروف » أو « عرس عمه فـرح هو قـال الـكـل عمـارة بيت » (من جواب الاستـاذ عثمان الـكـعاك) .

— « ان ادب القصة يـكـاد يـكـون معدوما في تونس ما عدا بعض البـراعم تحاول ان تتفق » (من جواب الاستاذة ناجية ثامر) .

— « فقر الادب التونسـي في فن القصة هو فقر نسبـي بمعنى ان الشعـراء وكـتاب المقالة هم أكـثر عددا من كـتاب القصة وسبب ذلك هو خلو الادب العربـي عموما من التقاليد القصصية... ما نشر من القصص في السنوات الاخيرة في مجلتـي « الندوة » و « الفـكـر » أكـثره من مستوى لا بـأس به وبعضه من مستوى يمكـن وصفه بأنه ممـتاز (من جواب الاستاذ الطاهر الخميرى) .

— « انه لحق ما يشكـوه المثقفون في هذه الديار من فقر الادب في فـن القصة . وليس هذا المظهر من العوز ، خاصا بقطر دون آخر... ولـكـنه عرض عام يبدو في مقومات الادب العربـي على الجملة (من جواب الاستاذ محمـد الفـاضل بن عاشور) » .

— « وراجت الاقصوصة في العصر الاخير ومن اشهر كـتابها عبد الرحمان الـكـعاك ومصطفى آغة والشاذلي خزندار والسعيد الخلصـي ومن أكـبر مترجميها عبد العزيز الوسلاتـي » (من جواب الاستاذ عثمان الـكـعاك) .

— « لم تكن القصة ولا الرواية مجهولتين من قراء « المباحث »... ورغم ذلك نكتشف أن القصة ليست بأهم الفنون المطروقة في مجلة « المباحث » والحقيقة ان القصة بل أدب الخيال بأنواعه لم تتقدم حالته لا في مجلة « الندوة » ولا في مجلة « الفكر » . فقرنا في ميدان الرواية أكبر منه في القصة (من جواب الفقيد محمد فريدُ غازي) .

— « ولكن هذا ليس معناه أننا ماضون في سبيل خلق الاقصوصة التونسية ذات الموضوع التونسي والشخصيات التونسية... عندنا « شانتي » أدبي ولم تظهر البناية بعد .

الجنين في البطن ولا شك ووجعات المخاض تملأ الجو بدويها (من جواب الاستاذ عثمان الكعاك) .

كانت هذه اراء المجيبين عن استفتاء الفكر وأقل ما يقال فيها هو أن الائتلاف والاتفاق ليس من خصائصها البارزة . وكان ذلك سنة 1959 . لقائل أن يتساءل وقبل سنة 1959 وبعدها ما هي آراء النقاد والكتاب عندنا في القصة ؟

اكتفى هنا بسرْد رأيين احدهما للاستاذ محمود المسعدي صدر في « الندوة » (عدد فيفري 1956) وثانيهما للاستاذ مصطفى الفارسي قرأه الناس في عدد ماي 1963 من مجلة « الفكر » .

سألت الندوة الاول قائلة : « في خصوص القصة أنكرَ اخواننا الشرْقيون وجودها في المغرب العربي ولم يستثنوا الا قصصكم مع احتراز فهل لكم رأي في هذا الصدد ؟ » فأجاب « اخواننا الشرقيون معذورون في حكمهم لان انتاجنا في القصة وفي غير القصة قليل ولانهم يجهلون الكثير عن ذلك القليل . ولا أرى في ذلك علينا الآن من ضير ولا يسوغ لنا استنكاره ما دام أدبنا لم يفرض بنفسه وجوده ومعرفته على الناس في الشرق وفي غير الشرق » .

وألقى الثانـي محاضرة بدار الجمعيات الثقافية بمناسبة اسبوع القصة المغربية ثم نشرَها بعنوان « القصة كامنة فينا » (« الفـكـرُ » ماي 1963 ص 31/18) فقال فيها فيما قال : « أعتقد ان القصة التونسية لا تنتظر الا من يأخذ برقبتها وينزلها من عالم الافـكـار الى ميدان الحبر والورق... نحن ماضون في سبيل خلق الرواية ذات الموضوع التونسي والشخصيـات التونسية لاننـا نعيش أوان خلق القصـة ولأن القصة الـكامنةَ فينا هـي التي ستحثنا على الاخذ بيدها واخراجها الى الوجود... » .

فهل بعد هذا يمكـن للمرء ان يعرف هل القصة التونسية موجودة عندنا أم لا ؟ أي هل ثمة قصاصون تونسيون كـتبوا قصصا نشرت وقرأها الجمهور ونقدهـا النقاد فاعترفوا لها بالقيمة أم لا ؟ الاجابة عن هذه الاسئلة بالاعتماد على الاراء المذكـورة عسيرة والحق يقال لـكـثرة تنوعها وشديد تناقضها احيانا . فهل يسهل علينا الامر أقوال النقاد المستشرقين وآراؤهم ؟

فها هو جاك بارك يـكـتب في عـدد الفـكـر الخـاص بالقصـة والمـذكـور آنفـا : « لست أعرف مع الاسف الشديد قصاصا تونسيا كـبيرا فيما عــدا المسعـــدى » .

ونفس جاك بارك هو الذي كـتب مقدمة لـكـتاب « مختارات من الادب العربـي المعاصر » (1) الذي نشرت فيه قصص مترجمة الى الفرنسية ألفهـا علي الدوعاجـي ورشاد الحمزاوي والبشير خريف وحسن نصر ومحمد فرج الشاذلي .

وجاء في هذه المقدمة قول المستشرق الشهير : « ومن اللازم ملاحظة ان عدد المؤلفات العربية التـي من شأنها اجتياز نطاق الشهرة الجهوية فضلا عـن الشهرة القومية ما زال الى الآن عددا قليلا جدا » .

---

(1) Anthologie de la Littérature Arabe Contemporaine.
1) Le Roman et la Nouvelle; par R. et L. Makarius; Paris. Edition Le Seuil. 1964. 1 volume, 409 pages.

وهـا هو الاستاذ « بـلاشير » يتساءل في جريـدة « لا بـريس » الصادرة يوم 17 جانفي 1963 هل سيتمكن الـكـتاب التونسيون من « اجتياز نطاق القصة القصيرة الضيق والارتفاع الى مستوى الرواية الطويلة ؟ » .

وها هو الاب « لولـون » يقـول في مجلـة « ابلـة » (I.B.L.A.) عـدد 101 سنة 1/1963) « ولـكـنه يـكـون من باب المغالاة في التشاؤم بل والحق يقال ومن باب عدم الانصاف أن ينفـي المرء وجود أدب تونسـي فتـي... ففي ميدان النشر.. يمثل انتاج مصطفى الفارسـي ورشاد الحمزاوي ورشيد الغالي ومنجـي الشمـلي وصالح القرمادي وغيرهم كـثيرين المنشور في السنوات الاخيرة بمجلتـي «الفـكر» و « التجديد » يمثل هذا الانتاج مساهمة محدودة الى حد الآن الا انها لا تخلـو من اثارة الاهتمام وليست عديمة القيمة » .

ثم رأيناه قد ترْجم في الاعداد الاخيرة من مجلة « ابلة » (2) للبشير خريف ورشاد الحمزاوي ومصطفى الفارسـي حياتهم ونبذا من قصصهم .

فهل معنى هذا ان القصة التونسية المـكـتوبة بتونس في العقد الاخير قد بلغت من الـكـم والـكـيف والتنوع والجودة ما جعلها ليست موجودة فقط ترزق وتقرأ في تونس بل مترجمة الى لغة أوروبية هامة كاللغة الفرنسية تجوب انحاء الارض تثبـت عالميتها اثباتا ؟

قد يميل بنا الى الاجابة عن هذا السؤال بالاثبات منح بلدية تونس في السنوات الاخيرة جائزة علي البلهوان ومقدارها 500 دينار لقصص ألفها البشير خريف ورشاد الحمزاوي والعروسـي المطوي وفاتح والي وهـي على الترتيب « برق الليل » و « بودودة مات » و « حليمة » و « مولد البطل » .

---

(2) انظر مجلة « I.B.L.A. » (إبلـة) عدد 101 سنة 1/1963 وعدد 102 سنة 2/1963 وعدد 104 سنة 1963 .

ولـكـن انجع طريقة من شأنهـا ان تسمـح لنا بالوصـول الى التعـرف على الحالة تعرفا قريبا من اليقين هي القيام بتحليل احصائي ونوعي لجميـع ما جاء في المجلات التونسية الخاصة بفترتنا من قصص . وقد اخترنا من هذه المجلات اهمها وهي « الندوة » (1953 — 1957) و « الفـكر » (1955) و « التجديد »(1961 — 1962) مع ملاحظـة ان مجلة « الندوة » وان برزت قبل الاستقـلال بقليل فهـي على كـل حـال تهم الفتـرة التـاريخية التـي نروم دراستهـا وذلك من حيـث انهـا مخضرمة .

فاذا قمنا بهذا التحليل تبين لنا أن « الندوة » نشرت في حياتها كـلها قرابـة الـ 28 قصة منها قصتان مترجمتان لمحمد ذيب ترجمهما الطاهر قيقة . أقـول : « قرابة » لانه لم يمكـن لي الاطلاع على عدد جويلية 1953 وماي 1956 من هذه المجلة . وقد كـتب هذه القصص 15 قصاصا هم السادة : محمود الباجـي (4 قصص) محمد المرزوقـي (قصة واحدة) محمود شمام (قصة واحدة) عبد الرزاق كـرباكـة (قصة واحدة) توفيق بوغدير (قصة واحدة) علي الدوعاجـي (قصتان) محمد الطيب التريـكـي (4 قصص) محمود المسعدي (قصة راحدة) حسين احمد حسين (قصة واحدة) تاج الدين المختار (قصة واحدة) رشاد دارغوث (قصتان) عيسى الناعوري (قصتان) زين العابدين السنوسـي (قصتان) الدكـتور عبد السلام العجيلي (قصة واحدة) أبو العيد دودو (قصة واحدة) (1) ذكـرناهم حسب ظهور اسمائهم في اعداد المجلة .

واذا فعلنا نفس هذا الفعل بمجلة « الفـكـر تبين لنا ان هذه المجلة قد نشرت في حياتها الطويلة (اكـثر من ثمانـي سنوات) المستمرة الى الآن أي حتى عدد فيفري 1964 قرابة الـ 131 قصة . ولما كان عدد المؤلفيـن والمتـرجميـن للقصص ينيف عن الاربعين (44 بالضبط) فلن نذكـر منهم الا نصيبا اخترناهم حسب

(1) انظر الجدول التفصيلي آخر هذا المقال

كثرة انتاجهم وجودته عادة . وليس يخفى ما في هذا النوع من الاختيار من اغتباط اذ لا بد ان يكون من بين القصاصين المهملين من لهم قيمة ايضا .

فمن بين المؤلفين نذكر محمد فرج الشاذلي (8 قصص) وابو العيد دودو (4 قصص) والبشير خريف (5 قصص) والطاهر وطار (8 قصص) ومحمد رشاد الحمزاوي (5 قصص) ررشيد الغالي (12 قصة) ومصطفى الفارسي (3 قصص) والطيب التريكي (قصتان) .

ومن بين المترجمين للقصص الاجنبية نذكر محسن بن حميدة (12 قصة مترجمة) وابو العيد دردو (6 قصص مترجمة) (2) .

واما مجلة « التجديد » فقد نشرت في حياتها القصيرة عشر قصص تقريبا وبعض الخواطر القريبة من فن القصة كتبها سبعة مؤلفين وهم : المنجي الشملي ورشاد الحمزاوي وعبد العزيز الحاج طيب وحسين احمد حسين ومصطفى الفارسي والمختار السلامي وصاحب هذه الاسطر (3) .

وهكذا يظهر ان عدد القصص المنشورة في البلاد في هذه المجلات في العقد المنصرم يبلغ الـ 169 قصة تقريبا .

فالقصة التونسية موجودة اذن من حيث الكم بل يُمكن ان يقال انها موجودة بكثرة نسبية اذا قارناها بالمسرحيات مثلا وان كان وجودها بالنسبة الى القصيدة الشعرية ضئيلا نوعا ما . ولكن ما هي الحالة اذا تعرضنا الى الكيف ؟ الى الاتجاهات؟ لقد ظهر لنا من خلال دراسة عدد لا بأس به من القصص المنشورة أنه يمكن الرجوع بها الى ثلاثة مشارب ونزعات هي النزعة الرومانطيقية التي يصف اهلها اضطراباتهم النفسانية في ميدان الحب والغرام خاصة والنزعة الحماسية التي يشيد

(2 – 3) انظر الجدول التفصيلي آخر هذا المقال

اصحابها بالمجد والعزة وينتحلون مواضيعهم من ثورة البلاد على الاستعمار والنزعة الواقعيـة الاجتمـاعية وقد عكـف روادهـا على وصف الواقـع التونسـي وخاصة الشعبـي منه وحياة البلاد اليومية بما فيها من جمال وكـذلك من بشاعة وفساد . ويجب طبعا الا يغيب عنا ان هذه النزعات ليست منفصلة فصلا باتا بل قـد تتداخل وتتشابك وكـذلك قد نجد عند نفس الـكـاتب نزعات متعددة .

1) نزعة الاضطرابات العاطفية أو النزعة الرومانطيقية

نذكـر من بين ممـثليها قصاصين هما رشيد الغالي والطاهر وطار . نشر الاول 12 قصة والثانـي 8 قصص وجميعها بمجلة الفـكـر . ففي « يقظة » (الفـكـر السنة 4 العدد 10 ص 70/68) يروي رشيد الغالي توق امرأة الى رجل وعدم امـكـانية الاتصال بينهما . قال الرجل : « كـلنا يبحث عن صاحبه وسوف نبقى هـكـذا حتى نفنى » والقصة أقرب الى القصيدة والانشودة منها الى فن القصص . أسلوبها فنـي فيه عمل شعري ظاهر .

وفي « لن أسائلك » (الفـكـر س.5. عدد 3 ص 79/76) نقرأ محاورة من نوع الدرامة الداخلية والبسيـكـولوجيا الغرامية : « قالـت له بعـد اشهـر اخـرى عـبّرت : « انـي احس بحرارة متصعدة في عواطفـي أريد ان اطير أن افلت من سيطرة امـي وأبـي والتقاليد... » نرى من الآن بروز عنصر هام من عنَـاصر هذه النزعة وهـي الثورة على التقاليد الاجتماعية التـي تعـكـر صفو حياة الشباب الغـرامـيـة . ثم نشر هـذا القصاص « من أمسى » (الفـكـر س . 5 عـدد 6 ص 18/15) و « اليها » (الفـكر س 5 عدد 7 ص 28/25) و « الغبـي » (الفـكـر س 6 عدد 1ص 30/25) و « قالـت لي » (الفـكـر س 6 عدد 3 ص 81/79) وكـلها تحوم حول نفس الموضوع : حيرة وارتباك وتساؤل حول المصير والـكبت. اما الاسلوب ففيه نزعة الى الشاعرية والرمانطيقية الساذجة والتـكـلف في اكـثـر

الاحيان (مثال من « قالت لي » : « هي انتفاضة شاعرة لفتاة أرادت ان توجد على مسرح الحركة... فارتعشت أمام ذبذبة الوميض ») .

وفي « لن التقي بها » (الفكر س 6 عدد 7 ص 48/46) اختار رشيد الغالي المرقص مجالا لقصته . البطل يتساءل وهو على دراجته النارية ويذكر رقصته مع امرأة جميلة متزوجة « ولكنه لم يفكر وهو يقوم بهذه الفعلة بأن اعماله منافية للاخلاق » وفي « امام الوميض » (الفكر س 7 عدد 1 ص 73/71) نفس الموضوع : رقص — رجوع في السيارة — دفء — ثم نقاش ويظهر من هاتين القصتين الاخيرتين اذا قورنتا ببعض القصص الاخرى ذات الجو الريفي تصارع ابطال المؤلف بين المدينة والقرية بين المدينة والريفية وهو من المواضيع البارزة عند كتاب القصة التونسيين ذوي الاصل القروي والذين نزحت بهم ظروفهم التعلمية أو الاجتماعية الى المدينة .

وفعلا فنحن نرى مؤلفنا يتعرض الى المغامرات الغرامية بالريف في قصص نشرها فيما بعد وهي « ذات ليلة ماضية » (الفكر س 8 عدد 2 ص 68/65) و « من الامس » (الفكر س 8 عدد 3 ص 40/37) .

ففي « ذات ليلة ماضية » يصف رشيد الغالي خطبة أهل محمود لصبية ريفية . ويخيم على جميع القصة جو ريفي ساذج وبساطة كبيرة . فيها الفقرات العاطفية الرومانطيقية (محمود يحلم بأنه يلثم خطيبته) وفيها فقرات من نوع وصف الحياة اليومية الواقعية كهذه الفقرة المكتوبة باللغة الدارجة لانها من نوع الحوار :

« عم الحشائشي » ينادي امرأته :

— يا مرى !

— اشنوه ؟

– يعطيك حلوة في لسانك ما تعرفش تقول نعم . وين مشات المقصوفة صلوحة ؟

وفي « من الامس » (الفكر السنة 8 العدد 3 ص 40/37) يروي لنا المؤلف قصة شاب يعيش في المدينة ثم يلتحق بالقرية قصد التزوج ولكن الخطيبة تعتبر ان القبلة « فعل حرام » .

وفي هذه القصة نصيب وافر من الثورة على الاوضاع الاجتماعية والدينية وخاصة المتعلقة بالعلاقات بين الجنسين . ويظهر ذلك من الفقرات التالية « سهر تلك الليلة... الى ساعة متأخرة وشرب كثيرا من الخمر... ولما لفظته الحانات الليلية... ترنح امام عمود حديدي فاقترب منه وطوّقه بذراعيه ثم اسند اليه خده واخذ يرنو الى قطة ثقل عليها الليل فانكمشت على عتبة دكان مغلق » . ثم يعود الى القرية فيصف الزوج الشيخ الوقور الذي تزوجت به الفتاة بعد مغامرتهما الفاشلة فيقول : « وتترقبين سيدك صاحب الوقار والاصل العريق والاحترام... سيدك المتدين الذي لا يعاقر الخمر ولا يدخن ولا يلبس بدلة الافرنج «الكفار» ولا يذهب الى السينما بل يحفظ الستين حزبا من القرآن الكريم » .

فالثورة العارمة والقطيعة بين الاجيال بارزتان بروزا . وفي « عودة » (الفكر السنة 8 العدد 8 ماي 1963 ص 84/79) يطلعنا رشيد الغالي على قصة متوظف وحبه غير الممكن مع صديقة قديمة تزوجت . جو من النجوى والتفلسف يخالطه شيء من الملاحظة الاجتماعية يظهر في وصف القصاص لرتابة حياة المتوظف الخانقة : « وجرع قهوته بسُرعة ثم اتجه نحو عمله... وعاد اليه احساسه بالرتابة والخلل عندما دار مع المنعرج الذي يقوده الى مقر عمله... لقد مر من هذا المنعرج مرات كثيرة حتى اصبح ينتهي اليه ويعبره بدون ان يرفع رأسه » .

ولقصاصنا قصة اخرى عنوانها « الخلخال » ولكنها تنتسب الى النزعة الاجتماعية الواقعية ولا علاقة لها بنزعة العاطفة هذه مما يقيم الدليل على ان

الـكـتاب لا يلتزمون نزعة واحدة وانما قد تتواجد عندهم اكـثر من واحدة كما سبقنـــا .

وأما الطاهر وطار واصله جزائري فقد وصف لنا في « صحراء ابدا » (الفـكـر س 4 عدد 7 ص 42/38) رجلا يفـكر، وقد اخذه الارق ، في مصيره . ينقصه الدفء وقلب حبيب لا ترضيه المومس سعاد التـي تزوره كـل يوم اثنين فيحتسيان « الوسكـي » ويخرّان على الفـراش .

دائما اذن نفس الموضوع : الحب غير الممكـن . ونفس الطريقة الفنية : الدرامة الداخلية — التفـكـير — التفلسف مع ميلان الى خلق اجواء عصرية في الظاهر (المومس — الوسكـي) ولـكـنها تغلب عليها اصطناعية ملحوظة .

وفي « ممـر الايام » (الفـكـر سنة 4 عدد 8 ص 56/52) نطلع على قصـة شاب زيتوني يعيش في العاصمة فقيرا يـكـتب المسرَحِيَات ويشرب « الروزي » ويدخن « الحلوزي » و « الارتـي » .

في القصة اسى وقلق شديدان : « لا شباب في العالم العربـي وليس للعربـي من اطوار سوى طور الطفولة وطور الـكـهولة » . وحياة البطل « ايام طويلة تمر وكـأنها جدران لممر ضيق نتن لا مفر للمرء منه » .

وفجأة دخل صاحبنا الزيتونـي في مغامرة غرامية مستحيلة من نوع « حـب فوق السطوح » مع فتاة رآها في شرفتها . فالحب غير ممـكـن في العالم العربـي .

وظاهر ما في هذه القصة من عناصر مختلفة ابرزها نزعة الى الوصف الواقعـي الموضوعـي (زيتونـي — الخمر « الروزي » — السجاير « الحلوزي والارتـي ») واخرى الى الرومانطيقية التـي يعوزها التحليل النفسانـي البليـغ الفن والقيمة .

وفي « القبعة الجليدية » (الفـكـر سنة 4 عدد 9 ص 38/33) يروي الطاهر وطار قصة تلميذة بدار الباشا يلاحقها كـل يوم شاب يهمس في أذنها « ان

كل واحد منا في حاجة الى الآخر » : تحليل نفساني مألوف وخاصة تردد الفتاة بين قلبها والاخلاق التي ورثتها عن أمها أمها التي صيرت رأسها « قبعة جليدية » من المحجرات .

من الملاحظ بروز عنصر مطاردة الفتيات في الشوارع وهو موضوع كثير الانتشار عند كتابنا .

وفي « زنوبة » (الفكر سنة 4 عدد 10 ص 78/71) نشاهد شابا رساما في عراك هو الآخر مع الحب غير الممكن في المجتمع العربي الاسلامي .

ونقتطف من هذه القصة فقرة لا تخلو من شيء من قوة الحاسة وخصب الخيال : « لوحة تمثل موقف المسلم الواعي من المرأة خطوطها مسبحة مهشمة وعمامة مهلهلة ودينار أما ظلالها فثقة معدومة ونفاق متبادل وعطش دائم... امرأة مذبوحة وجهها مضرج بالدماء نهداها احداها منفصلة عن الصدر والاخرى مشطورة الى اثنين... وبجانب المرأة يقف شاب يقهقه » .

وفي هذا التداخل بين القصص والرسم ما يلفت النظر .

واما « ابتسمي » (الفكر سنة 6 عدد 1 ص 63/53) فقصة غرامية فيها جميع عناصر الميلودرام : حب معكوس – محاولة انتحار – حل جميل يقود الى الابتسام .

وانما ذكرناها لبروز عنصر جديد فيها وهو كراهية الشاب للعربيات وايثاره الاجنبيات والزواج بالفرنسيات . وهي ظاهرة اجتماعية قد تهم علماء الاجتماع وعلم الاجتماع الادبي .

ولوطار قصة اخرى (محو العار) من نوع « الحماسيات » نشرها في (الفكر س 7 عدد 2 ص 41/24 وسنة 7 عدد 4 ص 84/65) .

من جميع هذه الاقاصيص التي سُقْنَاها يظهر لنا ان هذه النزعة العاطفية الاضطرابية وان تعرضت الى موضوع ليس عقيما في حد ذاته فانها لم تتوفق عادة إلى الارتفاع به الى مستوى فني رائع ولم تتوفق في نظرنا تماما الى معالجة منزلة المرأة التونسية معالجة فنية فائقة وأهم ما جاءت به هي عناصر يستعملها المؤرخ وعالم الاجتماع وثائق يعتمد عليها لابراز بعض الخصائص الخاصة بالمجتمع التونسي .

فنحن لا نرى عادة وصْفاً دقيقا لمنزلة المرأة الريفية في حياتها الكأداء ولا اثرا للعراكات والتناقضات التي ادخلتها بعض المؤسسات والتشريعات العصرية على حياة النساء مثل « مجلة الاحوال الشخصية » وانما هو بكاء وانما هو عويل يتردد ويتردد حتى يسد الافاق . ولا تتخلله الروعة الفنية فترتفع به الا في الندر . وكذلك نلاحظ تغلب التفلسف والنظريات والاسلوبية وتضاؤل الوصف الدقيق الواقعي الثري .

2) نزعة الحماسة والتمجد

هذه النزعة كثيرة منتشرة نذكر من ممثليها محمد فرج الشاذلي وحسن نصر والطاهر وطار . ففي « مصرع صالح » (الفكر سنة 1 عدد 3 ص 32/29) يروى لنا محمد فرج الشاذلي قصة صالح وهو فلاح طيب لم يختر في القرعة العسكرية لفقر دمه ثم قاده امتهان الجند والجندرمة لاهل قريته ثم لامه واخته الى الالتحاق بالجبل وقيادة الثوار . ورجع الى القرية يوما حَنِينا منه اليها فنزل عند صديق له ربما كان من الخائنين فصادمته الشرطة وبعد تبادل اطلاق النار أردوه قتيلا .

وأسلوب القصة وبَاقي قصص المؤلف سلس عربي فصيح لا تداخله الدارجة ويميل احيانا الى اسلوب المقامة (فالقصة تنتهي بـ « قال الراوي ») وموضوعها وجَوُّها مألوفان عند جميع من كتب في الثورة والمقاومة .

و « حامل الحقائب » (الفكـر سنة 1 عدد 5 ص 48/44) قصة تدور حول وجوب ايصال حقيبتين ملئتا ذخيرة الى العاصمة . وترى صالحا البطل يتناقش مع عبد المؤمن المعلم المثقف في امكـانية قيام هذا الاخير بهذه المهمة الخطرة . عبد المؤمن يشك في نفسه ويخاف ان هو قبض ان « يبيع » أصحابـه فيطلب مصاحبة مقاوم آخر له حتى اذا ما قبض اطلق عليه النار فأرداه ومنعه هـكـذا من ان يضعف عند التعذيب ويبوح باسماء اصحابه .

فالجو هو هو ولـكـن التحليل النفسانـي أغنى والاشخاص أكـثر خصبـا وأقرب الى الانسانية والواقع وان كان ما يقترحه عبد المؤمن من وجوب قتله مستبعدا نوعا ما من مثقف يشك في نفسه .

في هذه القصة فقرة تدل على نزعة الى الصراحة في الملاحظة الاجتماعية « قال صالح : ان امركم عجب يا أهل الثقافة وانه ليخيل الى أنـكـم كـلمـا ازددتم علما ازددتم جبنا فـكـأنما ثقافتـكم شل للقوى وانـكم لـكـالنظـارة لا تركـبون الهول ولا تخوضون المعمعة وليس الا ان تفـكـروا » .

وفي « وحـي العـودة » : (الفـكـر سنـة 1 عـدد 6 ص 30/28) نطلـع على ذكـريات رجل يعود الى القرية بعد مدة فتعاوده الذكـريات وهو بالمقبرة يشاهد اجداث الشهداء فيذكـر الدماء ويفـكـر في الموت وفي كـونه لا بد منه . أليس الموْت فـي صميمه هو : « نداء وايحـاء واعتـزاز وتحـد » ثم يـذكـر صبـاه واستشهاد « ابن الارقش » في « كـدرونه » وقد قام ضد عملية « التجنيس » فيقارن هذا « الـكـدرون » بلباس احد المتفرنجين المتعاونين مع الاستعمار فيؤثر « الـكـدرون » على الـكسوة الاروبية المتنـكـرة لاصلها ولقومها .

في هذه القصة كما نلاحظ نصيب وافر من النزعة الاخلاقية الوعظية وهـي نزعة كـثيرا ما تظهر عند من اتخذ هذا الحقل — حقل الحماسة والتمجد —

موضوعا لقصصه وفنه . ولمحمد فرج الشاذلي نزعة اخرى في قصصه وهـي الواقعية الاجتماعية سنراها . واما حسن نصر فقدْ طرق فيما طرق الثورة والمقامة وذلك في :

« ولدي الى الابد » : (الفكـر س 4 عدد 10 ص 83/80) وهـي قصة رجل يخرج من السجن وجماعة من رفاقه فيعود الى داره فينكـره ابنه لانه لم يره منذ اربع سنوات وفيها حوار يفهم منه انهم دخلوا السجن من أجل القضية الوطنية وان الازمة قد انتهت « بعد ان ظفرنا بحقنا الشرعـي في الحياة » .

وفي « دموع غـاليـة » (الفكـر س 5 عـدد 2 ص 93/91) تستمـر نفس البساطة فنقرأ رسالة بعثت بها بنت الى ابيها تقص فيها تعذيب الجنود لهم .

وفي « ليس غير المطر » مشهد آخر من مشاهد المقاومة رجل يغيب عن محله ثم يعود فيعلم زوجته بأنه مبحوث عنه ثم يأتـي الجند للقبض عليه...

ولحسن نصر في قصصه نزعة الى الواقعية الاجتماعية ايضا .

واما الطاهر وطار فقد نشر قصة طويلة نوعا ما في هذا الميدان وهـي « محو العـار » (الفكـر س 7 عدد 2 ص 41/24 وعدد 4 ص 84/65) القصة من وحي الثورة الجزائرية : جزائري يبيـع نفسه للجيش الفرنسـي ثم بعد عدة مغامرات يشعر بالوعـي القومـي يستولي عليه شيئا فشيئا فيقوم بعملية ينتقم فيها من بعض الفرنسيين ثم يلتحق بالجبل « فيمحو العـار » .

وأحسن ما جاء في هذه القصة هو التحليل النفسانـي الظاهر خاصة في تردد « بلخير » بطل القصة بين ماضيه ومستقبل بلاده . وهذه فقرة من القصة ذات قيمة ايجابية بارزة وتتمثل فيما يصيـح به ضابط فرنسي يزور قرية جـزائـرية لتحريض اهلها على الالتحاق بالجيش الفرنسـي يقول : « تطوعوا تربحوا — تطوعوا تربحوا — الكـيلوغرام بألفـي فرنك . من يزن 70 كـيلو فنصيبه 140

الف فرنك... رليس معنى هذا ايها السادة أن الانسان باع نفسه كـلا... كـلا . يجب الا يفهم من كـلامـي ان فرنسا تشترى الناس بالمال » .

وخاتمة القول في هذه النزعة الحماسية ان طابع الاخلاقيات ووصف المواقف المواقف البطولية ذات الوجه الواحد يغلب عليها وان التحليل النفسـي الواقعـي ووصف المتناقضات فيها قليل فهـي وان كانت معقولة في فترة مقارمة الاستعمار التـي مرت بها البلاد ومحمودة من حيث غاياتها الانسانية الشريفة لم تثـر الادب القصصـي عندنا اثراء ذا بـال .

3) النـزعـة الـواقعيـة الاجتمـاعية

وروادها كـثيرون وانتشارها امر طبيعـي في هذه الفترة من تاريـخ بلادنـا التـي يستعيد فيها الانسان التونسـي نفسه ومهجته بالرجوع الى حياته الاجتماعية ووصفهـا وابـراز ذاتهـا .

وممـن طرق هذا النوع نذكـر بالخصوص الطيب التريـكـي ومصطفـى الفارسـي ورشاد الحمزاوي والبشير خريف وبعض الآخرين .

الطيب التـريـكـي

— « سالم الحوات » : (الندوة . ماي 1954 ص 44/41) وصف لمشهد من حياتنا الاجتماعية الشعبية المـألوفة . وصف يوم من ايام « سالم » وهو حـوات يبيـع السمك « بالربط » وهـُوَ حـي من الاكواخ بناه الفقراء خارج المدينة . ثم ينتهـي المشهد بمشاجرة من المشاجرات الشعبية لمعرفة من يأخذ سمكـهُ قبل الآخر .

سالم يعبر الربض ويصيـح : « حـي ينقز من بحره يا اللـي تمرق » واذا أجاب حريفا ضايقه قال له : « خلينـي نندب على ايامـي » .

الاسلوب : خفيف ، حي ، نابض . لغة دارجة في الحوار واحيانا في السياق لتصوير الاصوات مثل العجلة التي « تقزقزان » أي تصر صريرا .

— « سعيد الحمال » : (الندوة جويلية — أوت 1954 ص 30/27) شخص آخر من حي « الربط » يوم حمال . يقوم فيقول : « يا فتاح يا رزاق » ثم يتجه الى السوق الجديد يعرض عمله على الزبائن مستعينا بحماره — وصف اختياله الساذج في التحصل على الرزق — ومشهد مع اصحابه — « اخوانه » : « نهاركم سعيد — اهلا بفليفل — فلفول يا سيد الرجال — يعطيه عزا ركايبه خلّت » ...

ثم نهاية نهاره مع أولاده وزوجه يهيئون ما جاءهم به من اسماك .

الخاتمة : « وينام سعيد وهو راض عن نفسه قرير العين بأسرته الصغيرة الى ان ينقضي يوم ويبتدي يوم » .

« وان كان لحياة سعيد معنى فهو اعراض عن الهموم » .

— « دمار الفقر » : (الندوة 1955 عدد 1 ص 46/43) صبي يشاهد جزارا في عمله : « وبعد ان يضرب الشاة ضريبات بسكينه على احدى قوائمها ليتحقق ان الروح غادرتها يفصد جلدها من ساقها اليمنى ويفتح فيها فرجة يلصق بها صانعه الصغير فمه... : انفخ يا طفل — انفخ مليح ياخي تاكل في النخالة » .

فيريد ان ينسج على منواله في الحياة :

« جربني يا عم طاهر نخدم حتى بكرشي » .

ولـكـن تـكـاثر الاطفال عليه حمله شيئا فشيئا الى الفقر . فـكـان لا يـدفـع ضرائبه حتى غضب عليه الشيـخ فشكـاه الى الحـاكـم فقـدم « خليفـة » على الحـاكم في غيـر خجـل ولا وجـل :

— علاش ما تدفعش اللـي عليك يا ولدي ؟ ياخـي مهزرص على الدولة ؟

— حاشا اوكال الله يا سيدي . اما فم سبب ما خلنيش ندفع .

— اش نــوه ؟

— مــرض يـا سيــدي .

— اش مـرضك هـاك صحيـح كـيف الجـان ؟

— لا يا سيـدي صايبنـي مـرض الله يعـافيك مـا يخلينيش نشري حتـى خبُــزة للصغــار .

— اش نــوه هـالمــرض ؟

— الفقـر يـا سيــدي .

ثم قصة احتياله على اولاده النائميـن ليأكـل الفطائـر هو وزوجتـه دونهـم ولـكـن الاطفال الثمانية استيقظوا فشاركـوهما اكـل الفطائر فلم يبق لخليفـة وزوجته الا فطيرة صغيرة تقاسماها . وبعـد ان أكـل خليفـة نصـف فطيـرتـه اضطجـع وهو يشم اصابعه ويقول :

— حال يا والله حال . هذا هو دمار الفقر . حسدنا حتى في رطل فطائر .

— « الشباب المحروم » : « سليـّم الفرزيط » : (النـدوة : 1955 عدد 2 ص 17/13) (تـرجمهـا المنجـي الشمـلي إلى الفـرنسيـّـة في جـريـدة :

L'Etudiant Tunisien 1956

نحن دائما في « الربط » : سليـّم طفل « يندمج في عشرات الصبية أمثـالـه (في سوق الخضر) فيغيب على نظرك ويصبـح هو وامثاله يحملون البضـاعـة

ويتقاضون اجور البخس » « واذا تفرقت السوق واضحى النهار اجتمع الصبية تحت الجدار الشرقي قبالة الشمس يعبثون ويمرحون واما سليّم فتراه جالسا مسندا ظهره الى الحائط وقد اوقف ركبتيه فتظهر لك رجلاه سوداوين وأشد سَوادِ هِمّا من ناحية القدمين . وليس هذا السواد متأتيا من تراكم الاوساخ فحسب بل يحدث البرد نوعا من الالتهاب في الجلد فيتحول الاديم الناعم قشورا سوداء وينشق شقوقا ينزف منها دم وقيح وليس في ذلك ما يخجل له سليّم فهو طارىء يطرأ على البشرة عند امثاله في فصل الشتاء .

ثم يأتي وصف للعبة « الحفرة » . يقول سليّم :

– أيّ هاني جيتكم . آشكون صويرداته حرمت عليه ؟...

ويستفز اقرانه :

أيّ دورو بدورو .

– عاد اش بيه ؟ تخوف فينا ؟ نلعبولك حتى عشرين بعشرين .

– فتوى للجيعان . هكه يقول اللي يعرف صويرداته حارمين .

« يقف سليّم عند الخط المرسوم على الارض وبعد ان يثني ركبته اليسرى قليلا ويقوس ظهره بعض التقويس يشد فلسه بيده اليسرى بين سبابته وابهامه ويغمض عينه اليمنى ويكسر حدقته اليسرى حتى ينحصر مجال البصر بَيْنَ الحدقة والحفرة ثم يرفع يَده ويحركها بلطف بحيث تنتقل مرارا متباعدة متدانية في مجرى الخط الواصل بين العين والحفرة وما هي الا لمحة حتى يقع الفلس في الهدف :

– يخلي دار أمه آش ها الهم .

– عمره ما يفلتها » .

ثم وصف لتدخين « بونتة السيقارو » و « اخـراج الدخـان مـن الانـف » (« ها هو الشمنديفير جـاء ») .

وادخال السجارة في الفم ثم حيلة اخراج الدخان من العينين وكـي اليـد الموضوعة على الصدر . هـكـذا يقضـي سليم يومه .

— فـرحـة الاولاد : (الفـكـر س 1 عدد 2 نوفمبر 1955 ص 39/44) مشهد عائلي في شهر رمضان قرابة العيد : نوع من التشاجر بين الزوج والزوجة في وجوب صنـع « المقروض » . ثم وصف لصنـع هذا المقروض وفرحة الاولاد به .

في جـو من الفقر ووجوب التقسيط والتغلب على التعاسة .

الخـاتمـة :

الزوج : — بتشـي على غلبك ؟

هـي : — مانيش ماشية نحطه في قصريتـي — ما هو اشوية آش ما جاء — فرحة الاولاد قدام الجيران .

— « كـلاب السوق » : (الفـكـر س 1 عدد 4 جانفـي 1956 ص 32/36) هم اربعة : لبّـز : لانه يـكرّر مرات ومرّات هذه العبارة في وجه مهاجميه : « والله تـو نلبّـزك » .

بوجـرادة : لـكـثرة شبهه بالجراد « امتدت قامته الى السماء حتى صار أترابه يقولون له : العام الجاي نمدولك الماكـلة بالسلوم » .

— القرطاس : لصلعه « يتيم لم تعتـن به أمـرأة عمـه وتـركـت الحشرات والاوساخ تنخر اديم رأسه فتَنَسلَت شعراته وتكـونت مـكـانها قشرة عفنة » .

ـ عيـن اللـص : « أتى عليه داء الرمد فـأصاب عينه ففقـأها » .

كـيف يقضـو ن نهـارهم ؟

1) سرقــة الـكـا كـاويـة :

يقف « لبــز » امام الدكان ويبقى يشغل التاجر بالحديث والمساومة وهو يملأ كـفـه اليمنى « بالـكـا كاوية » ويتظاهر بصبها في الـكيس ولـكـنه يتلقاها بيده اليسرى ويعاود ملء كـفه اليمنى بينما يدير كـفه اليسرى وراء ظهره وعند ذلك يـأتـي احد اقرانه من ناحية من الطريق قاصدا الناحية الاخرى واذا وصل وراء « لبــز » تلقى منه الـكـا كـاوية وواصل سيره بينما يدور الحوار التالي بين لبــز وبائـع الـكـا كـاوية :

ـ بقداش الـكـا كاوية ؟ ـ بماية واربعين ـ هـي طايبة والا نيـّة ؟ ـ نية بالـكـش منـديــة ؟

ـ ماهيــاش منـديــة...

وبعد ان يدفع لرفاقه اربـع حفنات ليتقاسموها فيما بعد يبسط « لبـّز » كـفيـه أمام التاجر الاعمش الاخن قائلا : « ها هو أخزر تقول شـي سرقت لك حـــاجــة .

ـ اشكـو ن قـانك سنقتنـي يابن الـكـلب .

2) دق القرنيط على الارض لتغليظه وجعله رخوا .

اما بقية اعمالهم فحضور الخصام في الانهج واتباع الجنائز الى الجامع الـكـبير وتشييعها الى خارج السور والعبث بالبدو القادمين على القرية .

وبعد المغرب تراهم عن بعد « اشباحا أربعة تطوي الطريق المؤدية الى ضاحية المدينـة عـائدين الى منازلهـم » .

وخلاصة القول في قصص الطيب التريكي اننا نلاحظ عِنْدَهُ واضحة جلية نزعة الى وصف ابناء الشعب وخاصة البؤساء منهم وكـذلك ارادة استرجاع عناصر الحياة اليومية العادية المبتذلة . ومما يبدو واضحا من خلال هذه القصص ميلها الى « الفلكلورية » أي وصف ما يظن به أنه تونسي بحت شعبي بحت اختصت به حياتنا اليومية في الاحياء العربية .

مصطفى الفـارسي

أهـم المصـادر والمـراجـع :

— مجموعة مجلة « الفكـر » تجد فيها عدة قصص قصيرة للمؤلف .

— مجلـة « التجـديـد » (السنـة الاولى . العـدد السابـع . اكـتوبـر 1961 ص : 53/48) حيث تجد قصة « تطهيـر الفتاتيش » .

— مجلـة « ابـلـة » (I.B.L.A.) عـدد 104 سنـة 1963 حيـث قـدم الاب « لولـون » (Le Père Lelong) المـؤلف وترجـم له الى الفرنسيـة قصـة « تطهير الفتـاتيش » بعنـوان « Le Chant du Coq » (أي صيحـة الديك) .

— وقد علمنا اخيرا ان مصطفى الفارسـي حصل على نصف جائزة « عـلي البلهوان » لقصة مطولة لم تنشر بعد وعنوانها « المنعرج » وحصل على النصف الثـانـي محمد العروسـي المطوي .

واليك بعض النتف من قصصه :

— « يوم عيد » (الفكر سنة 5 عدد 6 — مارس 1960 ص 28/25) قصة « بركة » امرأة « بابا مفتاح » تقدم على سرقة خبزة يوم عيد لسد رمق اطفالها وزوجها — تحليل نفساني لترددها امام السرقة ولدفع الجوع اياها للسرقة .

الموضوع اجتماعي معروف اذ سرقة الخبز مما تكاثر تناوله في قصصنا .

الاسلوب : لغة واضحة تستعمل الدارجة بين قوسين .

فقرة من المقدمة : « تمر بك في كل يوم... أسراب من المتسولين فلا تعير احدهم اهتماما... فلقد جرت العادة في بلادنا ان يطلق الناس على هذه الطبقة البائسة المنكوبة اسماء تشين الكلاب... فمن هؤلاء من يقنع بمصيره ومنهم من ينكر على البشر قسوتهم وسوء معاملتهم ويدعو الى الثورة والانتقام... » .

— « من يدرى... ربما : » (الفكر سنة 7 عدد 5 فيفري 62 ص 18/12)

شاب وشابة يتعاشقان من شباكيهما بعمارتين متقابلتين . ولزيادة عدم الاتصال تقرر بناء عمارة بين العمارتين رمزا للاحالة والمنع .

حكاية فيها نصيب لا بأس به من خفة الروح والملاحظ أنه يجتمع في هذه القصة بقايا العقلية الخجلة العربية وجديد العقلية العصرية فان البطلين من مستوى اجتماعي لا بأس به ويعيشان حياة عصرية ولكن تصرفاتهما فيها شيء من مسحة الشرقيات والاسلاميات .

وصف الشاب توفيق ينظر الى هند من النافذة ويتعلل بسقي نباته :

« وسال الماء ونزل بغزارة على راس احد المارة كان هو ايضا يسبح في بعض احلامه فبسط مظلته ونشرها على رأسه وتمتم في حسرة طويلة... ايه ربي يرحمنا لكن الصيف ايضا رحمة » .

الخاتمة سارة اذ يتزوج العاشقان .

— « النفحة الشافية » : (الفـكر سنة 8 عدد 1 اكـتوبر 62 ص 21 / 32)

قصة طبيب سحار يطبب النساء العاقرات بالقرية ويبيت معهن الليالي الـكـافية لبروز الجنين في احشائهن.

الاسلوب : يخلط في الحوار بين العامية والفصحى

الموضـوع : معـروف متـداول ، التجـديـد في اقحـام شخص الطبيب العصري ومقاومة هذا للشيخ مبروك المشعوذ.

ثمة شيء من البراعة في الوصف ومن حين الى آخـر النكـتة البارزة :

«كان في ثيابه القذرة من الرقبة الى الاطراف اشبه ما يـكـون باليهودي التائه اسحاق.... لا يشبع من مشـي ولا يملأ معدته أكـل... ولنهمه هذا سماه بعض الخبثاء في القرية « الشيخ دجاجة ».

وتنتهـي القصة بـانتصار الطبّ العصري ومغادرة الشيخ القرية يحمل قفته وبعض متـاعه قائـلا : « لقـد وجبت هجرتـي اذ طغـى الـكـفر عـلى العبـاد وتنكـرت لي الاكباد .النفحة الشافية لا تمر على هذه الديار بعد اليوم ».

— « تطهير الفتاتيش » : (التجديد : س 1 اكتوبر 1961 العدد 7 ص 53/48)

قصة رمزية تَخَيَّل فيها المؤلف حَربا بين الفتاتيش وهـي تلك الآلات الحديدية ذات الاصابع المعقفة التـي نستعملها في تونس للبحث عن الدلاء اذا سقطت في المواجل والابار.

ويبدو ان الرمز يشير الى ما وقع في الـكنغو من حرب بين قوات الاستعمار والشعب الـكـنغولي والى دور الامم المتحدة و « همرشولد » وهو مشخص في زي الديك

الجو ملحمي نوعا ما فيه نفس وقوة حاسة:

« عندما يجن الليل ويحن الاطفال الى أسرتهم.... عندما يطغى الظلام يا صديقي على البيوت ويعم السكون تهتز الفتاتيش في اماكنها وتغادر مساميرها في صمت حتى لا توقظ الاطفال. وما هي الا لحظات حتى تهجر الجدران تنساب كالثعبان في حفيف يشبه الاوراق عِنْدَما تهب الريح ثم تخرج من البيوت قاصدة اسوار المدينة فتتسلقها مستعينة باظافرها وكل حلقة في رأسها هذا عين براقة تهديها السبيل. ثم تنزلق من على السور الى الشوارع الخلفية في نفس الهدوء ونفس الدبيب.... يقال يا صالح ان الفتاتيش عندما تنتهي الى الصحراء تصطف جيشين هائلين فتاتيش الفقراء من جهة وفتاتيش الاغنياء في الصف المقابل ويحتدم القتال وتختلط اليد باليد والمخلب بالمخلب.... وما هي الا لحظات حتى يمتليء السهل نارا ودويا واذا اطنان من الحديد في قعقعة تنذر شرا اصابع تبتر وعيون تفقأ وايد تقطع في قسوة وانين... الى ان يطغى على السهل نور الصباح وعندها يا صالح يفترق الجيشان فَإذا الارض وراءهما غبراء يكسوها الصدأ جريح يجر اذياله الى السور يتسلقه من جديد في عناء والم هذا مبتور الرجل وذاك خلف في الميدان اصبعه أو يده أو اذنه أو أنفه كل يجر اذياله الى السور. ثم تَلْتَحِق الفتاتيش ببيوتنا نحن البشر وتصعد الى جدرانها والدم يقطر من جراحها والعَبَرات تنزف من عيونها إلى ان تلتحق بمساميرها فتهدأ العاصفة » .

الرموز :

1) تداخل الموت والحياة : الصرار ميت ولكنه حي بالنمل التي تجره فتبعث فيه الحركة . المعجزة ممكنة في قلوب الاطفال .

2) الصدمة الناتجة عن خرق المألوف : فتاشة الجيران تستعمل للبحث لا عن دَلْوٍ من الدلاء ولكن عن فتاشة اخرى هي فتاشة ام صالح .

3) تطاحن الطبقات الاجتماعية : الفتاتيش تصطف صفين . فتاتيش الفقراء من جهة وفتاتيش الاغنياء في الصف المقابل .

4) تطهير الماء لـكـل شـيء : الفتاشة التـي سقطت في البئر طهرها الماء .

5) السعـي الى التهادن واقرار السلم في المجتمع : يتمثل ذلك في صيحـة الـديك .

وقد استفسرنا المؤلف نفسه في شأن رمزية هذه القصة ومعانيها الخفية فقدم لنا الايضاحات الجزئية التالية :

قال انه بدأ كتابة القصة سنة 1952 أي في عهد الاستعمار واراد ان يثبت فيها بصفة رمزية الحرب القائمة بين الشعوب المستضعفة وقوات الاستعمار الطاغية أي بين الضعفاء الفقراء والاقوياء الاغنياء. ثم انه رجع اليها اثناء حوادث الـكـنغو ابان استقلال هذا البلد والانتفاضات التـي تبعته. فصور « همرشولد » في صورة الديك الذي يدعو المتحاربين الى الهدنة فِـي الصباح كأنه يريد ان يتفاهم الـكـنغوليون فيما بينهم الا ان ذلك كان يقع بدون جدوى. وقال المؤلف ان الطفل في هذه القصة يمثل المجتمع الطاهر الذي لم تدنسه الحرب والمصادمات الاجتماعية وقال انه اخذ فكـرة تطهير الشـيء بالماء من القرامطة ومن مذهب « الفرانمسونري » (Franc-Maçonnerie)

محمـد رشاد الحمـزاوي

أهم المصادر والمراجع :

1) القصص :

— « طرننو : (الفـكـر ماى 1959)

— « تـعيـش وتـربـي الـريـش » : — التجـديـد — عـدد 5 - 6 جوان — جويلية 1961

— « حياة » : (الفكر ماي 1962)

— « بودودة مات » : نشر منه جزء أول بالفكر ثم نشر على حدة : نشرته الشركة القومية للنشر والتوزيع 1962.

— « داده فاطمة » : (الفكر فيفري 1964).

2) دراسات وتراجم

طرننو : ترجمها الى الفرنسية الدكتور محمد فريد غازي في مجلة : « Orient » (الثلاثة اشهر الاخيرة من سنة 1959) ونشرت هذه الترجمة : « Faïza » (افريل 1960) ونشرت ترجمة الى الفرنسية اخرى بكتاب « مختارات من الادب العربي المعاصر »
(Anthologie de la Littérature Arabe Contemporaine. Le Seuil. Paris 1964)

— نبذ من « بودودة مات » : ترجمها الاب لولون (Le Père Lelong) بمجلة « ايبلة » (I.B.L.A.) عدد 102 سنة 1963 / 2 ص .139 / 144.

— لمحة عن حياة المؤلف ومنهجه : الاب « لولون » : نفس المرجع ص. 137 / 138.

واليك تقديما لبعض قصصه مع الاستشهاد ببعض الفقرات منها :

— « طرننو » : شخصية من « بطحاء تربة الباي ». وهو ضعيف « وكلما ازداد يوما ازداد ضعفا كأنه يأكل من نفسه » « شغله راحة وفراغ وتطفل وقتل وقت »

وثمة اشخاص اخرون هم « حمادي الفطائري » و « عبد الستار الروفلين » « ومنصف جامس كاني » وجماعة من « القزدارة »

ثم يقع ضجيج :

« يا طرننوهاي »

فيصيح طرننو صيحة « طرزانية » : « هوي! هوي! هوي! »

ثم يأتـي وصف للعب الـكـرة : « لا ينبس طرننو ببنت شفة الا شتم الله »

ومشهد حب : « تجاسر على اسمهان فقالت له :

— اذهب انت لا ترض بيك لا عزوزة ولا حتى بهيمة ».

ثم هجوم على « الترامواي » والملعب البلدي بالبلفيدير. وغناء لجمعية الترجـي الرياضـي: « يا ببح يا ببح! الشربة وحدة وحدة! » وهـي العبارات التـي يلهج بها مناصرو الترجـي احتفاء بفريقهم. ثم شارك طرننو في الحركـة الوطنية وخرج في المظاهرات : « فخرج من منزله واتبع المظاهرات من بعيد وهو صامت ثم اخذ يندمج فيها شيئا فشيئا حتى وجد نفسه في مقدمتها يهتف مع الهاتفين ويرمـي الحجارة ». ثم جاء الاستقلال وذهب الاصدقاء وانعدم اللعب بالـكـرة فاصبح حمالا.

الطريقة كـما نلاحظ شبيهة بطريقة الطيب التريـكـي فهذا المشهد من حياة التونسيين في الاحياء الشعبية مشهد حـي لذيذ رغم ما اختص به احيانا من نزعة الى الفلـكـلورية.

— « تعيش وتربـي الريش » :

قصة بدوي يقدم الى تونس باحثا عن شغل : « نايه ماشـي لتونس ماش نخدم » فينتهـي به المطاف الى « باب عليوة » حيث يهرسه احد السكرى بعصاه فيتركـه ملقى على السكـة الحديدية بلا شعور ويتابع طريقه مترنحا منشدا : » « اتعيش وتربـي الريش وتاكـل الـكسكسـي والبتشيش »

وفي القصة عدة فقرات تنم عن دقة الملاحظة وقدرة على تقديم الاشخاص وابراز نوعتهم البشرية:

يقول البطل لامه: « اللي ما يهربش من الجوع الجوع ما يهربش منه » فتجيبه متوسلة: « يا وليدي نحيا ونموت جميع لو قدر ربي نموت نايه » ثم تجتمع العائلة لتوديعه. خالته و « رأسها يبدو رأسين من كثرة الخِرَق التي تراكمت عليه » وعمه محمود « الذي شارك في الحرب العالمية الاولى... يسمي نفسه (كبران السمن)... ويحكي عن المرأة الاوروبية قائلا: انها بيضاء حمراء جير ودم كالعلم التونسي » وسي علي المؤدب الحشائشي « الذي كان يعلم القرآن اطفال الجهة فيطل عليهم يوما ويغيب عنهم اياما ولا يعود الا سكران نشوان لا يفرق بين الابيض والاسود ». ثم يشرع بطلنا في السفر بعد ان وصاه عمه « كبران السمن » قائلا: « اذا عرفت بنية خمورية اقرصها واتفكرني » فيتتبع السكة الحديدية ويستعين على الطريق بالغناء الشعبي وتلتقطه امرأة أوروبية: « مدام قبريال » في سيارتها فتهبه خمرا وخبزا وجسمها أيضا. وعند وصوله الى العاصمة يستفيق من احلامه فيصيح — أبّـي. أبّـي. ما اكثر هالشيء! يعطيها سخطة هذي تونس! ثم ينزل عند بعض المعارف ويخرج فيجوب احياء العاصمة الشعبية: « برج علي الرايس » و « باب عليوة ». والبورجوازية: « منفلوري » باحثا عن الشغل يائسا منه: « فظن يوما ان الشغل ليس من حظه فكأنه جمال أوذكاء يحظى بهما جنس معين من الناس. » حتى عثر فيه السكران فقضى على احلامه.

هذه القصة كما هو ظاهر توفرت فيها شروط الفن توفرا ملحوظا فهي وان كانت واقعية اجتماعية قد نبذت في اكثر الاحيان النزعة الفلكلورية وحاولت النفاذ الى اعماق نفس هذا الرجل والى تصوير منزلته الانسانية. والعمل الفني ظاهر فيها ايضا لما ادخله صاحبها على الاسلوب من حياة وحركة وغزارة ألوان وخصوصا من لغة دارجة جهوية كان بها عليما.

— « باب العرش »

قصة أسود خادم في احدى دور الاغنياء يحلم بالمساواة الاجتماعية فيحاول الوصول اليها عن طريق استغلال انفتاح باب العرش. فيعيش في الخيال دقيقة من السعادة ثم يذوب الطلسم فتعود الامور الى مجاريها الطبيعية.

وفي هذه القصة يظهر عنصر آخر من عناصر قصص الحمزاوي وهو اضفاء جو من اللاواقع الغريب بل ومن السحر العجيب على قصصه. وكذلك تتأكد نزعته الى معالجة المَسَائِل الاجتماعية معالجة تعتمد اهم التناقضات الموجودة في مجتمعنا كالغنى والفقر والظلم والعدل...

— « حياة »

قصة اطارها حوادث وتتلخص في حيلة نظمها التونسيون لرفع الاسلاك الشائكة الفاصلة بينهم وبين المظليين. ومن هذه الناحية فالقصة تنتسب الى نزعة أسميناه بالحماسة الا انها تمتاز بكيفية في الطرق طريفة وعمل فني اصيل.

فحياة اسم البطلة القادرة على الاتيان بالاعاجيب وخاصة على جعل جميع الرجال يخضعون لحبها ويذكرون انهم عرفوها من قبل وشبت بينها وبينهم علاقات غرامية شديدة. واكبر ما تمتاز به القصة هو ذلك الجو المفعم بالعجيب السحري الذي اشرنا اليه والذي يظهر في الفقرات التالية:

— « سلفنا 15 ميتا من المستشفى — نحن نستطيع ان نحيي الاموات. أنا احييهم بعيني الخضراوين — هل سمعت احدا يكح؟ — لا لم اسمع ذلك — لقد خيل اليّ ان ميتك قد كحّ — لعله مات وفي نفسه كحة ».

— أتريد ان تتركهم (أي الـ 15 ميتا) للمظليين؟ انهم سيقتلونهم — هل رأيتم ناسا قتلوا موتى؟ — هؤلاء سَيَسُنُّون السُّنة .

— « بودودة مات » : قصة جماعة من الاطفال اطارها قرية تالة في حياتهم اليومية. فيها عدة مشاهد متنوعة حاول المؤلف الربط بينها بفكرة التضامن. فهؤلاء الاطفال يحاولون ايجاد مقدار من المال لتخليص « بودودة » من السجن. وقد رمته السلط بها لاجل سرقة خبزة (دائما سرقة الخبز !.) وقد يعتبر هذا الانتاج تابعا لنوع الرواية (أي Roman) وذلك لطوله النسبي (155 صفحة) ولكن مؤلفه نفسه قال عنه انه مجرد قصة قصيرة زاد عليها وغذاها بعدة مشاهد ويقول « الاب لولون » في فصله المذكور عن هذه القصة: ليس « لبودودة مات ».... لا كثافة الرواية الكبيرة ولا مقاييسها وعبثا يبحث الانسان فيه عن تصوير عميق للانسان التونسي أو للمجتمع التونسي المعاصر . وانما هو بالاحرى لوحة حية ملونة تصف الحياة اليومية في قرية كبيرة تونسية بكتّابها وسوقها ومقاهيها« وأطوكارها » وبطحاء بلديتها. ويتحرك في هذا الاطار.... اشخاص هم « المدّب » والبراح وتجار السوق ومدام « مرتيني » صاحبة النزل الوحيد بالقرية والمعلم وزوجته الفرنسية وخصوصا الشبان: « محمود واصحابه ».

وما زال رشاد الحمزاوي رغم اشتغاله بتحضير اعماله الجامعية مغرما بفن القصة ضاربا فيه بسهم مما يبشر بخير لما توفر عنده من اجتماع القدرة على الملاحظة الدقيقة واتقان اخراج قصصه في اسلوب يسعى الى الطرافة وينالها في كثير من الاحيان.

البشير خريف

— أهم المصادر

1) « نخّال بيّه » (أي نخالة للبيع) : اقصوصة صغيرة قال لنا المؤلف إنها أول أقاصيصه على الاطلاق وهو لا يذكر أين نشرت بالضبط وانما يرجح أنها صدرت في صحيفة « الزمان » سنة 1936.

2) « ليلة الوطية » : صدرت بجريدة « الدستور » الاسبوعية (1937)

3) « افلاس أو حبك درباني »: (الفكر : السنة الرابعة الاعداد 3و4و5)

4) « النقرة مسدودة »: (الفـكـر : عدد ديسمبر 1959)

5) « خليفة الاقرع »: (الفـكـر : عدد اكـتوبر 1960)

6) « برق الليل »: صدرت أولا بمجلة الفـكر تباعا (ديسمبر 1960 وجانفـي وفيفري 1961)

ثم صدرت على حدة سنة 1961 (طبع الشركـة القومية للنشر والتوزيع) في 148 صفحة من القطع الثماني الصغير.

أهم المراجع :

1) محمد فريد غازي : فصل باللغـة الفرنسيـة صدر بمجلـة « Orient » في عـــدد الثـلاثــة اشهــر الاخيــرة مــن سنــة 1959 بعنـــوان :
« La Littérature Tunisienne Contemporaine »
أي : « في الادب التونسـي المعـاصر » . ويحلـل فيـه صاحبـه فيمـا يحلـل قصة « افلاس » .

2) محمد فريد غـازي : حول «افلاس» أو في مشاكل القصة. فصل صدر بمجلة الفـكـر (ماى 1959 ص . 49/40) وفيه تحليل نقدي ضاف متعدد الجهات لقصة « افلاس ».

3) « الاب لـولـون » (Le Père Lelong) : فصـل بـالفـرنسيـة صـدر بمجلـة « I.B.L.A. » عـــدد 101 سنـة 1/1963 ص. 47/43 بعنـــوان :
« Aspects de la Littérature Tunisienne Contemporaine »
أي : « مظاهر من الادب التونسـي المعاصر ». وتجد في هذا الفصل نبذة عن

حياة البشير خريف ومنهجه ثم ترجمة بعض المقتطفات من « برق الليل » الى اللغة الفرنسية.

4) كتاب :

« Anthologie de la Littérature Arabe Contemporaine. Le Seuil. Paris 1964 »

أي : « مختارات من الادب العربي المعاصر. باريس 1964 » حيث تجد في الفصل المخصص للقصاصين التونسيين (ص. 342/354) ترجمة صفحة مختارة من قصة « خليفة الاقرع » بعنوان : « Jeux d'Eau » أي « ألعاب مائية » .

تقديم بعض قصص البشير خريف :

1) افلاس أو « حبك دربانـي » (1)

بطل القصة شاب في الثانية والعشرين من عمره ثار على التعليم الزيتونـي فرسب مرارا في امتحاناته ثم طلقه واشتغل كـاتبا لمحام بشارع باب بنات وتردد على الاوساط المسرحية بالعاصمة ناقدا ادبيا وممثلا. وهنالك تعرف الى ممثلة متزوجة ذات ماض خليع فعشقها وهام بها وبعد مغامرات عديدة افترقا اذ التحقت الممثلة بالجزائر لملاقاة رجل آخر كـانت تحبه.

ويقول المؤلف ان أهمية هذه القصة ليست في حوادثها وانما هـي في التحليل النفسي للاضطرابات العاطفية التـي كـانت تهتز لها انفس الشباب الثائر في بعض الاوساط التونسية الخاصة حوالـي سنة 1925.

وقد جاءت هذه القصة زاخرة بالحوار المكـتوب باللغة التونسية الدارجة الحية المؤثرة حتى ان القسم الاخير منها كـان اشبه بالمسرحية منه بالقصة.

وتمتاز « افـلاس » في نظرنا بصدق التصوير لاجواء المسرح التونسـي في ذلك العهد وقد عرفها المؤلف معرفة شخصية. وكـذلك بطريقة في وصف

(1) يقول التونسيون « فلان طاح حبك درباني » (من الدرب) أي سقط في الاستهتار .

المجتمع بدون التقيد بالاعتبارات الاخلاقية التي لا صلة لها بالفن القصصي البتة. وهو امر ما زال قليل الوجود في القصة التونسية واليك نتفا من القصة نسوقها دليلا على ذلك:

سليم البرجـي البطل « سئم التعلم وطوله وأصيب بأزمة : « التصتيـكة » ولم يعد يفهم شيئا من خصومة المعتزلة وأهل السنة وبين البصريين والكـوفيين » . وهو لما اصبح كـاتبا لاحد المحامين بشارع باب بنات كـان يزور محكمة الدريبة احيانا » فلا يحرم نفسه من مغازلة الشابّات المتقاضيات . « وفوزية نعيم البطلة ظهرت في فرقة النهوض التمثيلـي » كـما تظهر الفقاعة بعد المطر. « جاء بها الشيخ اسماعيل الصدراتـي المدير الفنـي للفرقة بعد ان قابلها في احدى مطاعم » سيدي مردوم « ووصف مشهد مقابلتهما هذه وصفـاً لذيذا حيًّـا ينـمُّ عن طريف الحوار الصادق المباشر :

« لم تبق الا هـي ورجل يستفرغ بقية زجاجة وأمامه لحم مشوي. فلم يـكـن مناص من التقاء عيونهما. أطال الرجل النظر اليها وزمجر.

اجارتنا انا غريبان هاهنا وكـل غريب للغريب نسيب.

تفضل والا نجـي بحذاك. قعدنا عاد ما ونونسو بعضنا خير.

واخذ معه ما يصلح في مائدته واقبل عليها:

— ما تتحرجشـي منـي. هاك تشوف.منيش وليد صغير هانـي شايب مهلوك. كـان ظهر لك نونسك ونـكـملو نشربو ما كـتب وتشكـيلي بهم قلبك . كـان ظهر لك نشيعك وين تحب. كـان ظهر لك نمشي على روحـي.

— اقعد مرحبا بيك. »

وان مشهد مـكـاشفة سليم فوزية بحبه لاول مرة وهما في « كـروصة » تجوب شوارع العاصمة في ليلة من ليالـي الشتاء 1925 لمشهد حافل ايضا

بصدق المشاعر والتصوير . يقول المؤلف متحدثا عن سليم : « فاقترب منها وتحسس هل من نفور وضمها وقبلها وانتظر....

— هكه سليم استنى. رد بالك من الحمير. يمشيش يبلحطلك وجهك....

واخرجت منديلها وبللت طرفه بريقها واخذت تمسح له. ولما خرجت « الكروصة » الى ضوء « باب الجزيرة » تركت له المنديل وهمست :

— تحت شفتك ما زال شويه. »

وللبشير خريف في هذه القصة قدرة على وصف بعض المواقف الحياتية البحت وخصوصا في ميدان عواطف نوع من أنواع المرأة التونسية وسيرتها في علاقتها الجنسية بالرجل. ويظهر ذلك في الفقرة التالية التي يصور فيها الكاتب صلات فوزية نعيم برفاقها في الفقرة التمثيلية. يقول : « تأتي النادي صحبة الشيخ سافرة وتشارك في التمارين بمرح ونشاط ويلذ لها اللعب بعواطف الرفاق تبتسم لهذا وترمقه بعينين حلوتين تتركانه يحلم وترجو ذاك ان يمد لها شربة ماء بنغمة توسل واغراء لا تقاوم.... تضمخ صوتها بالحنان والرقة وتبالغ في لثغتها لتسأل أتفه الاشياء : ما هي الساعة.... أو : « شبيه وخيتي حسونه عاقد عبستو؟ انت غضبان؟ نشطح للك شويه باش تزهى؟ »

وللقصاص ايضا باع ملحوظ في وصف بعض المشاهد الشعبية التي يراها كل تونسي مرار في حياته اليومية. من ذلك هذا الوصف الشيق لقطار لا يمكن ان يكون الا تونسيا أو على الاكثر قطارا «متخلفا » . يقول :

« انتظم دق القطار في « (دمتين وتكة ») مما يساعد على التناعس. وكان تجاه سليم رجل بدوي نحاسي البشرة في جبة صوف ولحفة وسخة اخذه النوم فأسلم رأسه الى متكيء المقعد فبدت رقبته كأنها حزمة عروق وكأن بوجهه شحوب الموت وسكونه. وقد انفغر فمه وسال منه اللعاب وبجانبه

سيدة ملتحفة بحائك بلدي لها عينان جميلتان تمنى سليم لو كـانت بجانبه عوض اليهودي المنهمك في قراءة الجريدة. وكـأن نفس الخاطر جال في نفسها هـي ايضا لما كـانت تكـيل للنائم من نظرات الاشمئزاز. وفي مقعد القسم الآخر اسرة بدوية ذات اربعة صغار: الاب يوبخ المرأة ويزجر — بدون جدوى — الاولاد ليتـأدبوا والام تطعم اصغر أولادها فولا مطبوخا في الماء تأخذه من علبة قصدير وتدس القشور تحت المقعد. »

فالقصة كـما ترى على ما جاء فيها من بعض العيوب الفنية التـي تجد اكـثرها مذكـورا في فصل محمد فريد غازي المنشور بالفكـر قد امتازت بصفات حميدة قلّما توفرت الى الآن في القصص التونسـي. وأهمها صدق التصوير وأصالة الاحاسيس ووصف الحياة التونسية كـما هـي بمفاسدها ومحاسنها بدون مراعاة الجانب الاخلاقـي ولا توخـي الوعظ والارشاد كـما يفعل الـكـثيرون.

ومن صفاتها البارزة ايضا استعمال اللهجة التونسية والحية النابضة في الحـوار وحتى في السياق والاعراض في اللغة العربية الفصحى عن محـاكـاة الاساليب القديمة واتخاذ المحسنات البديعية التـي أكـل الدهر عليها وشرب.

وهـي وان لم تعجب الـكـثيرين من القراء المحافظين فقد نالت رضى عدة ناقدين ورجال فكـر في تونس.

2) « خليفة الاقرع » (الفكـر : اكـتوبر 1960)

— الموضوع :

هو وصف مشاهد من حياة أولائك الناس الذين يـكـاد لا يخلو منهم حـي من احيائنا الشعبية والذين يعيشون عالة على المجتمع. انعدمت فيهم الـكـفاءات ولم تواتهم الظروف الاجتماعية فانتحلوا جميع الاعمال الوضيعة للارتزاق.

وهذا النوع من المواضيع مطروق بكثرة نسبية في القصة بتونس من ذلك على سبيل المثال قصة « كلاب السوق » للطيب التريكي (الفكر : جانفي 1956) و « طرنتّو » لمحمد رشاد الحمزاوي (الفكر : ماي 1959).

بل وأكثر من ذلك فان هذا النوع مطروق منذ القدم وخاصة في المقامة البغدادية والمقامة الموصلية وكلنا يذكر قولة البطل الشرعية في أولى هاتين المقامتين :

اعمل لرزقك كل آلـة لا تقعدن بكل حالة

والنزعة العامة في قصة « خليفة الاقرع » نزعة واقعية اجتماعية تصف الحياة الشعبية في الحي كما هي بما فيها من مظاهر التعاسة والبؤس دوما ومظاهر المرح الساذج أحيانا.

ــ الاشخاص : خليفة الاقرع : نعرف انه « اقرع » وأنه مع ذلك لا يخلو من جمال الجسد : « وعرى صدرا معضلا أملس تقاطيعه حسنة متناظرة قد صهرته الشمس ». وهو شخص مرح له من الخبث القدر اللازم ليمكنه من العيش عالة على الآخرين. وقد تحالف مع العم « بوبكر » المغربي السحار على تسخير الحي لاهوائهما. فهو يوصل القفاف الى دور اصحابها ويلعب مع الصبايا العابا مسترابا فيها وهو يحب الاكل ويهوى مغازلة البنات ونيل غرضه من النساء أحيانا. وهو يستعمل قرعه جوازا يدخل به بيوت جميع الاسر ويقابل بفضله الحريم من بنات ونساء ولا يقيم وزنا للاخلاق كبيرا اذا رآها تصادم مرتزقه.

أما العم « بوبكر » المغربي المشعوذ فهو نوع آخر ممن يعيشون عالة على الآخرين. ونجد في القصة وصفا جسديا لهذا السحار أطول مما وجدناه بخصوص « خليفة » .فالعم « بوبكر » كان شاربه خطا رقيقا فوق شفتيه أمر عليه ماكينة المزين وعفا عن طرفيه فتدليا على جانبي فمه كجناحي

خطاف، وجنتاه بارزتان وحنكاه غائران يَنْتَشِرُ عليها كل مغربي محترم نفسه عارضان خفيفان عثنونه طويل هزيل مخطط بالشيب »

وهذا الرجل سكير غشاش لا يحيا الا لمخادعة الناس واستلاب أموال الضحايا المساكين الذين يقعون في أحابيله.

— تركيب القصة:

هو تركيب محكم الحبك فيه البداية من نهاية القصة لزيادة التشويق: فخليفة يشعر في أول القصة بالتعاسة وذلك لحدوث شيء في حياته يجهله ويتطلع اليه ولن يعرفه الا في نهاية القصة وهذا الشيء يصادم القارىء مصادمة حسنة لعدم توقعه اياه ولغرابته وطرافته. فخليفة يتوجه الى المغربي السحار ويدور بينهما حوار طويل يعيب كلاهما الآخر بايثاره لنفسه ويستعرض فيها خليفة عدة قصص جزئية استعراض الذكرى والرجوع الى الوراء ثم يبوح للمغربي بسبب تعاسته وهو أنه قد شفي راسه من القرع قائلا:

« عم بوبكر براس اللي يعز عليك اعمل لي حتى دمالتين والا ثلاثة ».

— بعض فقرات من القصة :

وللبشير خريف في هذه القصة كما في « افلاس » باع لا بأس به في تصوير بعض الاجواء والمواقف التونسية الصرفة ويظهر لك في الفقرات التالية المتعلقة بالمظهر الجنسي الذي بدا لنا طاغيا في هذه القصة وكثيرا عند البشير خريف بصفة عـــامة.

— عبث الصبايا بخليفة ولعبهن معه :

« لقد دعته النسوة في ذلك اليوم ليملأ لهن الماء من الماجل لغسل ثياب العروس. « رفيقة » والحقيقة ليضحكن منه.... ملأ لهن دلاء ونضحن عليه

الماء واشتد سرورهن.... لما رفع غطاء النقرة يملأ منها مباشرة ويصب. وعلا الفرش دلكا برجليه فأعجبن بهذه الطريقة وانضممن اليه في رقصة صاخبة .... ثم انهن تغامزن عليه وأوقعنه على الارض زاعمات أن دور غسله هو قد جاء.

فكان سعيدا بمصارعتهن سعيدا بمقاومة جهدهن اللين اللطيف : فيحتمل فوزهن ويمتع النفس بالنظر الى المحاسن الخفية والارفاغ. تملص مرة وحبا وأمسك محرزية من حيث لا ينبغي فدفعته فوقع في الماجل ففجعن وجثون يطللن عليه ويندبنه.... ثم تعاون على اخراجه بالحبال والسلوم... وحاولت حنيفة الخبيثة ان تخطف عمامته فتكشف قرعه... فجسسنه من مواضع شتى وخاصة محرزية فانها أمرّت يدها على جسمه بشره لا يقل عما كان يفعل لو كان الجسم جسمها واليد يده.

— جو « القائلة » التونسية فوق السطوح ووقعها الشديد على الجسم والروح :

يكتب البشير خريف في هذا السياق ما يلي :

وجد فوشيكة من العاشوراء الماضية وكرة طاشت للصبيان وقطعة نقود صغيرة. أزال السحالة بيده واصلح لنفسه مجلسا بين السيكران والاقحوان الجالي.... وكانت الابنية البيضاء تنوء تحت شمس لا ترحم : المآذن والقباب ومربعات اواسط الدور وباقات اشجار نفذت من بين الجدران وسطوح مهجورة بَرْصَاء قد أكلها الحشيش وكأن الحياة قد غادرت المدينة فرقص فوقها ضياء زئبقي.... تحت سماء لا لون فيها ومن حين الى آخر ينفخ بائع « الكريمة في زمارته ».... فيقوم ضجيج الصبية الذين أفلتوا عن امهاتهم ثم يعود الصمت كاملا كثيفا ».

الاسلوب :

أسلوب البشير خريف في السياق سهل بسيط يبلغ الى درجة الكلام العادي أحيانا على أن بقايا من نزعة استعمال الغريب من الالفاظ ما زالت ظاهرة في هذه القصة نحو « عثنـــون »

و « ارفاغ » و « اسحم »... الخ مما يدل على ان المؤلف لم يتلخص تماما من جبروت اللغة الفصحى العتيقة. ومما يلاحظ ايضا في لغة السياق عنده هو انها وان كانت في صميمها عربية فصحى حديثة فانه قد ينزلق فيها من حين الى آخر كلمات دارجة.

الا ان تجديد القصاص الاسلوبي يظهر أكثر في نظرنا في لغة الحوار أي في اللهجة التونسية الدارجة المتصلة بحياة متكلميها اتصالا وثيقا . واليك بعض الشواهد :

1) « ابتسم الدقاز ابتسامة صفراء وأجاب : (حوار يدور بينه وبين « خليفة »)

– يعطيك عصيدة كان انت تعرف تشري. أماني اشريتو وحدي.

– وكيف نجيب لك عشا الموتى باش تقرا عليهم تبعثني نشري لك الشراب هي تجي قراية بالشراب؟

– بركاك يا ولدي ما تكفرشي هذاك الخمر نصبو في بيت الماء لبابا جاطو.

– بابا جاطو يحب كان « النحلي البارد » ؟ والطفلة الحبلى اللي جبتهالَكْ باش ترمي. سقّطت لها صغير وعملت لها صغير آخر....

2) حوار بين خليفة وأرملة راودها عن نفسها فاظهرت التمنع تدللا ورياء:

– اش ثمة على أمُّك. ينعل والدين بوك. توّه وليِّ عفريتة سيدنا

اسكندر... أنا ماشي ماشي وغدوة باش تطردوني انا نهردها الليلة وغدوة نِصْبَحْ في بلاد اخرى .

– يا عماك وصماك والله توه نقول ووه! ونفزّع لك الجيران... ابعد على ما اخبث عينيك يعطيك عمى فيهم... أنا تضرّني ؟ لا يوصلك... كيف عجبتك ما خلّى ربي ما عطاني .

فالمؤلف كما ترى لا يتأخر عن استعمال لغة الخطاب اليومي عارية طبيعية دونما زخرف أو تكلف وهي والحق يقال ظاهرة جديدة جريئة في الادب التونسي.

ومن خصال اسلوب هذه القصة ايضا الاكتناز والايماء بموجز العبارة نحو قوله: « أقبلت من خلفها ابنتها محرزية ونظرت اليه (أي إلى خليفة) نظرة رجاء فأشار بالنفي فولت مكسورة الخاطر ». فبجملة واحدة عبر المؤلف عن « درام » كامل تأجج في نفس الفتاة محرزية وقد فهمت من اشارة خليفة السلبية خيبة آمالها فيما يتعلق بشؤونها الغرامية.

ومن ذلك ايضا قوله : « ومن الغد اصبحت الارملة صلوحة تطارد القط لتذر خليفة ينام ». فاستطاع بهذه الاشارة المليحة ان يفهم القارىء ان الارملة المعنية بالامر بعد عناد قوي ورفض مستميت قد سلمت نفسها لخليفة في النهاية ففعل بها ما شاء.

الخاتمة :

ان هذه اللوحة من وصف الحياة الشعبية التونسية لوحة رائقة وتتصف بكثير من صفات الجودة من حيث اختيار الموضوع وخصوصا من حيث القالب والاسلوب والواقعية المباشرة التي اتخذها المؤلف في عرض الحوادث وتصوير الاشخاص خَلقيا وخُلقيا . واحسن ختام للحديث عن هذه القصة

يمكـن ان يكـون الاستشهاد بـآخر فقرة منها وهـي قِمـتّـُها يختلط فيها الاسى وروح السخرية المريرة من نوع ما يسمى بالفرنسية: « Humour Noir »

فخليفة الذي يغامر الارامل ويعتو عليهن في اليوم المطير ويغازل الصبايا ويلاعبهن في صحون الدور ينقلب رجلا حزينا كـله الم ويأس عندما ينقطع حبل رزقه ببزوغ الشعر على رأسه الاصلع من جديد فيبـكـي لصاحبه المغربـي السحار منتحبا:

« راسـي برى.... سـي المختار ما عادش يحبنـي نقابل بناته.... والنسا ما عادش تلعب معايا ». ويتوسل اليه: « عم بوبـكـر براس اللـي يعز عليك اعمل لي حتى دمالتين والا ثلاثة ».

محمد فـرج الشاذلي

— قصة « طبيبان » (الفـكـر سنة 1 عدد 10 ص. 2/6)

قصة مهداة « الى كـل طبيب يـكـثر الحديث عن عمله الانسانـي وليس له من انسانية الا ملء جيبه » ونزعتها نزعة اجتماعية ملتزمة عالج فيها صاحبها مشـكـلة مرض الفقراء وصعوبة مداواتهم مداواة عصرية لقلة ذات اليد وغلاء الطب. ثم التجاءهم الى شعوذة المشعوذين من المتطببين السحارين.

وفي هذه الاقصوصة ذات الاسلوب المقامـي عادة فقرتان تدلان على تمـكـن ملـكـة الوصف الحـي في صاحبهما:

1) وصف ازدحام الخلق امام المستوصف الصحـي:

« فهذا رجل قد تورمت رجله وسال منه دم وقيح فربط عليها بقرطاس واخذ يذب الذباب عنها وهذا طفل قد طمس الرمد عينيه صديدا واحرقه

شعاع الشمس فأخرج لسانه يترشف ما جاد به أنفه وهذا صبي عاري العورة قد انكبت عليه امه تمسح له. وهذه عجوز قد استلقت الى الشمس واخلت لأصابعها السبيل الى جسمها فهي الى الظفر واللذة كلما ضغطت ظفرا إلى ظفر وهذا رجل شاحب الوجه غائر العينين ناحل الجسم لا يكاد يمشي كأن القبر به تقيأ وهذا آخر قد جيء به على لوحة كأنما يسار به الى القبر وهؤلاء نسوة تضاغي صبيتهن ألما وجوعا وعطشا فهن الى شبه الجنون وهذا عواء نحيب وبكاء انين ونهيق حمير.... فكأن الكون الى مأساة ».

فالواقعية والنزعة « الطبيعية » التي اشتهر بها الكاتب الفرنسي : « زولا » (Zola) طاغيتان هنا كما ترى.

2) وصف « الطبيب » السحار :

واسمه ابو حنظلة وسبيله الى معالجة حرفائه الالتجاء الى الجان وخصوصا الى واحد منهم يدعى « الشمهروس ». يقول الكاتب :

« واذا وجه مستدير قد سالت منه لحية سوداء كثة وانف شامخ قد ركبته نظارتان كجناحي طائرة وعينان قد سقطت أهدابهما فهما كدمل سال صديده وعمامة قد لاثها على مؤخر رأسه فأبدت ما كان عنده من صلع وجسم كجذع شجرة ألبس جبة صوف واذا رائحة تستقبله لا هي الطيب ولا العطر ولا الرطوبة ولا « الجاوي » ولا فساء الشيخ ولكنه خليط من كل ذلك ».

— قصة « لحن الخرافة » : (الفكر سنة 2 عدد 3 ص. 14/10)

قصة أم يضايقها صغارها الجياع فتحاول تصبيرهم بقص قصة عليهم. والموضوع متداول معروف عندنا. ومما يلفت النظر في هذه القصة بعض

التفلسف يظهر في خوض المؤلف في مشكـلة عقم المجهود الانسانـي وتلاعب الآلهة به. أما الاسلوب فدائما فصيح سلس.

— قصة « موكـب الايام »: (الفكـر سنة 2 عدد 5 ص. 20/13)

ذكـريات صبـي: فيها تحليل نفسانـي لوعـي صبـي شيئا فشيئا قوميته ثم سرد قصة اتصاله بمغربـي ثم بجزائري. ثم انكـاره لـكـذب معلمه الفرنسـي (الذي كـان يقول كـلامه: « افريقيا الشمالية الفرنسية... » وصف « الـكـدرون » الذي سبق لنا ان رأيناه في قصة اخرى لنفس المؤلف يعود هنا ايضا.

وهذه القصة اقرب الى جو المذكـّرات منها الى جو القصة.

— قصة« ألسنا أخوين » : (الفكـر سنة 7 عدد 1 ص. 66/60)

قصة اطارها الريف تغلب عليها نزعة الوصف المثالـي المتغنـي بجمال الزياتين والجامعين لها والجامعات. ثم قصة الحمار يهرب فيربط مصباح البطل نفسه الى العربة عوض الحمار ويعود الى القرية فيجد الحمار منـكس الرأس خجلا فيقدم له مخلاته ويقول له: « ألسنا أخوين؟ ».

فالقصة كـما ترى تخلط بين الواقعية والتغنـي المثالـي بها من جهة وبين الرمزية الفلسفية من جهة اخرى.

حسـن نصـر

— « الثور الذى خلفه أبـي » : (الفكـر: سنة 6 عدد 7 ص. 77/74)

قصة فتى يدعى منصورا يثور على أمه وعلى ايثارها « الثور الذي خلفه أبوه » واعتنائها بصحته وعدم ارادتها بيعه وتعويضه بمحرك.

القصة من النوع الاجتماعي النقدي الذي لا بأس به.

ليس ثمة ميل الى الفلكلوريات بل الاسلوب مباشر وقاس احيانا وهذه بعض الفقرات من القصة:

1) « وصف أم »:

« كانت أمي امرأة قاسية وقوية وكنت اخافها فكنت تراني عاجزا عن أن أصنع شيئا لانها كانت تستطيع بكل سهولة أن تمنعه عني... »

2) « التعنت »:

« ان والدك يا بني أوصاني قبل مماته بأن احافظ على هذا الثور والا أتركه يضيع من ايدينا بأي ثمن ففي ضياعه ضياع لنا ولحقلنا ».

3) « الثورة الاجتماعية » :

« لماذا أمي تريد مني أن اتبع ابي في كل شيء.... أن أكون مثله في كل شيء.... اذا كان ابي قد اتبع اباه في كل ما وجده عليه.... فأنا لا أستطيع أن اتبع ابي في كل ما خلفه لي.... لا أستطيع أن احيا حياة أبي .... لي حياتي الخاصة أحياها كما يتفق لي أنا.... ولا شأن لاى انسان أن يملي علي آراء من عنده.... حتى ولو كان هذا الانسان أبي نفسه لو انه كان حيا ».

وليس يخفي ما في هذه القصة الاخيرة من عناصر من شأنها اذا تطورت وأرهفت أن ترتفع بالقصة الواقعية عند هذا القصاص الى مستوى فني لائق بنبذ الفلكلورية وتصوير الحياة بما فيها من متناقضات قاسية.

بعض الاستنتاجات

من هذه العجالة التـي قدمنا فيها بعض ما نشر في المجلات من قصص قصيرة في تونس منذ الاستقلال يمـكـن فيما يبدو استخراج عدة ملاحظات تأليفية أهمها :

1) أن القصة أعني القصة القصيرة (من 3 الى 10 صفحات عادة) والقصة القصيرة المطولة (الى 150 صفحة) موجودة بتونس الآن ولئن رجع تاريخ نشأتها ورواجها الى ما قبل الاستقلال ببضعة عقود فأنها قد تـكـاثرت بعده تـكـاثرا ملحوظا. وان نفى وجودها من حيث الـكـم إنسان فمرد ذلك الى عدم الاطلاع .

2) ان قيمة القصة التونسية آخذة في التحرك من مستنقع الرومانطيقية الساذجة واضطرام العواطف الغرامية والحماسية البسيطة الى الواقعية الرصينة المتسمة بدرجة ما من العمل الفنـي والاتقان يمـكن اعتبارها تنبـيء بميلاد القصة الحقيقية عندنا وبدنو تطورها تطورا محمودا. وهـي في هذا تماشـي تيار الانتاج الادبـي في العالم العربـي كـما يظهر لك ذلك من قول « جاك بـارك » في مقـدمـة كـتـاب المختـارات .... « (Anthologie...) المـذكـور يصرح: « وأضف الى صراحة كـتاب الاضطراب العارم والى اندفاعات شعر الحماسة أضف اليهما الالهام الواقعـي أي الواقعية ».

وعلى أن ما نشر بتونس من قصص الى حد الآن لم يصل عادة رغم ما أثبتناه له من مزايا الى مستوى فنـي رفيع جدا يجعله يضاهـي ما نقرأه للقصاصين العالميين ولا حتى ما نقرأه لـكـبار الـكـتاب في الشرق العربـي الذين ضربوا في فن القصة بسهم مصيب مثل نجيب محفوظ وغيره.

ومما يؤكد هذا الرأي عندي هو أنه لم يظهر عندنا الى اليوم رواية واحدة طويلة وقيمة أي من نوع ما يدعى : « رومان » (Roman) تلفت النظر وتثير مشاكل انسانية « أعماقية ».

3) ان المجتمع التونسي الذي أنجبه الاستقلال لم يعره كتاب القصة في تونس الى الآن أهمية كبيرة فلم نرهم حاولوا اتخاذه مادة خاما لإِلْهَامِهِم عدا بعض الشواذ طبعا. وهو أمر يمكن تفسيره بقصر الفترة الفاصلة بيننا اليوم وبين تاريخ الاستقلال الا انه يبدو لنا رَغْمَ ذلك غريبا نسبيا خصوصا اذا اعتبرنا الاستقلال حدثا من شأنه ان ينتج عنه في المجتمع رجات وتغيرات وتناقضات جديدة تثير الاهتمام وتغذي الالهام عند الادباء عادة.

4) ان كتاب القصة وأكثرهم من غير الجامعيين وبصفة أعم جميع الكتاب الذين حرروا بعد الاستقلال هم غير الكتاب الذين كتبوا قبله (1). وفي هذا اتحاد وما وقع في بلد اخر متخلف هو المغرب الاقصى فيما يظهر من كلام محمد الصادق عفيفي اذ يكتب في كتابه « القصة المغربية الحديثة » (الطبعة الاولى – بيروت – اكتوبر 1961) ما يلي : « الطور الثالث منذ فجر الاستقلال سنة 1956 الى اليوم : وفيه عادت القصة الى المخاض والولادة ثانيا من جديد لان كتاب الفترة الثانية (أي قبل الاستقلال) طلقوها الى غير رجعة ».

وذلك في رأينا راجع الى أن كثيرا من الكتاب والمثقفين ينتحلون الادب عامة والقصة خاصة لا اندفاعا مع تيار عميق في النفس وهواية في الروح بل لمجرد القيام « بتجربة » كأنهم يبتغون اقامة الدليل على قدرتهم على تصنيف

(1) انظر بحث الدكتور فريد غازي في مجلة « الفكر » عدد افريل 1959

القصص فتراهم يكتبون قصة أو أكثر ثم ينقطعون عن الكتابة بلا عودة ويشتغلون عادة بالاعمال الادارية الكثيرة التي وفرها ما تبع الاستقلال من شغور كبير في المناصب واحتياج الى مختلف الاطارات.

وفي هذه الظاهرة دليل على انعدام العناصر الموضوعية في المجتمعات المتخلّفة التي من شأنها بعث كتاب وقصاصين وشعراء تامين أصليين لا يتصورون الحياة ممكنة الا اذا كرست للكتابة والانشاء. وهي لعمري ظاهرة خطيرة ينبغي أن يتلافاها الادباء والمؤلفون حتى يكتب للادب عندنا وفي البلدان المتخلفة عموما أن ينمو وتغزر مادته ويقوم بدوره التاريخي العظيم.

ملحق : يجد القارىء فيما يلي جداول تفصيلية لجميع ما نشر من مجلة « الندوة » ومجلة « الفكر » ومجلة « التجديد » من قصص قصيرة :

1) — الندوة

السنة	الشهر والعدد	اسم المؤلف	عنوان القصة
1953	1/1	محمود الباجي	الانفجار العاطفي
	2/2	محمود الباجي	عدالة الله
	3/3	محود الباجي	عدالة الله
	4/4	محمد المرزوقي	في وادي الحجارة
	4/4	محمود شمام	الظن الآثم
	5/5	محمود الباجي	القاتل البريء
	6/6	عبد الرزاق كرباكه	رفاس السفينة
	6/6	محمود الباجي	الجرية والصوم
	7/7	لم يمكنّي الاطلاع عليه في « المكتبة القومية »	
	8/8	توفيق بوغدير	سر الوَصِيَّة
	9/9	علي الدوعاجي	موتة العم باخير
1954	3/5	علي الدوعاجي	كنز الفقراء ترجمة عن د'انزيو
	3/5	محمد الطيب التريكي	سالم الحوات
	4/6	محمود المسعدى	المسافر
	7 و 5/8 و 6	محمد الطيب التريكي	سعيد الحمال
	9 و 7/10 و 8	حسين احمد حسين	أبو هريرة : من قصص التعليم

السنة	الشهر والعدد	اسم المؤلف	عنوان القصة
1955	1/1	محمد ذيب (ترجمة الطـاهر قيقـة)	الوطن من الدار الكبرى)
	1/1	محمد الطيب التريكي	دمـار الفقـر
	2/2	محمد الطيب التريكي	الشباب المرحوم : « سليّم الفـرزيط »
	2/2	تاج الدين المختار	حلـم أمـي
	2/2	محمد ذيب (ترجمة الطـاهر قيقـة)	كـلنا جناة (من الحريق)
1956	1/1	رشيـد دارغـوث	عهـد الـرجـال
	2/2	عيسى النـاعـوري	البـراعـم الخضـر
	3/3	عيسى النـاعـوري	المحاضرة الاولى
	3/3	زين العابدين السنوسي	فـاطمـة
	5/5	لم يمكنـنّي الاطلاع عليه في « المكـتبة القومية »	
	6/6	الدكـتـور عبـد السـلام العجيـلي	الصيد العظيـم
	10/10	رشـاد دارغـوث	متـى يعـودون
	9/12	زين العابدين السنوسي	شباب مسلم مع باريسيات حسـان
1957	1 و 1/2	ابـو العيـد دودو	نضـال

2) ـ الفكــــر

السنة	العدد	الصفحة	اسم المؤلف	عنوان القصة
السنة الاولى (1955 1956)	2	44/39	محمد الطيب التريكي	فرحة الاولاد
	3	44/29	محمد فرج الشاذلي	مصرع صالح
	4	36/32	محمد الطيب التريكي	كلاب السوق
	5	48/44	محمد فرج الشاذلي	حامل الحقائب
	6	30/28	محمد فرج الشاذلي	وحي العودة
	6	46/43	عبد الواحد ابراهم	ثمن الحصير
	7	26/24	محمد فرج الشاذلي	وحي العودة
	7	67/66	الحبيب بو الاعراس	بين المزابل
	10	6/2	محمد فرج الشاذلي	طبيبان
	10	27/22	بول بريتو (ترجمة محسن بنحميدة)	القصص البرازيلي : الرأس الثاني
السنة الثانية (1956 1957)	1	54/50	فرانسوا ملنار (ترجمة محسن بنحميدة)	طفلان
	2	14/10	محمد فرج الشاذلي	لحن الخرافة
	3	26/24	انطوان تشيكوف (ترجمة بنحميدة)	المحفظة
	4	20/13	محمد فرج الشاذلي	موكب الايام
	5	33/30	سيسيل طرماي (ترجمة بنحميدة)	الملك العابر
	8	58/48	احمد الفاني	ما ضحك من ابتسم فوه
	9	37/34	محمد فرج الشاذلي	من حديث أبي المدارك
	9	51/49	محمد منصور	أسطورة الآلهة

السنة	العدد	الصفحة	اسم المؤلف	عنوان القصة
السنة الثالثة (1957 1958)	1	77/70	عبد الوهاب ابراهم	رجل حطم نفسه
	2	63/60	محمد منصور	الساعة الذهبية
	3	21/15	عبد الوهاب ابراهم	رجل يستيقظ
	5	60/64	أبو العيد دودو	العودة
	6	63/61	ديزي كستولاني (ترجمة بنحميدة)	ذاك الرجل
	6	70/67	حنفي بن عيسى	شباب قريتنا الاشداء
	7	85/81	أبو العيد دودو	جاء دورك
	8	53/51	مرجريت بلتن (ترجمة بنحميدة)	حدود
	9	26/22	احمد الفاني	ولوع سالم
	9	46/43	الفونس بتولد (ترجمة ابو العيد دودو)	الحلم
	10	40/37	عبد الكريم بن ثابت	زغلول
	10	66/62	اقي دي موبسان (ترجمة بنحميدة)	الابتر
السنة الرابعة (1958 1959)	2	17/7	محمد ذيب (ترجمة ب ـ ابن سلامة)	السرداب
	2	32/23	أبو العيد دودو	الفجر الجديد
	3	42/27	البشير خريف	افلاس (1)
	3	57/55	الجنيدي خليفة	حنين
	4	65/48	البشير خريف	افلاس (2)
	6	79/66	البشير خريف	افلاس (3)
	7	37/36	محمد العربي عبد الرزاق	أضغاث احلام

السنة	العدد	الصفحة	اسم المؤلف	عنوان القصة
السنة الرابعة (1958 1959)	7	42/38	الطاهر وطار	صحراء أبدا
	7	49/43	وليام سرويان (ترجمة م. بنحميدة)	القاطرة 38
	7	72/54	تيبور ديري (ترجمة م.- ع. عبد الرزاق)	الفرس
	7	53/50	جواد صيداوي	البطل
	7	76/73	الجنيدي خليفة	قوارير عامر
	7	90/85	محمد منصور	مزرعة النور
	8	22/17	محمد رشاد الحمزاوي	طرننو
	8	56/52	الطاهر وطار	ممر الايام
	9	38/33	الطاهر وطار	القبعة الجليدية
	10	32/29	علي الدوعاجي	أم حواء
	10	47/43	محمد حنيفان	بطولة
	10	65/64	رضا القراطي	التافهون
	10	70/68	رشيد الغالي	يقظة
	10	78/71	الطاهر وطار	زنوبة
	10	83/80	حسن نصر	ولدي الى الابد
السنة الخامسة (1959 1960)	2	36/34	عبد الله الركيبي	وجود.... ولكن
	2	93/91	حسن نصر	دموع غالية
	3	72/64	البشير خريف	النقرة مسدودة
	3	79/76	رشيد الغالي	لن أسألك
	4	37/35	رشاد دارغوث	عجوز التلة
	4	41/39	جواد صيداوي	زوز دورو
	4	45/43	البشير المجدوب	« قاوري »
	4	59/54	الطاهر وطار	دخان من قلبي
	6	18/15	رشيد الغالي	من أمسي

السنة	العدد	الصفحة	اسم المؤلف	عنوان القصة
السنة الخامسة (1959 1960)	6	28/25	مصطفى الفارسي	يوم عيد
	6	48/44	رشاد دارغوث	المشروع الآخر
	6	63/61	حسن نصر	الطفل والسمكة
	6	77/70	الطاهر والطار	حبة اللوز
	7	28/25	رشيد الغالي	اليها
	7	33/31	نور الدين صمود	قصة النار
	8	31/27	منير شماء	ليلة ليلاء
	8	46/43	عبد الرحمان الموشي	أرضك لك
السنة السادسة (1960 1961)	1	30/25	رشيد الغالي	الغبي
	1	32/31	محمد ذيب (ترجمة البشير ابن سلامة)	قطاع الطريق
	1	48/33	البشير خريف	خليفة الاقرع
	1	52/49	جواد صيداوي	السفساري
	1	63/53	الطاهر وطار	ابتسمي
	1	68/64	عبد الله القوري	لم يولد
	1	71/69	حسن نصر	ليس غير المطر
	2	26/24	ابن عبد القادر	سانتقم لك يا جدار
	2	41/28	محمد ذيب (ترجمة محمد فريد غازي)	تفتيش في القرية
	2	73/71	محمد ذيب (ترجمة البشير ابن سلامة	غرور الشباب (1)
	3	15/9	البشير خريف	برق الليل (1)
	3	81/79	رشيد الغالي	قالت لي
	3	85/82	محمد ذيب (ترجمة البشير ابن سلامة)	غرور الشباب (2)
	4	49/39	البشير خريف	برق الليل (2)

السنة	العدد	الصفحة	اسم المؤلف	عنوان القصة
السنة	5	43/36	البشير خريف	برق الليل (3)
السادسة	5	89/84	حسن نصر	أ أبتسم غدا
(1960	7	29/24	بية النوري	الدوح الفارغ
1961)	7		ابن الواحة	عاطفة ودموع
	7	48/46	رشيد الغالي	لن ألتقي بها
	7	77/74	حسن نصر	الثور الذي خلفه أبي
	9	27/21	البشير بن سلامة	علي الغافل
	9	74/71	ناجية ثامر	صوت العنادل
	9	80/77	ابن الواحة	لقد حطمت القيد
السنة	1	57/51	البشير بن سلامة	موت وفول وفلقة
السابعة	1	66/60	محمد فرج الشاذلي	ألسنا أخوين
(1961	1	73/71	رشيد الغالي	أمام الوميض
1962)	1	82/78	ناجية ثامر	ابريق الشاى
	2	41/24	الطاهر وطار	محو العار (1)
	2	65/57	أبو العيد دودو	الحبيبة المنسية
	2	79/76	محمد الصالح الصديق	تحيا الجزائر
	4	33/23	محمد رشاد الحمزاوى	باب العرش
	4	55/48	علي محمد الغودى	صراع
	4	84/65	الطاهر وطار	محو العار (2)
	5	18/12	مصطفى الفارسي	من يدري... ربما
	5	80/78	ابن الواحة	بطولة
	7	51/48	فوزي عبد القادر الميلادي	قصر الذكريات
	8	38/20	محمد رشاد الحمزاوى	حياة
	8	91/84	ستفان تسفان (ترجمة ابو العيد دودو)	انهيار قلب (1)
	9	20/12	رشاد الحمزاوي	بودودة مات (1)
	9	37/35	البشير خريف	من رزقه

السنة	العدد	الصفحة	اسم المؤلف	عنوان القصة
السنة السابعة (1961 1962)	9	42/39	ابن الواحة	الحنان المحرم
	9	72/57	ستيفان تسفايغ (ترجمة دودو)	انهيار قلب (2)
	10	53/45	رشاد الحمزاوي	بودودة مات (2)
	10	62/59	بيّة النوري	كادت أن تتغير حياته
	10	71/65	رشيد الغالي	الخلخال
السنة الثامنة (1962 1963)	1	32/21	مصطفى الفارسي	النفحة الشافية
	2	26/21	البشير بن سلامة	جنان بنت الري
	2	42/33	الطاهر اللبيب	قصعة صبرة
	2	68/65	رشيد الغالي	ذات ليلة ماضية
	2	55/53	لُويس بيبو (ترجمة بنحميدة)	قروية
	3	40/36	رشيد الغالي	من الامس
	4	32/31	لودفيغ بيخشتاين (ترجمة دودو	الاغنية النائحة
	5	46/41	محمود طرشونة	عمار الغول
	5	55/51	الفونس بتسولد (ترجمة دودو	حكاية
	6	30/27	ايتيان تومركيني (ترجمة بنحميدة)	عودة ميخائيل
	7	43/37	خديجة الشتوي	الهذباء
	7	64/53	بيّة النوري	لولا القفة
	8	84/79	رشيد الغالي	عودة
	9	20/19	فريديريك بروان (ترجمة بنحميدة)	الجواب
	9	45/41	محمد المصمولي	مصير ما

السنة	العدد	الصفحة	اسم المؤلف	عنوان القصة
السنة الثامنة (1963 1964)	1	28/27	البشير بن سلامة	صفارة جحا
	1	60/43	مالك حداد (ترجمة م. ع. عبد الرزاق)	رصيف الزهور لا يلبي النداء (1)
	1	68/62	فريدينا مندفون صار (ترجمة دودو)	مكسرو الحجر
	2	69/53	مالك حداد (ترجمة عبد الرزاق)	رصيف الزهور. (2)
	2	79/74	الطاهر الابيب	المغيبة
	3	75/50	ف. فون صار (ترجمة دودو)	مكسرو الحجر (2)
	3	33/30	الحبيب ابراهم	عبث
	4	26/23	م. بنحميدة	بسمة شهرزاد
	4	35/31	الحبيب ابراهم	عشرة
	4	45/42	ف. كفكا (ترجمة ابو العيد دودو)	احد عشر ولدا
	5	21/20	فريديريك بروان (ترجمة بنحميدة)	قصتان سحريتان
	5	49/26	رشاد الحمزاوي	دادة فاطمة
	5	57/53	الحبيب ابراهم	ظلم الببغاء

3) — التجديد

السنة	العدد	الصفحة	اسم المؤلف	عنوان القصة
السنة	1	73/70	صالح القرمادي	الشيّات
الاولى	2	82/78	المنجي الشملي	بعد الهجرة : ميثاق السفينة
من فيفري 1961	3	58/55	صالح القرمادي	سعيد أو بذرة الحلفاوين (1)
الى فيفري — مارس 1962)	4	43/41	صالح القرمادي	سعيد أو بذرة الحلفاوين (1)
	6/5	120/102	رشاد الحمزاوي	تعيش وتربي الريش
	6/5	130/123	صالح القرمادي	سعيد... (2)
	6/5	138/134	عبد العزيز بن الحاج الطيب	« أمل »
	6/5م	141/139م	حسين احمد حسين	من وحي الجفاف (خاطرة)
	7	41/35	عبد العزيز بن الحاج الطيب	فكرة مرهقة
	7	47/42	صالح القرمادي	سعيد... (3)
	7	53/48	مصطفى الفارسي	تطهير الفتاتيش
	8	69/64	صالح القرمادي	سعيد... (4)
	8	77/70	المختار السلامي	البرزخ (1)
	9	60/56	صالح القرمادى	سعيد... (5)
	9	79/62	عبد العزيز بن الحاج الطيب	هدايا بسيطة
	9	79/72	المختار السلامي	البرزخ (2)
السنة الثانية	1	68/65	صالح القرمادي	سعيد... (6)
نوفمبر 1962	1	76/71	عبد العزيز بن الحاج الطيب	الطيّاب

صالح القرمادي

مشاركة في دراسة

أبي القاسم الشابي

بمناسبة مرور ثلاثين سنة على وفاته

بقلم : توفيق بكار

كلمة التقديم

منذ ثلاثين سنة خلت توفي ابو القاسم الشابي ومن يوم ان توفي ما فتىء شعره يلاقي من ازدياد الحظوة ما تنقطع دونه آمال مئات الشعراء فقد بلغ من تعهد ادبائنا لذكراه انهم لم يفوتوا مناسبة قط إلا أقاموا فيها حفلا لتخليد روحه كما بلغ من افتتانهم به أنهم أمسوا ولا حديث آثر لديهم من الحديث عنه وأصبحوا ولاكثرهم فيه فصل أو قصيدة أو حتى كتاب أحيانا . وإننا اليوم لنقف من كل هذه الكتابات عند حصيلة هائلة ضبطها — أول من ضبطها — الاستاذ محمد الحليوى في ثبته القيم الذي ختم به كتابه « مع الشابي » (1) قبل ان يضبطها ثانيا الاستاذ ابو القاسم كرو في كتابه « آثار الشابي » (2).

وليس من الغريب ان يفوز الشابي . وهو من قوة الشخصية وصدق الشاعرية بحيث نعلم — بمثل هذه العناية المتناهية على أننا نريد ان نلاحظ ما لاحظه قبلنا كثير من الباحثين غيرنا من ان الشابي قد استأثر — دون سائر أدبائنا وكتابنا الآخرين — باهتمام المثقفين التونسيين استئثارا كاد ان يستفرغ طاقات التفكير عندهم .

ثم إن هذه الكتابات — حول الشابي — الوافرة قد نحا فيها أصحابها — إلا قليلا منهم — منحى غريبا . فما اكثر ما انقلبت الدراسة عبادة وما أكثر

(1) الكتاب الثاني من سلسلة كتاب البعث . تونس نوفمبر 1955 .
(2) آثار الشابي وصداه في الشرق — بيروت 1961 .

ما استحال النقد تمجيدا حتى بدا الشاعر وقد توج رأسه من التقديس بهالة من نور بعدما طوق من العنت « بإكليل من الشوك » هكذا تنشأ الأساطير .

والاغرب ان الشابي مع كل هذا التقديس له لم يظفر بعد بما هو حقيق به من جدي الدراسات وشاملها .

وهذا لا يعني ان كل الكتابات المذكورة عديمة الفائدة . فأنت واجد فيها لا محالة كثيرا من الهذر ولكنك واجد فيها كذلك معلومات قيمة وخاصة منها ما كان شهادة من خلصائه كالحليوي والبشروش او من معارفه كالسنوسي او حتى من مجرد أتراب له لا يمتون إليه بسوى سبب المعاصرة . فهذه الشهادات من أنفس الوثائق فمتى جمعناها وحققناها وفرنا على انفسنا من المواد ما يساعدنا على حل اكثر المشاكل المتصلة بدراسة الشابي . وقد خطا بعد الاستاذ ابو القاسم كرو في كتبه الثلاثة — على ما فيها من نقص — خطوة حميدة في هذا السبيل . كما أنك واجد فيها آخرا إلى جانب الوثائق دراسات لادب الشابي جزئية او عامة بعضها يعتبر نموذجا في فن النقد الرصين كفصول السيد الحليوي والاستاذ مازيغ والاستاذ بو يحيى . إلا ان هذه الدراسات علاوة على جزئيتها او عموميتها لا تعدو في منحاها اسلوب النقد الذوقي . والنقد الذوقي وإن كان وجها من وجوه النقد لازما إلا أنه لا يسد بحال من الاحوال مسد النقد الموضوعي القائم على أساس المنهجية العلمية . والشابي أحوج ما يكون اليوم إلى مثل هذه الدراسة المنهجية . ونحن ما لم نحقق ذلك ابدا معرضون لاخطاء الرأي المحض من بعيد التأويل وغريب التخريج . فالنقد العلمي هو الكفيل وحده بأن يقينا الوقوع في تلك المزالق وذلك بدون ان يضيق عليك مجال التذوق بقدر ما في كل منا من الحس الفنّي .

ومثل هذه الدراسة العلمية ترجع بالاصالة إلى الجامعة التونسية فعسى ان تتظافر الجهود في نطاقها حتى تسد هذه الثلمة الخطيرة .

وقد سبق بعد إلى هذا الميدان من الجامعيين المرحوم الدكتور فريد غازي(1) والاستاذ عامر غديرة (2) فأسهما مساهمة قيمة في جلاء جوانب هامّة من حياة الشابي وشخصيته وأدبه ، غير ان دراسة الشابي في المستوى الجامعي — وهي في بدايتها — ستظل ناقصة ما لم نعمل على نشر كل آثاره . فان قسطا وافرا منها ما زال مجهولا إلا من افراد قلائل منه ما هو مخطوط ومنه ما هو مغمور في جوف الصحف والمجلات القديمة .

وإن كان لنا من غاية نرومها من وراء هذا العمل فانما هي محاولة ضبط هذه الآثار ثم التعريف بمجموعة طيبة من منسيها . وقد قدمنا لكل نص بكلمة اردفناها بما عنّ لنا من التعليق والمناقشة فوجدنا انفسنا نثير من المشاكل اكثر مما نحلّ . هذا وقد اضفنا إلى نصوص الشابي نصين آخرين أحدهما للسيد محمد الحليوي والثاني للمرحوم عبد الخالق البشروش لما رأينا فيهما من وجوه الفائدة مما يجده القارىء مفصلا في موضعه .

ونحن نقدم هذا العمل على سبيل التحية لروح أبي القاسم الشابي بمناسبة الذكرى الثلاثين لوفاته .

---

(1) له :

Le milieu zitounien de 1920 à 1933 et la formation de Aboul-Kacem Ach-Chabbi. Cahiers de Tunisie, N° 28, 4e trimestre 1959.

« مرض ابي القاسم الشابي » . مجلة « الفكر » السنة 5 — العدد 3 — ديسمبر 1959 .

Chabbi et sa conception de l'imagination poétique — ARABICA Vol. IX - 1962.

(2) له :

« محاولة جعل إطار لترجمة الشابي » — مجلة « الفكر » السنة 5 — العدد 3 — ديسمبر 1959

محاولة لضبط آثار الشابي

مشكلة ضبط قائمة كاملة بآثار الشابي مشكلة على جانب كبير من التعقد والتشعب .

فأول ما يعترض سبيلنا من العقبات تضارب المصادر في تعيين السنة التي بدأ فيها ابو القاسم حياته الادبية فالشيخ زين العابدين السنوسي يقول في فصله التأبيني الذي نشره بعد موت الشابي بأيام قلائل : « فقد كان أول نشراته في الصفحة الادبية التي كانت ترتبها رصيفتنا الكبرى « النهضة » كل يوم اثنين سنة 1344 اي وهو لم يجز السابعة عشرة من عمره » (1) وسنة 1344 الهجرية تبتدىء من شهر جويلية 1925 وتنتهي في شهر جويلية 1926 . ثم عاد الشيخ السنوسي في كتابه عن الشابي إلى قوله الاول فأكده ودققه قائلا : « إذ ما كانت تبرز قصائده الاولى في الصفحة الادبية التي كنت بدأت نشرها سنة 1925 حتى تناقلتها الزميلات في العالم العربي » (2) وزاد في موضع آخر من الكتاب نفسه فقال : « ...لما تقدم إلى سنة 1925 رأيت منه ما أعجبت به واكبرته فاخرجت له قصائد في الصحف الادبية التي كنت أشرف على تنظيمها كل يوم اثنين » (3) .

ولكننا رجعنا إلى مجموعة النهضة فلم نعثر فيها على هذه الصفحة الادبية قبل أواخر سنة 1927 ولا على قصائد للشابي قبل سنة 1928 إذ نشرت له النهضة بتاريخ 25 جانفي 1928 قصيدة « دموع الالم » تلتها قصائد أخرى هي على الترتيب « إلى البلبل » 1 فيفري 1928 — « النفس التائهة » 16 فيفري 1928 —

---

(1) العالم الأدبي — السنة 4 — العدد 1 — 12 نوفمبر 1934 .
(2) ابو القاسم الشابي حياته وأدبه — تونس 1956 — ص 8 .
(3) المصدر نفسه ص . 13 .

« بقايا الخريف » 8 مارس 1928 – « مآسي الحياة » 12 افريل 1928 – « أغنية الشاعر » 24 ماي 1928 .

هذا وقد راجع الاستاذ عامر غديرة مجموعة النهضة قبلنا فوقع فيها على نص للشابي صدر بتاريخ نوفمبر 1927 . والحق أنه لم يسعنا ان نحقق ذلك بنفسنا لان اعداد نوفمبر وديسمبر من سنة 1927 مفقودة من مجموعة النهضة الموجودة بالمكتبة الوطنية بتونس .

ومهما يكن من أمر فهذا يبطل ما ذهب إليه السيد محمد الحليوي في فصل له عن ذكرى الشابي حيث قال : « لقد بدأ الشابي آثاره سنة 1928 وتوفاه الله سنة 1934 فتكون المدة التي انقضت بين دخوله عالم الادب ووفاته لا تزيد عن ست سنين » (1) وزاد مدققا في ثبته الذي ختم به كتابه « مع الشابي » فجعل أول انتاج الشابي قصيدة « النفس التائهة » وهذا القول مردود من ناحيتين من ناحية لاننا وقعنا على قصيدتين للشابي سابقتين « للنفس التائهة » وهذا حتى إذا لم نعتبر قول الاستاذ غديرة . ثم من ناحية أخرى لان الشيخ السنوسي كان نشر لشاعرنا مجموعة من القصائد يبلغ عددها 31 في الجزء الثاني من كتاب « الادب التونسي » وقد صدر هذا الكتاب سنة 1346 هـ الموافقة لسنة 1927 م. فكيف يكون الشابي بدأ حياته الادبية سنة 1928 وكتاب الادب التونسي قد صدر سنة 1927 وفيه بعض قصائد الشابي المشهورة.

ثم نحن نتساءل وقد بلغنا هذا الحد من التحقيق عن القصائد الواردة في كتاب « الادب التونسي » أنشرت قبل ان تجمع في هذا الكتاب ام نشرت فيه لاول مرة ؟ فإن كان بعضها على الاقل قد نشر قبل ذلك وهناك قرائن تدل على هذا منها قول السنوسي الآنف الذكر فمن المحتمل ان يكون أبو القاسم قد نشره ابتداء من سنة 1926 إلا يكن في النهضة الادبية ففي جريدة

---

(1) ذكرى الشابي « مع الشابي » ص . 106 .

أخرى وهكذا يترجح لدينا ما ذهب إليه الاستاذ الامين الشابي في مقدمة ديوان « أغاني الحياة » من ان الشاعر بدأ حياته الادبية سنة 1926 .

على كل فليس من حل نهائي للمشكلة إلا أن يراجع الشيخ السنوسي ذاكرته أو مذكراته عساه ان يخرجنا من حيرتنا هذه بما يفيد اليقين .

وليست المشكلة ثانوية كما قد يتوهمه البعض بل هي من الاهمية بمكان لان الشابي لم يثبت من قصائده الاولى في الديوان – وهو أوفى مجموعة شعرية له – إلا بعضها مع التحوير والتنقيح بينما ترك البقية مهملة حتى لم يعد هناك من يذكرها ونحن في حاجة أكيدة إلى معرفة كل ما انتجه الشابي من البداية إلى النهاية حتى تكون دراستنا له مستوفاة .

وإلى أن تحدد سنة البداية تلك يمكن لنا ان نقول إن أبا القاسم ظل ينشر في صحيفة النهضة الادبية من حين لآخر من باكوراته ثم تقاسمت بعض الصحف التونسية والمصرية انتاجه الشعري والنثري وهذه الصحف هي العالم الادبي والزمان والعالم وأبولو ويضيف إليها المرحوم عبد الخالق البشروش « الجواهر » ولا ندري أتونسية هي أم شرقية (1) .

قد جعل السيد محمد الحليوي لآثار الشابي المنشورة في حياته وبعيد موته ثبتا دقيقا توخى فيه الترتيب الزمنيّ وذكر مواقع النشر الاولى . وهذا الثبت قد اعتمده – فيما بعد – الاستاذ كرو ولم يدل على ذلك .

وقد تعقبنا هذا الثبت فوجدناه على قيمته لا يخلو من بعض النقط منه بعض ما ذكرنا من قصائد الشابي الاولى المنشورة بالنهضة الادبية وقصائد أخرى وردت بعد ذلك في الديوان ولم يكن الاستاذ يعلم بوجودها ثم نص كلمة القيت في حفلة تأبين جبران بتونس ونشرتها جريدة الزمان . وهو نص لم يشر إليه أي مرجع

(1) « آراء وخواطر لأبي القاسم الشابي » .

من المراجع . فنحن نضيف حصيلة بحثنا إلى ثبت الحليوي القيم ونعيد فيما يلي من دراستنا نشر كل ما وقعنا عليه من آثار الشابي الشعرية والنثرية مما صدر مرة أولى بحياة الشاعر ولم يصدر ثانية وسواء في ذلك ما دلت عليه المصادر وما لم تدل بحيث نكون مع ما نشر في « الادب التونسي » و « أغاني الحياة » من الشعر ومع « الخيال الشعرى » وما أعاد نشره الاستاذ الحليوي في كتابه « مع الشابي » والاستاذ كرو في كتبه الثلاثة من القطع النثرية قدمنا للأجيال الجديدة اوفى مجموعة ممكنة من آثار الشابي المنشورة سابقا . ويبقى منها ما قد يكون اصدره الشابي ابتداء من سنة 1926 او ما قد يكون اصدره « بالجواهر » التي أشار إليها البشروش ونص مقال بعنوان « اليقظة الاسلامية الحاضرة » نشرته حسبما جاء في ثبت الحليوي جريدة الزمان سنة 1928 ولم نعثر عليه لفقدان اعداد الزمان لتلك السنة من مجموعة المكتبة الوطنية .

وبعد فمسألة ضبط واعادة نشر ما صدر من آثار الشابي تبدو هينة بالنسبة إلى مسألة الآثارة المخطوطة .

وقبل ان نتصدى للبحث في المخطوطات نود أن نقول كلمة في ديوان الشابي

أجمعت كل المصادر على ان المنون ادركت أبا القاسم وقد فرغ من اعداد مسودة ديوانه بعد ان اختار له من اشعاره ما ارتئاه صالحا ورتب القصائد ترتيبا زمنيا مضبوطا ولم يتسن لهذا الديوان ان يصدر إلا سنة 1955 وفيه من العيوب ما هو معروف أخصها أن القصائد وردت فيه غفلا من التواريخ .

فالديوان قد تضمن بدون شك أحسن قصائد الشابي وفي صورتها النهائية التي ارتضاها لها على أنه إذا اكتفى في حقه بأن يعاد طبعه مع اثبات تواريخ القصائد فحسب سوف يكون دون ما ننشد لاننا في حاجة إلى طبعة علمية دقيقة تجمع كل الاشعار التي قالها الشابي في شتى اطواره الادبية مع إيراد

مختلف الروايات لها وبيان تواريخها وذكر الظروف التي انشأت فيها وهذا الامر الاخير ممكن بفضل ما توفر لدينا اليوم من المصادر المتنوعة مثل بعض يوميات الشابي ورسائله ومثل شهادات اصدقائه .

ولعل من اطرف ما وقعنا عليه من اخبار الديوان المخطوط هذا الخبر الذي نشرته الزمان : « يتذكر القراء اننا كنا نشرنا في هاته الجريدة نبأ عزم شاعر تونس النابغ الاستاذ ابو القاسم الشابي على طبع الجزء الاول من ديوانه « أغاني الفجر » وقد بلغنا ان ذلك العزم دخل في طور التنفيذ حيث اتفق الشاعر مع مطبعة « أبولو » بمصر على طبعه وسيكون مصحوبا بصور فنية ورمزية بريشة الفنان المبدع السيد علي الدعاجي » (1) .

فعسانا نرى هذا المخطوط مع صور الدعاجي فيما سنراه من مخلفات الشابي التي سيقام لها معرض بمناسبة المهرجان الثلاثين .

تضيف عدة مصادر إلى آثار الشابي المنشورة آثارا أخرى مخطوطة متنوعة جعلوا لها قوائم متعددة إلا أن هذه القوائم متضاربة في كثير من نواحيها علاوة على أنها في أغلب الاحيان لا ترتكز على أسانيد ثابتة .

وهذه الآثار المخطوطة هي :

1 — يومياته .
2 — رسائله .
3 — جميل بثينة : محاضرة .
4 — شعراء المغرب : محاضرة .
5 — « صفحات دامية من قلب شاعر » : قصة ؟
6 -- (الاعترافات) او « في المقبرة » : رواية .
7 — السكير : مسرحية .

(1) الزمان — عدد 227 — 19 جوان 1934 .

إن التحقيق في هذه المخطوطات ليس بالامر الهين كما سيتبينه القارىء .

2 — 1 — اليوميات والرسائل :

ليس لنا ما نقوله فيها زيادة على ما ورد في ثبت السيد محمد الحليوى فليطالعه إذن من أراد معرفة اخبارها — ولكننا ننبه إلى أننا — فيما يتعلق بالرسائل — سوف ننشر منها — في آخر هذه الدراسة — مقتطفات ضمن مقال السيد الحليوي ونتفا طيّ نص عبد الخالق البشروش .

3 — جميل بثينة :

أول من ذكر وجود هذا المخطوط السيد محمد صالح المهيدي (1) وقال عنه إنه نص مسامرة كان أعدها الشابي ليلقيها بالنادي الادبي سنة 1348 إلا أن المرض حال دونه ودون ذلك .

ولكن هذه المسامرة سوف تصبح في قائمة مؤلفات الشابي التي نشرتها « الثريا » (2) سنة 1947 مجموعة قصص خيالية بعنوان « جميل بثينة وقصص أخرى... مجموعة قصص خيالية لم تطبع » وذهب الشيخ السنوسي نفس المذهب في كتابه عن الشابي (3) . أما الاستاذ كرو فبعد ان عرف هذا بطريقة غنائية مألوفة لديه بأنها « قصة جميلة رائعة كتبها باسلوبه الشعري البديع » (4) تراجع فاقتصد في القول وتوسط في الحل وإذا « جميلة بثينة » « محاضرة باسلوب قصصي » (5) والاستاذ كرو بالطبع لم يطلع على المخطوط .

(1) مجلة « الافكار » التونسية — عدد 2 — ديسمبر 1936 .

(2) مجلة « الثريا » التونسية — العددان 2 — 1 سنة 1947 . وقد أوحى بهذه القائمة إلى المجلة المرحوم الدكتور غازي حسبما صرحت به المجلة نفسها في العدد 41 سنة 1950 حيث قالت : « إن ما نشرناه عن مؤلفات الشابي قد دلنا عليه الشاب المثقف محمد فريد غازي التونسي » .

(3) « الشابي حياته وأدبه » نشر دار الكتب الشرقية — تونس 1956 — ص . 66 .

(4) « الشابي حياته وشعره » الطبعة الثالثة — بيروت 1960 — ص . 128 .

(5) « آثار الشابي » ص . 28 .

لا يسعنا ان نجزم في القضية بقول ما لم ينشر النص وهو فيما تؤكده الثريا ويؤكده الشيخ السنوسي في حوزة الاستاذ الامين الشابي .

4 — شعراء المغرب :

وهو نص محاضرة عن كتاب « الادب العربي في المغرب الاقصى » لصاحبه محمد بن العباس القباج (1) كان ابو القاسم أعدها ليلقيها في النادي الادبي بتونس مساء يوم الاثنين 13 جانفي 1930 ولكنه عندما حان موعد القائها وجد قاعة النادي خالية . وقد دون ذلك في يومياته بتاريخ 13 /1/ 1930 فقال : « ذهبت أنا والاخ زين العابدين والاخ مصطفى خريف مساء اليوم إلى النادي الادبي لالقاء محاضرتي عن كتاب « الادب العربي في المغرب الاقصى » الذي طلب مني النادي الادبي أن أبسط لهم رأيي فيه ولكننا لم نجد أحدا هناك بمجلسنا » (2) .

ومن طريف ما يتصل بخبر هذه المحاضرة ما يحدثنا به الشيخ السنوسي في ذيل صفحة 52 من كتابه « الشابي حياته وشعره » من ان الشابي جاءه بقصيدة « النبي المجهول » « بعد الصدمة النفسية التي لحقته » اثر هذه المحاضرة التي لم تقع .

وفي صفحة 66 من الكتاب المذكور يؤكد الشيخ السنوسي في ناحية أخرى فيما يتعلق بهذه المحاضرة ان الشابي « قد تركها في « خطيتها » تلك بين يدي صديقه الحميم الاستاذ ابراهيم بورقعة المحامي اليوم بمدينة صفاقس » بينما تزعم الثريا ان النص موجود بخزينة الاستاذ محمد صالح المهيدي .

---

(1) انظر « آثار الشابي » ص . 28 .
(2) « آثار الشابي » ص . 153 .

5 — صفحات دامية من حياة شاعر :

نشرت صفحة منه بمجلة « العالم الادبي » (1) بعنوان « صفحات دامية من حياة شاعر... صفحة من كتاب بهذا العنوان لحضرة الشاعر المتفنن الاستاذ ابي القاسم الشابي » وذكره السنوسي في فصله التأبيني المذكور آنفا فقال : « كما أن له صفحات دامية من حياة شاعر وضعه بأسلوب شعري أتى فيه على تاريخ حياته » (2) .

وذكرته قائمة الثريا بالعبارة التالية : « صفحات دامية من حياة شاعر : قصة خيالية لحياته الثائرة » .

ولكن السيد محمد الحليوي — في ثبته — قد رد القطعة المنشورة من « صفحات دامية » إلى اليوميات وهو في ذلك على صواب وإن لم يعلل رأيه بعلة . ويبدو أنه اتكل على ما سبق المرحوم الدكتور غازي إلى تأكيده في فصله : « ابو القاسم من خلال يومياته » حيث قال : « وقد نشرت مجلة « العالم الادبي » بعض مقتطفات منها تحت عناوين أدبية محضة دون أن يشير الشابي أنها فصول من مذكراته » (3) وزاد مدققا : « يوم الاربعاء 1 جانفي 1930 نشرت مجلة « مكارم الاخلاق » وكذلك « العالم الادبي » (في حياة الشاعر) فقرات من هذا اليوم » . والملاحظ ان المرحوم غازي لم يذكر بالحرف « صفحات دامية » من جملة الفصول المستخرجة من اليوميات ويا ليته فعل ذلك حتى ينقطع الشك في حقيقة هذه القطعة النثرية لانه كان مع الاستاذ ابراهيم بورقعة المحامي بصفاقس ثاني اثنين يملكان نسخة من اليوميات بحيث يمكن له البت في الامر عن بينة . ولكنه لم يفعل وهذا لايضعف من قوله

(1) العالم الأدبي ج 3 ماية 1930 — أعاد نشرها الاستاذ كرو في « الشابي حياته وشعره ص . 278 .

(2) العالم الأدبي — السنة 4 العدد 1 — 12 نوفمبر 1934 .

(3) جريدة « الصباح » 19 نوفمبر 1954 .

لان هناك قرائن أخرى تؤيده منها ان القطعة المنشورة في « صفحات دامية » قد صدرت بتاريخ ماي 1930 اي بعيد انتهاء الشابي من تدوين يومياته في 29 فيفري 1930 ومنها ان لفظة « صفحات » قد تدل على معنى « يوميات » وان القطعة المعنية تنسجم تمام الانسجام مع بداية اليومية المؤرخة بيوم الاربعاء غرة جانفي 1930 (1) وذلك من ناحية الموضوع وهو ذكريات الطفولة والماضي ومن ناحية الاسلوب اسلوب الشعر النثري .

وأما ما جاء في قول الشيخ السنوسي من ان الشابي قد أتي في « صفحات دامية » « على تاريخ حياته » بينما اليوميات لا تتناول من حياة الشاعر إلا نحو شهرين من غرة جانفي 1930 إلى 29 فيفري من السنة نفسها فنحن نعده من قبيل المجازفة بالقول لان الشيخ السنوسي نفسه يبدو في كتابه عن الشابي (ص 67) كمن اقتنع برأي الحليوي فلم يذكر « صفحات دامية » من جملة آثار الشابي وقال في حديثه عن اليوميات إن الشابي « نشر فصولا من مذكراته في مجلتنا العالم الادبي ».

وهكذا فليس « صفحات دامية من حياة شاعر » سوى العنوان الذي قد يكون ابو القاسم اختاره ليومياته .

6 — [الاعتراف] او « في المقبرة » :

أول من أكد وجود رواية [الاعترافات] الشيخ السنوسي في كتابه الادب التونسي حيث قال : « وله باع طويل في النثر الشعري قرأنا له فيه رواية حسنة بديعة ناهيك أنها من نوع [الاعترافات] يقص فيها على لسان بطلها حوادثه وتأثراته النفسية وهو نوع عزيز حتى عند الامم المختمرة في نفسها الروح الروائية لما يستوجبه من تقمص اشخاص الرواية في قلم الكاتب الذي يضطر

(1) نشرت بداية هذه اليومية في كتاب كرو « آثار الشابي » ص . 147 .

إلى وصف انفعالاتهم واضطرابهم النفساني الشاذ خصوصا وعلم النفس لم يصبح بعد علما معلوما مضبوطا » . المجلد الأول ص 207) .

فهذا القول صريح في دلالته ولا يدع مجالا لادنى شك ثم انه نشر سنة 1927 أي في حياة الشابي وما سمعنا قط بان الشاعر كذبه . ولكنه من أخبار الآحاد ولم نعثر على خبر آخر يؤيده . فقد رجعنا إلى ثبت الحليوي لنحقق الامر فلم نجد فيه لكتاب [الاعترافات] ذكرا . ولولا ما شعرنا به من ان السيد الحليوي قد تحاشى لاسباب لا يعلمها إلا هو الحديث عن آثار الشابي المخطوطة بصفة عامة لا تخذنا من سكوته عن [الاعترافات] حجة على الشيخ السنوسي لان الحليوي عمدة في دراسة الشابي والسنوسي لا تخلو أقواله من الاضطراب . ورجعنا كذلك إلى قائمة (1) صديق الشابي الآخر السيد محمد صالح المهيدي فلم نقع على ذكر هذا الكتاب وإن أشار المهيدي عموما إلى وجود قصص للشابي لم تنشر .

وأما الذين أكدوا وجود [الاعترافات] فكلهم عالة في ذلك على الشيخ السنوسي .

فقد ذكرته الثريا في قائمتها بعنوان « في المقبرة » واسندت هذا العنوان الجديد إلى قول السنوسي بمجرد نقط ثلاث بحيث يبدو الاسناد واهيا جدا أشبه شيء بالتلفيق لان الموحي بالقائمة وهو المرحوم غازي لم يشر إلى المصدر الذي استقى منه العنوان ولا استدل على وجود هذه الرواية بغير كلام السنوسي وقد ورد في الديوان صفحة 134 قصيدة من نوع خاص بعنوان « حديث المقبرة » عرفها الشابي هكذا : « هو حوار فلسفي مداره الحياة والموت والخلود والكمال » ويجري هذا الحوار في مقبرة بين الشاعر « العائش بين الهواتف والاشباح » وبين « روح فيلسوف قديم مجهول » ولكن لا يمكن اعتبار هذه القصيدة

(1) مجلة « الافكار » العدد 2 — ديسمبر 1936 .

من نوع الاعترافات ولا ما فيها من حوار من جنس الحوار الروائي فيغلب على اعتقادنا إذن ان المرحوم غازي قد سمع بوجود هذه القطعة الشعرية بين مخلفات الشابي – والديوان لم يطبع بعد – فالتبس عليه أمرها وظنها رواية [الاعترافات] ومن ثم نسب عنوان « في المقبرة » إلى قول السنوسي .

ثم جاء بعد ذلك الاستاذ كرو فتبنى قائمة الثريا بحذافيرها بدون ان يصرح بذلك (1) على عادته وإذا ما كان مجرد نقط يتحول لديه إلى سند موصول . قال معرفا برواية « في المقبرة » : « رواية او قصة على نمط قصص جبران باسلوب فني عذب وخيال شعري فائق وقد وصفها من اطلع عليها فقال : ... [يلي كلام السنوسي] (2) والغريب أن الاستاذ كرو يعرفك بالرواية ذلك التعريف الغنائي المفصل وهو لم يطلع عليها .

لقد كنا نكتفي – في نهاية الامر – لاثبات وجود الرواية بقول الشيخ السنوسي وإن كان من أخبار الآحاد لو أن السنوسي نفسه ثبت على هذا القول ولكن هيهات فانه لم يعد يذكر [الاعترافات] من جملة آثار الشابي في كل ما كتب بعد ذلك عن الشاعر وخاصة في كتابه عنه .

ترى ما الوجه في هذه المشكلة ؟ فهل نعتبر رواية [الاعترافات] حديث خرافة ؟ فلئن تعذر علينا ان نجزم في هذه المشكلة بقول فصل ففي امكاننا ان نفترض فرضا وهو ان تكون رواية [الاعترافات] هي « السكير » .

6 – السكير :

شهد بوجود هذه المسرحية الاستاذ محمد بورقعة في كلمة نشرتها له مجلة الثريا في عددها 41 المؤرخ بيوم 15 افريل 1950 . قال الاستاذ بورقعة : « نشرتم في العددين 2 – 1 للسنة الرابعة من مجلتنا الثريا كلمة عن مؤلفات

(1) يقول الاستاذ كرو في « الشابي : حياته وشعره » ص 121 : « وسنحاول في هذا الفصل الكشف عن آثاره الأدبية المختلفة » ولا شك في ان الكلام على صورته تلك يوهم القارى بان الاستاذ كرو هو المكتشف حقا لآثار الشابي بينما اكتفى الاستاذ بتبني القائمة التي اوحى بها المرحوم غازي إلى الثريا كما ذكرنا . ونحن ننبه إلى هذا صيانة للحق .

(2) « آثار الشابي » ص . 29 .

الشابـي واغفلتم ذكـر مسرحية السكـير وهـي مسرحية ذات فصلين من نـوع الاعتراف وهـي أصعب انواع التـأليف كما هو معروف عند أدباء المسرح وأعرف هذه المسرحية عند أبـي القاسم وكان رحمه الله كـثير الاعجـاب بهـا قرأها عليّ مرارا ولعلها تـكـون باقية في آثاره ولذا فالمرجو اثبات هذه الحقيقـة واضافة اسم المسرحية لسجل آثاره الذهبـي » .

ونحن لا نستبعد ان يـكـون الشابـي ألف مثل هذه المسرحية لانه لم يـكـن غريبا عن عالم المسرح بل كان يتردد على نوادي الجمعيات التمثيلية كما تفيدنا به صفحة من يومياته يقول فيها « صرفنا الثلث الثانـي من الليل في محل « جمعية التمثيل العربـي » أين يتمرن الممثلون » (1) وقد سألنا الاستاذ محمد الحبيب وهو من أقدم رجال المسرح التونسـي هل له علم بهذه المسرحية فأجابنا بأنه لا يعرف للشابـي تـأليفا مسرحيا قط على أنه يذكـر ان الشابـي في احـد الاجتمـاعـات التمثيلية كان قد وعد بالمشاركـة في التـأليف المسرحـي . فهل تـكـون «السكير» انجاز ذلك الوعد ؟ ربما غير اننا نرجح ان تـكـون هـي رواية (الاعترافات) إذ لا نخال القـارىء إلا قـد تفطن مثلنـا إلى التشـابـه الـكـبيـر بيـن وصف [الاعترافات] كما ورد في كـلام السنوسـي ووصف « السكـير » كما جاء في تعريف الاستاذ بورقعة . فـكـلا التـأليفين من نوع الاعتراف وأما كـون الاول رواية والثانـي مسرحية فهذا ليس من شأنه ان يصدنا عن ادغام التـأليفين في واحد لان لفظة « رواية » استعملت سابقا وما زالت تستعمل حتى يومنـا هـذا بمعنى « مسرحية » يبقى ان نتساءل — حتى اذا صح ان التأليفين واحد — عن هذا التـأليف في أي خزينة يوجـد .

هذا أقصى ما انتهى إليه بحثنا في الآثار المخطوطة المنسوبة إلى الشابـي . وإن كان لنا ما نتمناه فهو ان تنشر هذه الآثار عاجلا .

---

(1) الصفحة المؤرخة بيوم الاربعاء 5 فيفرى 1930 — نشرت بمجلة « الفكـر » السنة 5 العـدد 3 — ديسمبـر 1959 .

من اشعار ابي القاسم المنسية

نعيد فيما يلي نشر قطع شعرية اربع لابي القاسم الشابي . ثلاث منها وهي « دموع الالم » و « إلى البلبل » و « النفس التائهة » نشرها الشابي لاول مرة بالنهضة الادبية سنة 1928 وأما الرابعة وهي « أيها القلب » فقد اصدرها بمجلة العالم الادبي سنة 1930 .

وهذه القطع الشعرية لم ترد لا في الديوان ولا في كتاب « الادب التونسي » ولا في كتب الاستاذ كرو . وإنها لمن تلك الاشعار المنسية التي نرجو ان يضمها يوما ديوان للشابي جديد جامع .

وريثما يتحقق ذلك رأينا من الفائدة ان ننشرها ثانية مساهمة منا في التعريف بما قد غبر من اشعار الشابي وأصبح مجهولا إلا من بعض الاخصائيين القلائل .

ونحن نود بهذه المناسبة ان نثير مشكلة هامة لم يتنبه إليها جل من درس شعر الشابي بل منهم حتى من انكر وجودها بتاتا .

وذلك ان القطع الاربع تدل — بما بينها من اختلاف الروح والاسلوب — دلالة واضحة على ان الشابي في الطور الاول — على الاقل — من حياته الادبية لم يستقر بعد على مذهب شعري واحد وأنه ليلتمس سبيله بين السبل مترددا بين القديم والجديد بل واقصى الجديد إن صح التعبير . وأن حظه من الابداع والافتتان جد متفاوت بين القطعة والاخرى .

وهذا ما يناقض زعم من زعم ان العبقرية الشعرية لدى الشابي قد تجلت دفعة واحدة في تمام روعتها . ومنهم السيد الحليوي إذ يقول : « فأول ما يسجله مؤرخ الادب عند كتابة تاريخ الشابي هو ظهوره فجأة كشاعر تام النضج مستكمل التكوين له مذهبه في الحياة ونظرته في الكون كما له اسلوبه

الخاص في الشعر وطريقته الذاتية في الاستعارة والخيال » (1). وقد نحا نحـوه السيخ السنوسـي فقـال : « فالشابي قد ولـد (في عـالـم الادب) بـاهـرا في العيـــون » (2) .

فهذه النظرية التـي تزعم ان العبقرية إنما تبلغ القمة ظفرة واحدة خاطئة لانها مخالفة للواقع بصفة عامّـة ولحقيقة نشأة الشابـي الادبية بصفة خاصة . وهذا لا يعنـي طبعا ان ما ننشره اليوم من اشعار الشابـي خلو من بعض ما سيكـون في القصائد الناضجة خصائصه المميزة له .

فما عليك إلا أن تطالع « دمـوع الالم » لتتحقـق ممـا قدمنـا فأنت تـرى الشابـي في هذه القصيدة يتململ في إطار النظم القديم مثلما يتململ من البس ثوبا لم يفصل على قده . فالموضوع جديد من جنس الموضوعات المحببة إلى نفس الشابـي والتـي ستحظى منه — فيمـا بعد — بالقسط الاوفر من اشعاره ولـكـن الاسلوب تقليدي بل ولا يخلو من بعض الاسفاف . فالروح فاترة وليس من سبك إلا الفاظ مرصوفـة في شـيء من الـكـد احيانا ولا من موسيقى إلا قـواف تصفق بعضها قلق في موضعه نافر وبعضها معاد مكـرر كـأنما يَنم على قلـة بضاعة لغوية . وأما الخيال فهو لا يعدو « الخيال المجازي » الذي شد ما يـكـرهه ابـو القــاسم .

فأين ذلك النفس الشعري العتيد الذي يتدفق متوثبا في القصائد الناضجة ؟ وأين تلك العاطفة المشبوبة التـي يسري توهجها إلى النفوس ؟ وأين ذلك الخيال المبدع الذي ينفلق في شعره الراقـي رؤى حالمة وصورا متـألقة تفتح للأعيـن آفـاق عوالم خفية ؟ وأين تلك الموسيقى العجيبة التـي لا تدري من أين أي شـيء تـأتت وإنما تشعر بها تارة لذيذة تهدهد نفسك في رفق وطورا عنيفة صاخبـة توتر اعصابك وتلهبها ؟

(1) مـكـان الشابـي في الأدب العربـي « مع الشابـي » ص . 103 .
(2) ابـو القاسم الشابـي حيـاته وأدبـه ص . 8 .

كل هذا مفقود ولامراء من هذه القصيدة .

وبينا هو كذلك في « دموع الالم » إذ تراه في « إلى البلبل » يخلع عنه ثوب القديم ويجاوز حدود التقليد إلى النمط الشعري الحديث بما فيه من تقسيم القصيدة إلى مقاطع وتنويع في القوافي والحرص — عامّة — على توفير عناصر النغم حتى تصبح القصيدة ترنيمة واحدة من بدايتها إلى نهايتها وتوخي ضرب من الخيال جديد ينفخ في الكائنات والمعاني روحا ويسبغ عليها حياة .

ولسنا نزعم مع ذلك ان الشابي قد بلغ في هذه القصيدة القمة ولكنك واجد فيها بذور ما سيينع ويزدهر في رائع شعره من خصائصه الفنية .

ثم ترى الشابي في « النفس التائهة » يثب وثبة أخرى فيتحلل نهائيا من قيود الشعر كلها من الوزن والقافية ويرسله نثرا حرا يظل مع ذلك شعرا خالصا في غنائيته وترديده وعامة روحه وكذلك الامر بالنسبة إلى « أيها القلب » (1) .

وقد نشرت القطعتان بعنوان « من الشعر المنثور » وليس الامر كذلك لان ما يسمى بالشعر المنثور وإن تخلص من القافية والاوزان التقليدية قد حافظ على كيان البيت باعتباره الوحدة الشعرية بينما حطم ابو القاسم البيت تحطيما كأنما فيه تحديد لطلقه الشعري المديد فلعل تسميته « النثر الشعري » اوفق .

ويبدو ان ابا القاسم هو المبتكر لهذا الضرب من الشعر في تونس . فقد قال السيد الهادي العبيدي في محاضرة له عن « شعر التونسيين وإلى أين وصل » « على ان الشابي قد أضاف إلى هذا الانقلاب الذي أحدثه انقلابا آخر حيث ادخل في الشعر التونسي نوعا جديدا هو الشعر المنثور او المرسل وأنشأ فيه مقطوعات فنية جميلة » (2) .

(1) يعتبر الحليوي هذه القطعة جزءا من اليوميات .
(2) « الزمان » عدد 197 — 14 نوفمبر 1933 .

ومما لا شك فيه ان الشابـي قد أخذ هذا الفن عن بعض المشرقيين وخاصة عن الريحانـي وبه قد استشهد الشيـخ السنوسـي في فصله عن « الشعر المنثور » الذي نشره أول مرة بعدد 10 ماي 1928 من النهضة الادبية ثم أعاد نشره مع بعض التنقيـح في مجلة العالم الادبـي عدد 6 شهر اوت 1930 ويبدو ان الشيـخ السنوسـي ما نشر فصله للمرة الاولى إلا لان الشابـي أثار بقطعته مشـكـلة الشعر المنثور وإن لم يذكـر السنوسـي ابا القاسم في كـلامه . وقد نشرت القطعة الثانية « أيها القلب » في عدد العالم الادبـي الذي أعاد فيه الشيـخ السنوسـي نشر فصله ولم يذكـر الشابـي مرة ثانية على ان القطعة وردت كـشاهد على حيويـة هذا اللون الشعري الجديد في تونس بفضل ابـي القاسم الشابـي .

ولم نقع لشاعرنا على قطع أخرى (3) من هذا النوع وإن كان كـلام السيد العبيدي يفيد وجود اكـثر من قطعتين .

والجدير بالملاحظة ان ابا القاسم لم ينتخب لديوانه ولو قطعة واحدة مـن الشعر المنثور فهل تراه طلق هذا الفن فيما بعد ولماذا ؟

(3) نشرت « العالم الأدبـي » في عدد 7 سنة 1930 قطعة بعنوان « أغنية الألم » وهـي شبيهـة في أسلوبها بالقطعتين المذكورتين أعلاه ولـكـن الحليوي ردها إلى اليوميات وقد أعاد نشرها الاستاذ كـرو في كـتابه « الشابي : حياته وشعره » ص 281 من الطبعة الثالثة 1960 .

دمــوع الالــم

حسـرات تهيجهـا الـذكـريـات ودمـــوع تفيضهـا الشهقـــات
وشجــون تثيـر في القلـــب آلا مـا تغنـــي بصوتهـــا الانـــات
مـن لقلـب إذا تنهـــد حـزنــا صـد عنـه الشجـون والغصـات ؟
مـن لنفس إذا استحـرّ أسـاهــا جمـــدت في علومها (1) العبرات ؟
كـلمـا مضهـا الـزمـان بـرزء عـذبتهـا بصـوتهـا الذكـريـات
مـا أمض الحيـاة إن ساورتهـــا بيـــن هـــوات يـأسهـا الحسـرات
أمـل ضـائـع وقلـب عنيـــد مـزقتـه الخطـــوب والصعقـات

***

مـا ندبـت الحيـاة إلا وسمعـــي ملـؤه مـن نشيجهـا شهقـــات
كـلمـا طـافـت الحيـاة حـوا لي هـوت مـن جفـونهـا العبـرات
مـا كـرهـت الحيـاة إلا لان النـــاس في راحـة الـردى حصـوات
وهـــي جبـارة تـدوس بنيهــا وتغنـي وهـــم لـديهـا رفـات
غيـر أنـي رأيتهـا وهـي تبـكـــي فـأفاقــت بمهجتـي الـزفـرات
آلمتنـــي شجـونهـــا فتعـــذبـــت وطـارت بغبطتي الهفـوات
وشجتنـــي دمـــوعهـا فتـألمـــت وغـاضت بمهجتـي البسمـات

***

عشـت في حـومـة الدهـور بـآرا ئـــي ومـــا تســـر الحيــــاة
وغـدا إن قضيـت غـارت شجونـي وطـوانـي لـدى القبـور السبـات
فنسيـت الشقـاء والدمـع واليـا س ونـامت بمهجتـي الحـركـات
وقضـى في سكـبتـي طائر الحـز ن واغفـت بصـدره الندبـات
هـكـذا يلجـم المنون فـؤادي وتهـب الحقـائق الخـالـدات

النهضة : يوم الاربعاء 25 جانفي 1928

(1) ولعلـه « عيـونهـا » (ت . ب) .

إلى البلبــــل

أيهــا البلبــل يــا شاعــر احــلام الــربيــع
غننــي ان عــلى صــوتك أنــداء الــدمــوع
غنني فهــو يــريني امــل القلــب الصريــع
تــائـه الفــكــر يناجي حيرة الفــكــر الشريد
بخشــــوع وسكـــــون وحنيـــــن
يتــكــلم

انفــض الطــل ففــي الطــل حيــاة حــائــره
شردتهــا عــن فــؤاد الليــل كــف جائــره
وتغــرد إن للـــوردة عينـــا فــاتـــــره
أغمضتهــا راحــة الليــل فقد هب الصباح
إنمـــا أنـــت حـيـــاة ســاحـــره
تتــرنم

رتــل التغــريــد شعريــا على شمــع الــزهــور
واتــرك الــرقــة تهفــو حــول اوراد الغدير
فعــروس النهــر قــد هبــت يناغيها الخرير
وتصبــت نسمــة الفجــر الشعــاع المستطيــر
مثـــل هفـــاف الغيـــوم السابحـــه
في ضحــاهــا

إن الحـــان الظـــلام اثـــرة المكتئبـــه
تتـــوارى بسكـــون خلــف تلك الاسحبـــه
سئـــم الـــورد أنيـــن اللوعـــة المنتحبـــه

فـأنشد اللحن رخيمـا يطرب الكـون رنيمـه
وادفـن الحسـرة في اللحـد الـرحيـب
ورؤاها

فيك يا بلبل ما في الشعر من وحي تعوب
فيك ما في الفجر من رقة لالاء طروب
فيك ما في الكون من فن ومن سحر خلوب
فيك ما في الزهرة الغضة من شعر الدموع
فيك ما في الدمعة المنحدره
من معاني

انفث الشعر ففي شعرك روح خالده
كلما هبت على تلك الزهور الراقده
أيقظت في صدرها نبض الحياة الهاجده
فاستفاقت تتغنى باغان ساجيه
وعلى اجفانها سحر نضير
وأمان

فيك يا طير توجست أغاريد الحياه
وتسمعت لصوت ضل عن قلبي صداه
فغدا ينشده لكنه خاب وتاه
فتهاوى مضرم الغلة مشبوبا صداه
لاغاريد الحياة الضائعه
ولغاها

إن في صدرك اوتار السماء الساجعه
وبأعماقك أحلام الحياة الرائعه

وبآفاقك فجرا من حياة راتعه
في رياض الظهر في تلك المغاني الخالده
وبأجفانك أضواء عذاب
من سماها

أنت لحن ساحر قد جسم الدهر صداه
فغدا يهتف صداحا بأنغام هواه
رامقا في نضرة الازهار أطياف مناه
ساكبا من قلبه الطافح بالوحي لحونه
في فؤاد الوردة المستمعه
لرخيمه

من نشيد القلب في ظل الحياة الشاعرة
من دموع الحبّ من سحر الاماني الناضرة
من لظى اللوعة في تلك الاغاني الحائرة
في عيون الخرد العين ضياء ضاحكا
صاغك الدهر ملاكا ساحرا
برنيمة

أنت قلب الشاعر المترع بالحب النمير
ساءه موطنه الضنك ومأواه الحقير
فهفا والشوق يدنيه إلى النور النضير
ثم أمسى بين افنان الغياض العازفة
شاعرا يشطر الوحي الجميل
من حياته

صوتك المشبوب من نار الحياة الخالده
جائشا بالنغمة السكرى الطروب الشارده
يبعث الامال بالنفس اليؤوس الخامده
مثلما تنبعث البسمة من جفن الحياه
حينما يستيقظ الفجر الجميل
من سباته

« النهضة » – 1 فيفري 1928

من الشعر المنثور

« النفس التائهة »

يا إله الحياة والموت !

انني وحيد تائه في احشاء الفلاة القاتمة .

ومن مستقر وحدتي وانفرادى أدعوك يا ربي لتنجدني في بيداء الحياة .

**

لقد طفحت نفسي بسآمة الفلاة الخرساء .

وامتلأ قلبي بهدير البحار الزاخرة .

وجاشت جوانحي بزوبعة الظلام المتنمرة . تلك الزوبعة التي تتكلم بصوت أمر من القنوط وادهى من سنابك الايام .

وكلت اجفاني من مشاهدة الصخور الصماء الرابضة كأفئدة الجبابرة المتساندة كأحلام ماردية اعياها المسير تلك الصخور التي عانقتها هجمات الزمن واحلام الدهور الخالية فظلت ناعسة وقد خضبتها عبراتي وما فتئت جامدة وقد لامستها احزاني لانها لا تفقه وحي الدموع ولا تشعر بأنجحة الاسى....

**

دعوت رفيقي البعيد... وكثيرا ما دعوته . ولكنه قد ظل محتجبا بالظلام مختفيا في طوايا السديم .

دعوت رفيقي البعيد... وكثيرا ما دعوته .

دعوته في آصال الحياة وأسحارها . وفي تبلج الدهر وقطوبه . دعوته باسمائه المستعذبة وكناه المستحبة . ولكنه قد ظل نائيا عني . مضطجعا في غمام الجبل . غير راحم وحدتي ولا آبه لتلهفي واشتياقي .

دعوته في ضحوة نهاري حينما ترتعش الافياء بين الهضاب وتنطلق احلام الصباح من اوكارها مرتعبة انداء الظلم . متلمعة بين الاشعة فكنت اقف بين الجبال المتشامخة كأشباح الدهور داعيا : « يا رفيقي ! يا رفيقي ! » .

دعوت رفيقي البعيد... وكثيرا ما دعوته .

دعوته في ضرام الهاجرة عندما تتمايل ظهيرة يومي فوق الفنن وتناسب الظلال نحو الكهوف فكنت اقف بين الكهوف المتناوحة . كذكرى قصية حائمة بين قلوب هدمتها الحياة مناديا « يا رفيقي ! يا رفيقي ! » .

دعوته في الغروب إذ يداعب النوم اجفان الوجود . وتراقص الاحلام ذاكرة الزمن فكان صوتي ينبعث من شفتي حارقا : « يا رفيقي أين أنت ! ؟ » وكطائر ضل عن سربه بين الرمال . ينطلق صوتي حائرا مكتئبا ضاربا في بيداء الفلاة حتى تعترضه بنات الكهوف الهائمة هاتفة « ...أين أنت ؟ » .

إيه يا حياة ! إيه يا حياة... لم يبق لي فيك من رفيق اسمع في صوته خفقان قلبي وفي وحيه هجسات روحي وفي عينيه رفرفة أحلامي إيه يا حياة !

لم يبق لي فيك من رفيق في هذه الفلاة الموحشة الا عرائس الاودية الضائعة بين الجبال واصداء الجبال التائهة بين الاودية ؟ إيه يا حياة...

إيه يا حياة !... ولكن حينما تعصف بي عواصف الموت . فسيهجرني حتى الصدى وستسلوني حتى احزاني الباكية إيه يا حياة...

وعندما يحتبس في صدري النحيب وتصم في مسمعي الاصداء وتمتلىء اجفاني بظلمات المنون فسأثوى حتى الابد بين هاته الصخور الخرساء . التي لم يتوهم باعماقها لهيب السماء ولا داعبت احلامها انامل الشفق ولا قبلت افئدتها يقظة الصباح .

إيه يا حياة !... ولكنني إذا ما قضيت فسأنطرح حتى الابد بين هاته الاودية الجرداء التي لا تذرف علي دمعة . ولا ترسل لاجلي تنهدة ولطالما بللت جوانبها بالدموع واترعت مسامعها بالنواح .

إيه يا حياة... وآها منك يا ابنة الدهر .

⁂

يا إله الحياة والموت .

إنني ضائع مستوحد غريب ضللت سبيلي في هذه الفلاة الموحشة الضائعة بين فلوات الابد... إنني ضائع مستوحد غريب . عدمت رفيقي في ظلمة الليل وتخطفت بنات الجن مزماري الذي كنت اطرد به سآمة القفْر وعبوس الفلاة .

يا إله الحياة والموت !

إنني ضائع مستوحد غريب ملأت اجنحة الاحزان الملتظية جوانب نفسي بحفيف ملتهب أليم .

إنني ضائع مستوحد غريب قد التهمت انفاس الهاوية جحيم قلبي الذى كان مخضلا بدموعه الشعرية فاصبح صامتا مقفرا كعش الخريف واهيا متهدما كالضريح العهيد .

هل أنت سامع صوتي يا إله الحياة والموت ؟ ومصغ لتنهدات اوجاعي يا منجد القلوب الضائعة ؟

هل أنت ناظر إلى قدمي اللتين كلمتهما الصخور وإلى عبراتي التي ضرجتها الدماء ؟ ؟ .

***

هل أنت مصغ وناظر إلى يا منير الابصار المطبقة ؟
متى أرى يا إلهي احلامي مرفرفة بين الغيوم ؟ واسمعها متغنية فوق الرياح؟
ومتى أرى قلبي مترنما واسمع روحي متكلما ؟
ومتى ابصر اعماقي تهتز بابتسامات الربيع ؟
وانظر اجفاني مكحولة بأنوار الصباح ؟
ومتى تستنبت السماء الورود بين السبل العارية ؟..
وتستبدل الفلاة الهاجدة... بفردوس متغرد يقظ ؟
ومتى أعرف سبيلي يا إله الحياة والموت ! ؟ .

ابو القاسم الشابي

النهضة الأدبية . 16 فيفري 1928

الشعـــر المنشـــور

ايهـا القلـــــب

...أبين الامواج الباسمة . تتهادى اصداء قلبـي . وابتسامات روحـي ؟

أم في اعماق الهاوية . تتمرغ على مضض الحانـي وانغامـي ؟ .

لتقترب إلى قلبـي ايها النهر المتغرد فعسى ان يحس قلبـي لاغانيك الطائعـة رنّـة هاجعة بين الحانك وعسى أن تبصر روحـي الكـئيبة بين طيوف تلك الحياة القصية الشاردة فلقد قضت في قلبـي الاخرس نغمة الحبّ الثمـلى برحيق السماء وتجمدت اغنية النفس في قلب الوتر الخفوق فلم تعد تسمع الحياة من وتري او من شفتـي رنـات النياحـة والنديـب . امـا تلك النغمـة الهفافـة والجذابـة فقـد أمست كـئيبة واجمة وكـأنما هـي طيف المساء الصامت الحزين .

كـفى أيها القلب ! فقد اعتم الليل . ونامت أغانـي الامواج بين صخـــور الوادي وسيـأتـي الفجر الضحوك فيوقظها من سبات الظلام . أما أنت فستلبث معتمـــا حتـى الابـــد !

كـفى أيها القلب ! فقد اغفت اجفان الزهور . ولم تعد تبصر إلا الامـل الحالم بأضواء الغد . وسيأتـي الصباح . فيمسح اجفانها بدموعه الظاهرة . أما أنت فستظل تائها في بيداء القنوط دون أن تطبق جفنيك على جداول الدموع او تفتـكر بابتسامـة الآتـي .

ابو القاسم الشابـي

العالم الادبي عدد 6 شهر اوت 1930

معارضة أولى بين القصائد الواردة في « اغاني الحياة » وبين ما نشر من اشعار الشابي قبل طبع الديوان

يحتوي ديوان « أغاني الحياة » على 92 قصيدة ومقطوعة منها 83 كان ابو القاسم انتقاها بنفسه لهذا الديوان بعد المراجعة والتنقيح و 9 رأى الاستاذ الامين الشابي أن يضيفها إلى قصائد الديوان الاصلية وهي « تونس الجميلة » « نظرة في الحياة » ، « انشودة الرعد » ، « في الظلام » ، « أيها الليل » ، « شعري » ، « أيها الحب » ، « أغنية الاحزان » ، « جدول الحب » .

وتنقسم أشعار الديوان إلى قسمين : قسم كان قد نشر قبل طبع الديوان ونعرف موقع نشره وقسم يبدو انه نشر لاول مرة في الديوان .

ومن الاشعار المنشورة قبل طبع الديوان ما ورد في كتاب الشيخ السنوسي « الادب التونسي في القرن الرابع عشر » ومنها ما صدر لاول مرة بجريدة « النهضة » او بصحف مجلات مختلفة دل عليها الاستاذ محمد الحليوي في ثبته المعروف .

ومساهمة منا في تيسير العمل على الدارسين وفي توفير بعض المواد لطبعة علمية تتناول كل أشعار الشابي عمدنا إلى المعارضة بين قصائد الديوان وما نشر من أشعار الشابي سابقا فلخصنا نتائج تلك المعارضة في جداول متعددة أشرنا فيها إلى ما أهمله الشابي من اشعاره وإلى ما اصطفاه لديوانه منها مع التنقيح او دونه ونبهنا إلى ما أدخله من تغيير على العناوين أحيانا ومن تحوير في ابيات القطعة الواحدة بالتنقيص منها او الزيادة عليها او بابدال بيت كامل من آخر ولم نعن بضبط التنقيحات التفصيلية لان ذلك يتطلب من اتساع الوقت ما ليس لنا اليوم إلا فيما يتعلق بالقصائد التي نشرتها النهضة سنة 1928 ، وكذلك لم

نر ان نجعل جدولا لما في الديوان من قصائد دلنا الاستاذ محمد الحليوي على موقع نشرها للمرة الاولى في الصحف والمجلات القديمة فقد كفانا حضرته مؤونة ذلك وإن كنا نخالفه فيما ذهب إليه من ترتيب بعضها مما نشرته مجلة « العالم الادبي » سابقا .

(1) جدول لما ورد في « أغاني الحياة » من اشعار الشابي ولم تدل المصادر على أنه نشر قبل طبع الديوان

	عنوان القصيدة	المطلع	الصفحة
1	خلة للموت	كل قلب حمل الخسف وما مل من ذل الحياة الأرذل	14
2	الكآبة المجهولة	أنا كئيب أنا غريب	22
3	الحب	الحب شعلة نور ساحر هبطت من السماء فكانت ساطع الفلق	45
4	سر مع الدهر	سر مع الدهر لا تصدنك الا هوال أو تفزعنك الاحداث	52
5	الذكرى	كنا كزوجي طائر في دوحة الحب الامين	53
6	مناجاة عصفور	يا أيها الشادي المغرد ها هنا ثملا بغبطة قلبه المسرور	55
7	الطفولة	لله ما أحلى الطفولة ! إنها حلم الحياة	57
8	قالت الايام	يا أيها السادر في غيه !ـ يا واقفا فوق حطام الجباه !	58
9	إلى الموت	صبي الحياة الشقي العنيد ألا قد ضللت الضلال البعيد	76
10	صوت تائه	قضيت ادوار الحياة مفكرا في الكائنات معذبا مهموما	81
11	إلى قلبي التائه	ما لآ فاقك يا قلبي سودا حالكات	91
12	أكثرت يا قلبي فماذا تروم	يا قلبي الدامي ! إلام الوجوم ؟ يكفيك ! إن الحزن فظ غشوم	93
13	إلى الله	يا إله الوجود ! هذي جراح في فؤادي تشكو إليك الدواهي	98
14	صفحة من كتاب الدموع	غناه الامس وأطربه وشجاه اليوم فما غده ؟	106
15	شجون	عجبا لي أود أن أفهم الكون ونفسي لم تستطع فهم نفسي !	108

بقيـة الجـدول الاول

	عنـوان القصيـدة	المطلـع	الصفحة
16	إلى عذارى افروديت : طريق الهـاوية	يـا عـذارى الجمال والحب والاحـلام بـل يـا بهـاء هـذا الوجـود خلـق البلبـل الجميـل ليشـدو وخلقتـن للغـرام السعيـد	110
17	قيـود الاحـلام	وأود أن أحيـا بفكـر شاعـر فـأرى الوجـود يضيق عن أحلامـي	115
18	رثـاء فجـر	يا أيهـا الغـاب المنمـق بالاشعـة والـورود !	126
19	حديـث المقبـرة	أتفنـى ابتسامات تلك الجفـون ؟ ويخبـو تـوهـج تلك الخـدود ؟ــ	134
20	متـاعب العظمـة	اذا صغرت نفس الفتى كان شوقـه صغيـرا فلـم يتعـب ولم يتجشـم	146
21	ذكـرى الصبـاح	قـدس الله ذكـره مـن صبـاح ساحـر فى ضـلال غـاب جميـل	162
22	حـرم الامـومـة	الأم تلثـم طفلهـا وتضمـه حـرم سمـاوي الجمـال مقـدس	182
23	شكـوى ضـائعـة	يا ليل ما تصنع النفس التي سكنت هـذا الـوجـود ومن اعدائها القـدر ؟	186
24	الغـاب	بيـت بنتـه لي الحيـاة مـن الشـذى والظـل والاضـواء والانغـام	188
25	فلسفة الثعبان المقدس	كـان الربيـع الحـي روحـا حـالمـا غـض الشبـاب معطـر الجلبـاب	192

(2) جدول لما كان نشر في كتاب « الادب التونسي » من اشعار الشابي ثم ورد في ديوان « أغاني الحياة »

عدد رتبي	العنوان « في الأدب التونسي »	عدد الأبيات	الصفحة	العنوان في الديوان	عدد الأبيات	الصفحة	مواضع الابدال والنقص والزيادة في الأبيات
1	شكوى اليتيم	24	209	شكوى اليتيم	24	29	لم يغير من أبياتها
2	الدموع..................	17	211	الدموع..................	15	46	حذف منها البيتين 7 و 17
3	الحق....................	7	212	إلى الطاغية................	15	43	أبقى منها في « إلى الطاغية » الأبيات 2 — 3 — 4 — 7 وأهمل البقية
4	نشيد الأمل	24	213	أغنية الأحزان..........	66	47	جعل الأبيات الستة الأولى منها في بداية « أغاني الأحزان » والبقية في نهايتها
5	لعلعلة الحق	4	214	إلى الطاغية	15	43	أدمجها في « إلى الطاغية » وهي الابيات الاربعة الاولى منها
6	أيها الليل	56	215	أيها الليل	56	25	لم يغير من أبياتها
7	الملل الأليم............	12	219	السآمة	12	44	لم يغير من أبياتها
8	يا شعر..................	94	221	يا شعر..................	98	35	زاد عليها في الديوان الأبيات 31 — 32 — 35 — 36
9	شعري	15	227	شعري	22	33	زاد عليها في الديوان الأبيات السبعة الأخيرة
10	مأتم القلب	30	228	مأتم الحب	30	20	لم يغير من ابياتها
11	أغنية الأحزان...........	42	230	أغنية الأحزان...........	66	47	وهي من قصيدة الديوان البيت السابع إلى الثامن والأربعين

بقية الجدول الثانى

عدد رتبي	العنوان « في الأدب التونسي »	عدد الأبيات	الصفحة	العنوان في الديوان	عدد الأبيات	الصفحة	مواضع الابدال والنقص والزيادة في الأبيات
12	الزنبقة الذابلة.........	24	235	الزنبقة الذاوية	24	31	عدد الأبيات واحد ولكن الشاعر عوض بعضها بأخرى وهي الأبيات 12 — 21 — 22 — 23 — 24
13	الحيـــاة	17	237	الحيـــاة	3	15	ابقى منها في الديوان الأبيات 9 — 10 — 11 واهمل البقية
14	الأمل والقنوط	8	238	غرفة من يم	14	17	عوض منها البيت 6 بآخر وجعلها القسم الأول من « غرفة من يم »
15	نظرة في الحياة	24	239	نظرة فى الحياة	24	15	لم يغير من أبياتها
16	الحـــرب..............	7	240	غرفة من يم	14	17	جعل الأبيات الستة الأولى منها القسم الثاني من « غرفة من يم » وأهمل البيت السابع
17	انشودة الرعد	14	241	انشودة الرعد	14	18	لم يغير من أبياتها
18	في الظـــلام...............	10	242	في الظـــلام................	12	19	زاد عليها في الديوان بيتين وهما 3 و 4
19	كلم الشيوخ	6	243	من حديث الشيوخ	4	14	حذف منها البيت الأول والثاني
20	أيها الحب............	10	244	أيها الحب............	9	45	حذف منها البيت الأخير
21	الصوت الكئيب	13	248	تونس الجميلة	15	13	زاد عليها البيتين 11 و 13
22	جدول الحب	58	251	جـول الحب	58	69	لم يغير من أبتاتها

(3) جدول لما نشر في كتاب « الادب التونسي » من اشعار الشابي ولم يثبت في ديوان « أغاني الحياة »

عدد رتبي	العنوان	المطلع	عدد الابيات	الصفحة
1	جمال الحياة	سرت في الروض وقد لا حت تباشير الصباح	16	220
2	إياك	إياك والتحديق من خلل البراقع للحور	4	229
3	كهرباء الغرام	كهرباء الغرام في الأعين النجل وتيارها بسلك الجفون	4	232
4	صيحة الحب	نسمة هبت على ضوء القمر نفخت في ناي احزان الخلد	24	233
5	وعود الغواني	عللتني يا تشاف الضرب من جنى ثغر جميل أشنب	4	243
6	ليلة عند الحبيب	أمأسور لذات الحجب بنبال صوبت عن كثب	4	245
7	الفتنة الساحرة	قلبي تردى من علا صهوات خيل الهوى فغدا أسير فتاة	6	246
8	ليت شعري	مزقت ثوب سكون الليل أنات كليم	14	247
9	في سكون الليل	أيها الليل الكئيب ! أيها الليل الغريب	31	249

(4) جدول لاشعار نشرت للشابي سابقا بجريدة « النهضة » ولم ترد في ديوان « أغاني الحياة »

عدد رتبي	العنوان	المطلع	عدد الأبيات	التاريخ
1	دموع الألم	حسرات تهجيها الذكريات ودموع تفيضها الشهقات	19	28/1/25
2	إلى البلبل	أيها البلبل يا شاعر احلام الربيع	60	28/2/1

(5) جدول لما نشر لاول مرة فى جريدة « النهضة » من اشعار الشابى ثم ورد ثانيا فى ديوان « اغانى الحياة »

تفسير الرموز :

الرقم قبل البيت : موقع البيت فى القصيدة كما وردت فى « النهضة » ــ ن · رواية النهضة ــ د : رواية الديوان

عدد رتبى	عنوان القصيدة فى « النهضة »	عدد الابيات	التاريخ	عنوان القصيدة فى الديوان	عدد الابيات	الصفحة
I	بقايا الخريف	34	28/3/8	بقايا الخريف	34	62

مواقع الاختلاف بين الروايتين

(3)	وجاشت بنفسى دموع الحياة	وعجت بقلبى **خطوب الحتوف** (ن)
	وجاشت بنفسى دموع الحياة	وعجت بقلبى **رياح الصروف** (د)
(5)	ونوح اليتامى على أمهات	**ترامت بهن رياح الصروف** (ن)
	ونوح اليتامى على آمهات	**تـوارين خلف ظلام الحتوف** (د)
(6)	فسرت الى حيث تأوى **أما**	**نى** الربيع وتذوى آمانى الخريف (ن)
	فسرت الى حيث تأوى **أغا**	**نى** الربيع وتذوى آمانى الخريف (د)
(7)	وحيث الفضا **هاجع** حالم	يناجى السهول بوحى طريف (ن)
	وحيث الفضا **شاعر** حالم	يناجى السهول بوحى طريف (د)
(8)	وقد **دثرتها** غيوم المساء	بظل حزين ضريج شفيف (ن)
	وقد **دثرته** غيوم المساء	بظل حزين ضريج شفيف (د)
(18)	**تناغى** به لبها المستطار	وترثى به ما طوته الحتوف (ن)
	تباكى به لبها المستطار	وترثى به ما طوته الحتوف (د)
(20)	ولكن لقد **ثكلت من يصيخ**	**وعز لديها الفؤاد الرؤوف** (ن)
	ولكن لقد **فقدت فى الوجود**	**رفيقا مصيخا وقلبا رؤوف** (د)
(24)	فبانت حيال الغدير **الأجم**	وقد أخرس الموت ذاك الحفيف (ن)
	فبانت حيال الغدير **الأصم**	وقد أخرس الموت ذاك الحفيف (د)
(26)	فسلها « ترى كيف غاض الأريج	وكيف **ذوت بسمات** الرفيف (ن)
	فسلها « ترى كيف غاض الأريج	وكيف **ذوى سحر ذاك** الرفيف (د)
(27)	وكيف خبت **نظرات** الحياة	بأجفانها وعراها الكسوف (ن)
	وكيف خبت **بسمات** الحياة	بأجفانها وعراها الكسوف (د)
(31)	فقلبت طرفى بمهوى الزهور	**ومضجعها فى الجميم اللفيف** (ن)
	فقلبت طرفى بمهوى الزهور	**وصعدته فى الفضاء الأسيف** (د)
(32)	وقلت « **اذا سناء شدو الربيع**	**فيا حبذا نائحات الخريف** » (ن)
	وقلت « **هو الكون مهد الجمال**	**ولكن لكل جمال خريف !** » (د)
(33)	**وحدقت نحو الغمام الجريح**	وقد غشى النفس هم كثيف (ن)
	وأطرقت اصغى لهمس الأسى	وقد غشى النفس هم كثيف (د)
(34)	**فغاضت** ثمالة نور النهار	وارخى ظلام **الحياة** السجوف (ن)
	وغاضت ثمالة نور النهار	وارخى ظلام **الوجود** السجوف (د)

بقية الجدول الخامس

عدد رتبي	عنوان القصيدة في «النهضة»	عدد الابيات	التاريخ	عنوان القصيدة في الديوان	عدد الابيات	الصفحة
2	مآسي الحياة	54	28/4/12	في فجاج الألم	54	65

مواقع الاختلاف بين الروايتين

(5) أما يكفكف هذا الزمان **فيض** البلايا **(ن)**
أما يكفكف هذا الزمان **صوب** البلايا **(د)**

(12) وسوف **يقضي خريف** الآسي ويأتي ربيعك **(ن)**
وسوف **يمضي شتاء** الآسي ويأتي ربيعك **(د)**

(18) « ومن لي **بلحد ضريح** يضمني وشكاتي **(ن)**
« ومن لي **بحفرة قبر** يضمني وشكاتي **(د)**

(24) **صاحت رداح وماتت «ويلاه ! هل** تتركونه **(ن)**
ناحت عليه فتاة « ويل لمن تتركونه **(د)**

(25) كان الصبي **يناغي الطيور** بين الزهور **(ن)**
كان الصبي **يصيد الفراش** بين الزهور **(د)**

(41) **ويطربون** لصوت الأشواك وهو مريع **(ن)**
وينصتون لصوت الأشواك وهو مريع **(د)**

(52) وأنت **نبع** جميل بين الهضاب الجديبة **(ن)**
وأنت **روح** جميل بين الهضاب الجديبه **(د)**

عدد رتبي	عنوان القصيدة في «النهضة»	عدد الابيات	التاريخ	عنوان القصيدة في الديوان	عدد الابيات	الصفحة
3	أغنية الشاعر	19	28/5/24	أغنية الشاعر	18	64

مواقع الاختلاف بين الروايتين

(3) **ناحت** بنفسي **مراثيها** وما وجدت ... قلبا عطوفا يسليها فعزيني **(ن)**
ناخت بنفسي **مآسيها** وما وجدت ... قلبا عطوفا يسليها فعزيني **(د)**

(4) **وظمئت في هذه الدنيا ... وأحزنني ... أن ليس في كهفها نبع يرويني (ن)**
(لا وجود له في رواية الديوان)

(13) ورتلي حول « **قبر الحزن** » أغنية ... تجلو عن النفس أحزان الآحايين **(ن)**
ورتلي حول **بيت الحزن** أغنية ... تجلو عن النفس أحزان الآحايين **(د)**

(14) فان قلبي **لحد** مظلم قبرت ... فيه الأماني فما عادت تناغيني **(ن)**
فان قلبي **قبر** مظلم قبرت ... فيه الأماني فما عادت تناغيني **(د)**

(15) لو لاك في هذه الدنيا لما لمست ... اوتار **قلبي أغاريد** الآفانين **(ن)**
لو لاك في هذه الدنيا لما لمست ... اوتار **روحي اصوات** الآفانين **(د)**

تـأبيــن جبــران

هذا نص كلمة كان ارسلها ابو القاسم الشابـي ـــ وقد تعذر عليه القدوم إلى العاصمة ـــ لتتـلى على الحضـور في حفلـة تـأبين جبـران التـي اقيمت بتونس واوردتهـا جريدة الزمان ضمن مقالهـا الوصفـي عن الحفلـة وقد تولى إلقـاءهـا ـــ نيابة عن الشابـي ـــ الاستاذ مصطفى خريف وجاء بالجريدة المذكـورة في هذا الصدد ما يلي : « ثم قام الشيـخ مصطفى خريف يتلو على الحضور اعتذارات الادباء الذين تعذر عليهم المشاركـة بالحضور وكان من بينهم الاستاذ ابو القاسم الشابـي صاحب (الخيال الشعري عند العرب) فدوى على ذكـر اسمه النـادى بالتصفيق ولا غرو فغيبة الاستاذ عن العاصمة لا تزيد النـاس إلا شـوقـا وكـان لـكـلمة التـأبين التـي ارسل بها أثر كـبير فهو من أول الناشرين لطريقة جبران والعاملين على ترويجها ممـا في روحه من رقة وما في عبارته من سحر خلاب... »

فلو كـنا في حاجة إلى إقامة الدليل على تأثر الشابـي بجبران لـكـان لنـا في ما تقدم من القول خير دليل على ذلك . ولـكـن الامر بات مشهورا فمسألة تتلمذ الشابـي لجبران من أمهات المسائل في دراسة أدب شاعرنا وقل من عرض لدراسة الشابـي بوجه من الوجوه ولم يذكـر تـأثير جبران بل تـأثير سائر مدرسة المهجر في تـكـوينه الشعري على أنك مع ذلك لا تجد دراسة جدية استوفت عنـاصر الموضوع ولعل أهمها الفصل الذي عقده الاستاذ التليسـي في كـتابه « الشـابـي وجبران » (1) .

أمّا ما عدا ذلك فانما هو إشارات عجلى إلى ما ورد من توافق في المعنى بل وحتى في اللفظ وفي روح المذهب عامة بين جبران والشابـي . ولا يمكـن ان يعتبر ذلك من أدب المقارنة كما سبق للاستاذ الشاذلي بويحيى ان نبه إليه في فصل

---

(1) خليفة محمد التليسـي « الشابـي وجبران » ابتداء من صفحة 51 ـــ الطبعة الأولى فيبراير 1957 طـرابلس الغــرب .

له بعنوان « اسبوع ابي القاسم الشابي » (1) . وعندنا انه لا يسعنا ان نجلو أصالة الشابي وطرافته إلا متى درسنا هذه المشكلة درسا وافيا يعتمد على أدق أساليب المقارنة .

وريثما يتم مثل هذه الدراسة نستطيع ان نتدبر هذه الوثيقة النادرة حتى نستخلص منها رأي الشابي في جبران ونتبين بالتالي ما قد يكون استوحاه من ادبه .

والنص في اسلوبه أشبه بالانطلاقة الغنائية منه بالبحث المركز الدقيق لجوانب النبوغ لدى جبران . وإن الشابي ليشيد في كلمته بروح جبران أيما إشادة مما يدل على فائق إعجابه به وبالغ إكباره له . وقد أقام مجده على دعامتين : الاولى تجديده في الاسلوب بما أدخله عليه من طريف المعاني ورائع الاخيلة وتوهج الروح وتجاوب الموسيقى ، والثانية إحياؤه لرفات الادب بما بثه فيه من حياة جياشة تكره على التفكير والشعور والتخيل .

وجملة هذه الخصائص الجبرانية هي — عند التأمل — أهم ما سيمتاز به شعر الشابي نفسه وقد ينفتح لنا من ههنا باب للمقارنة بين الرجلين حبذا لو أن أحد البحاث يلجه ويذهب فيه إلى الغايه .

ويعجبك في النهاية من الشابي انه على اكباره لجبران بصير بعيوبه اللغوية وذلك ان الاعجاب لم يبلغ به حد العمى وهي بادرة تدل من ناحية على أنه يتمتع بقسط وافر من الاستقلال في الرأي ومن ناحية أخرى على أنه بقي — أيا ما كانت جرأته على اللغة بالتوليد والاشتقاق — حريصا على صحة التركيب وسلامة الاساليب مبدئيا .

---

(1) « الفكر » السنة 5 العدد 3 ديسمبر 1959 .

وليست هذه المرة الوحيدة التي ينعى فيها على غلاة المدرسة الشعرية الحديثة خروجهم على قواعد العربية فقد اعاد الكرة في تقديمه « للينبوع » حيث يقول : « وبالجملة فهي تدعو إلى حرية الفن من كل قيد يمنعه الحركة والحياة وهي في ذلك لا تكاد تتفق مع المدرسة القديمة إلا في احترام قواعد اللغة العربية وأصولها بل إن فريقا من متطرفي المدرسة الحديثة لا يعدل بحرية الفن شيئا ولا يحفل في سبيل ذلك حتى بقواعد اللغة وأصولها غير أن صدى هذه الطائفة قد أخذ يخفت ويضمحل ولا شك انه سيفنى مع الزمان فهو ليس إلا طفرة جامحة ككل الطفرات التي تصحب كل انقلاب في حماسة الدعاية الاولى » (1) .

هذا ما تفيدنا به الوثيقة عن علاقة الشابي بجبران .

والآن نريد بهذه المناسبة أن نبدي بعض الاراء فيما يتعلق بمختلف التأثيرات الادبية التي عملت على تكوين الشابي الشعري .

لقد شاع ان الشابي كان من بدايته متأثرا بأدب جبران ومن الذين يؤكدون ذلك — ممن عاشروه — الشيخ الفاضل بن عاشور الذي يروي لنا بعض ذكرياته عن الشابي إبان حياته الطالبية فيقول : « ... فارتفعت فيما بيننا الكلفة وصرت اطارحه أحاديث أدبية كانت تتجه إلى تبادل الاعجاب بمناهج الادب الرمزي العميق وتتصل بشعر ابن الفارض وشعر جبران والمقارنة بينهما .

فكنت أجد عنده اكثر مما عندي من اكبار لجبران وكنت المح فيه ادراكا لاغوار ذلك المنهج يختلف عن الادراك السطحي الشكلي الذي كان يقتنع به شباب الادباء المولعين بشعر المهجر وبلهجة التواضع الذي كان شيمته

(1) الإلمامة — « آثار الشابي » ص . 123 .

والخمول الغالب على طبعه كان يشعرني بأن له محاولات شعرية يجنح فيها إلى اتباع المنهج الرمزي ويعدني بالاطلاع على شيء من ذلك . وبدأت الصحف تنشر له من روائع شعره فوجدت فيه ما هو أسمى من المحاولات... » (1) .

ولكن الاستاذ الحليوي يخالف هذا الرأي الشائع فيخبرنا من ناحيته بأن أدب جبران قد استأثر بنفس الشابي بعد فترة من الزمن وهو يقول في ذلك : « وأغلب ظني ان الاسباب التي جعلت الشابي — رحمه الله — يميل لي هي نفس الاسباب التي جعلتني أتشبث بصداقته . فقد كان كلانا يهيم بابن الرومي والمعري ويقدس العقاد والمازني في كتابه حصاد الهشيم الذي فتح لنا دنيا من الافكار والمقاييس الجديدة للأدب وكان كلانا يعتنق الآراء الحديثة التي ظهرت في فهم الادب ونقده من مدرسة العقاد وطه حسين ونعيمة غير ان الشابي مال فيما بعد إلى أدباء المهجر وبقيت أنا متشبثا بالعقاد لا أبغي به بديلا » (2) .

فان كان الامر كما ذكر الاستاذ الحليوي انفتح لنا باب للبحث جديد يتصل بتأثير الشاعرين القديمين ابن الرومي والمعري صاحبي « الديوان » والعقاد والمازني في تكوين الشابي وذلك قبل تأثير المدرسة المهجرية . وقد سبق لنا ان نبهنا إلى ما في بعض قصائد الشابي الاولى من روح النظم القديم مما قد يقوم دليلا على وجود تأثير الشعر العربي الكلاسيكي لا في الاسلوب فحسب بل وحتى في الافكار . أفلا تجد بعض الشبه بين تشاؤم ابي العلاء وتشاؤم الشابي ! . وبعد فهذا مبحث واسع يقتضي دراسة دقيقة على حدة ونحن نكتفي في هذا المقام بأن ننبه إليه . وعلى كل فتأثير المهجر هو التأثير الغالب على ابي القاسم .

(1) ذكرى الصديق الحليف « الاسبوع » العدد 311 — 24 نوفمبر 1952 .
(2) أدباؤنا باقلامهم — « الندوة » السنة 4 العدد 9 — ديسمبر 1956 .

ومشكلة تأثير جبران على الشابي إنما هي — لو نعلم — جزء من مشكلة أعم هي مشكلة رومنتيكية الشابي وعوامل نشوئها . وهذه العوامل هي عند الاحصاء اربعة : خصائص نفسية الشابي فاحوال بيئته الاجتماعية فتأثير الادب المهجري فتأثير الرومنتيكية الاروبية .

ودراسة هذه العوامل الاربعة وكيف تظافرت فذهبت بالشابي مذهب الرومنتيكية لم تنجز بعد لا بصورة عامة ولا حتى بصورة جزئية (1) فان دل هذا على شيء فانما يدل على ان الشابي . رغم كثرة اللهج بشعره . ما زال لم يحظ منا بما يستحقه من الدراسات العلمية الدقيقة .

ولسنا نطمع لنفسنا في هذا المقام ان نسد هذه الثلمة فهيهات لنا . وإنما نود ان نعرض — عرضا سريعا — لمسألتين من المسائل المتفرعة عن دراسة رومنتيكية الشابي وهما مفهوم الشابي للرومنتيكية وهل التزمها باعتبارها موقفا عاما من الحياة او باعتبارها مجرد مذهب أدبي .

لقد عرف الشابي بمفهوم الرومنتيكية في تقديمه لديوان « الينبوع » لابي شادي كما يلي : « ثم إنه (الادب الاروبي) عثر على كنزه المفقود فأخذ يستمد من الروح الاروبية نفسها مادة حياته التي لا تنفد فكانت ثورته الرومنتيكية الحاسمة التي فتحت أمامه آفاقا جديدة ووقفت به على حدود المجهول التي لا تنتهي صوره وأشكاله وعلمته كيف يستلهم الحياة نفسها ويستوحي جمال الوجود بعد أن كان يتخذ الواقع والاحداث مادة وحيه وخياله والتي ما زالت فيما أرى حية في صميمها وإن اختلفت فيها الاسماء والحدود »(2)

وليس همنا من هذا التعريف ان نعلم ما إذا كان وافيا بحدود الرومنتيكية ام لا وإنما همنا منه ان ندرك وجهة الشابي الخاصة في فهم الرومنتيكية وتقديرها .

(1) نذكر لا محالة كتاب « شاعران » مصطفى رجب — سلسلة كتاب البعث عدد 14 — جانفي 1957 .
(2) الإلمامة « آثار الشابي » ص . 116 .

فهذا التعريف يفيد بأن الشابي يعتبر الرومنتيكية ثورة حاسمة في تاريخ الادب الاروبي بل ويعتبرها أقصى وأرقى ما انتهى إليه تطور ذلك الادب وبالتالي فهي في رأيه حية في صميمها .

وهذا لا يدع مجالا للشك في أن الشابي لم يكن مطلعا على حقيقة الادب الاروبي لا في عصره ولا حتى قبيله وإلا لعلم ان الرومنتيكية قد أخذ ظلها يتقلص — في الشعر خاصة — من عهد بودلير ثم اصبحت مع ابولينار أثرا بعد عين وهذا قبل قيام المذاهب الددائية والمستقبلية والسريالية إلى غير ذلك من المذاهب بعيد الحرب العالمية الاولى . فشغف الشابي بالشاعر الفرنسي لامرتين قد يرجع من بعض الوجوه إلى هذا الاعتقاد الخاطىء بان الرومنتيكية هي أحدث المذاهب الادبية وأبقاها .

ثم إذا نحن حللنا عناصر الرومنتيكية حسبما فهمها الشابي وجدناها هي التي فرضها مادة للشعر في كتاباته النظرية والنقدية المتعددة حول الفن . وحسبنا دليلا على ذلك هتان الفقرتان : « (الشاعر) هو ذلك الخلاق الذي يبعث في آثاره شعلة من روحه ونسمة من حياته فاذا هي ناطقة تعبر في قوة وإبداع عما في هذا الوجود من سحر وفن وجمال... » (1) « والشعراء هم اولئك الذين يرتفعون بأرواحهم إلى آفاق فسيحة ارحب وأسمى من سماء البيئة المحدودة متغزلين بدنيا غريبة رائعة لم تخلقها الحياة إلا في أعماق قلوبهم الملأى ببهاء الكون ومثل الحياة العليا » (2) .

فمن هذه الناحية — ناحية الاصول العامة — تأثر الشابي بالرومنتيكية — يبقى لنا ان نتقصى آثارها بالتفصيل في تضاعيف شعره حتى نتبين كيف تلونت بألوان خاصة من وجدانه وبيئته .

---

(1) الشعر والشاعر عندنا — « آثار الشابي » ص . 141 .

(2) تعقيب الشابي على مقال « الشعر في تونس » . « مع الشابي » ص . 50 .

والآن على أي نحو اعتنق الشابي الرومنتيكية ؟ أعلى انها موقف عام من الحياة أم على أنها مجرد مذهب أدبي ؟

لئن كان الجواب على هذا السؤال يقتضي هو الآخر بحثا طويلا فانه في وسعنا أن نجزم من الآن — اعتمادا على ما لدينا من الوثائق — بأن الشابي في وقت ما من حياته قد عاش الرومنتيكية كتجربة وجودية وكمذهب أدبي معا . فبعض رسائله وصفحات من يومياته — وهي لم تكتب أصلا بقصد النشر وإن نشرت فيما بعد — تدل دلالة صريحة على ذلك . قلنا في « وقت ما من حياته » لان الرومنتيكية في عهده الادبي الاول كانت مجرد محاكاة — وما دام لا يسعنا ان نتبين ذلك في شعره إلا إذا رتبت القصائد ترتيبا زمنيا مضبوطا فلنا ان نعتبر قول الحليوي الآتي : « فالطور الاول هو طور التشاؤم القاتم وفي هذه المدة كان ينحو نحو جبران وينكب على مطالعة المعري انكبابا كليا . فلما نظم أول أشعاره كان مفرطا في اليأس والتشاؤم وكان هذا التشاؤم من النوع السهل الرخيص الذي يشاركه فيه كثير من صغار الشعراء ومقلديهم فهو تشاؤم لا تعرف مبعثه ولا الداعي إليه ولا علة ترديده وسبب وجوده » (1) .

هذه جولة سريعة حول مختلف التأثيرات الادبية على الشابي فان لم يكن لها من فضل إلا أنها نبهت إلى تشعب المسألة ووفرت بعض المادة المعينة على مواجهتها لقد كفانا ذلك فائدة .

---

(1) أدب الشابي — « مع الشابي » ص . 87 .

كلمة الشيخ ابي القاسم الشابي في تأبين جبران

مات جبران ولكن روحه لن تموت .

مات جبران واصبح سرا صامتا في ضمير الموت وخيالا ساريا في مجاهل الابد الغامض الرهيب .

أجل مات جبران واختفى عن هذا العالم إلى الابد وأصبح بعيدا.. بعيدا.. عن انباء هذا الوجود .

مات جبران ، مات ذلك الذي جبلته الحياة من طين وماء وكبّلته باصفاد الزمان والمكان واتخذت منه قصبة جوفاء تتغنى بها حينا ثم تلقيها عيدانا محطمة في اودية الموت . أما ذلك الذي صاغه الالاه من جوهر الحياة . أما تلك الجذوة الالاهية المتأججة في قلب جبران . أما روح جبران الغريبة الهائمة الواقفة في مفترق سبل الحياة حائرة متشككة متسائلة مفكرة شادية حالمة . أما عبقرية جبران . أما من جبران فكل هاته حية خالدة لا ولن تموت بل انها ستظل مصدر وحي ومهبط الهام وستظل مقدسة جليلة إلى أبد الدهر .

كان جبران روحا شعرية حالمة . وانشودة سماوية هائمة وبخورا سحريا يتضوع في هيكل هذا الوجود . وبلبلا إلاهيا غريبا غنى للبشرية المحزونة اغاني الحبّ والجمال وعلمها محبة الحق واراها بهاء السماء .

ترنم جبران باصوات قلبه وتنهدات روحه في عهود الشباب الجميلة المخضبة بالدموع والاحلام . فكانت أناشيده رقيقة ناعمة كاغاني الملائكة . وكانت عميقة داوية كأصوات البحار وكانت شجية ساحرة كأنات ناي بعيد .

وتألم جبران فكانت ألامه لهيبا شعريا يرفرف حول أرواح البشر باجنحة من نور وكانت زوابع من نار تتأجج فتلتهم الانصاب والهشيم .

وفكر جبران فكانت افكاره عميقة كالموت جميلة كالحياة . فكر كالفيلسوف وتكلم كالشاعر فكان لادبه رقة الشعر وجلال الفلسفة وكان له فن غريب تتعانق في ظله الحقيقة السافرة والخيال الجموح .

وكان جبران ثورة في الادب العربي ولكنها ثورة حبيبة جانب البناء فيها اكثر من جانب الهدم والتخريب . ثورة ايقظت الناس من سبات الدهور وارتهم آفاقا كانت مجهولة . واسمعتهم هزيم الحياة وعلمتهم ان روح الشاعر كنز لا يفنى وثورة لا تبيد وان في هذا العالم شيئا آخر غير الامس البعيد ...

ويمتاز أدب جبران بميزتين هما في نظري دعامتا مجده الذي لا يزول :

الميزة الاولى : الجدة والطرافة في اسلوبه وفي معانيه وفي روحه فانك لتقرأ أدبه فاذا اسلوب موسيقي متجاوب النبرات ومعان خيالية رائعة وروح متأججة ترفرف بين السطور .

الميزة الثانية : الحياة . الحياة التي لا بد أن تحرك في صدرك حين تقرأه عاطفة أو فكرا او خيالا بل إنها تكرهك على أن تفكر او تشعر او تتخيل ومن لا يحركه أدب جبران ولا يثير شعوره فانما هو روح مقفرة وقلب مهدوم .

وسيقول الناس عن ثورة جبران على قواعد اللغة العربية أحيانا . ولكن ذلك لا يحط من قيمة جبران فما هي إلا هفوة تغفرها له تلك الثورة المعنوية الخالدة التي خلفها جبران للعربية وستمر الدهور وتتعاقب الاجيال وينسى الناس عن جبران كل شيء ولكن لا يستطيعون ان ينسوا هاته الحقيقة .

« لقد كان جبران عاطفة مشبوبة وخيالا جامحا وفكرا قويا يجوب اعماق الحياة » .

وسيقول الصديق لصديقه وهو يحادثه في الليلة القمراء تحت ظلال التميل (1) او على شاطىء اللجة الداوية : « حقا لقد كان جبران رسول الحق والحب والجمال... » .

ابو القاسم الشابي
الزمان العدد 83 (8 جويلية 1931)

(1) هكذا في النص ولعله تصحيف لكلمة « النخيل » (ت ـ ب)

روح ثائـــــرة

هو عنوان لنص نثري نشره الشابي سنة 1932 اقتطع منه البشروش فقرات بعنوان « آراء وخواطر لابي القاسم الشابي » (1) وكذلك الاستاذ محمد الحليوى (2) والاستاذ كرو (3) ولكنه لم ينشر من جديد كاملا وهو لعمري حـــري بذلك .

وقد عرفه الاستاذ الحليوى في ثبته بأنه « مقال قصصي » وذكره الشيخ الفاضل بن عاشور (4) على أنه قصة .

وما من شك في أنه قصة لان القالب الذي ورد فيه قالب قصصي لا غبار عليه وإن كانت الاحداث المروية واقعية منتزعة من حياة الشاعر الذاتية (5) ولعلها صفحة من كتاب او واحدة من مجموعة وعلى كل فانها في غاية الاهمية

فهي تكشف لنا عن ناحية مجهولة من نبوغ الشابي هي الناحية الروائية ناهيك بأن ابا القاسم قد بلغ فيها من الحذق بفن القصص رغم ما يشوب أسلوبه من تهويل رومنتيكي مسرف ما يدل على باع له طويل في هذا المضمار . فانك تفرغ من مطالعتها ونفسك أشد ما تكون تشوقا إلى نماذج له أخرى من هذا الفن ولا تملك إلا ان تتحسر على بقاء ما ينسب إليه من الآثار القصصية والمسرحية محفوظة في بعض الخزائن الخاصة .

---

(1) BEA, 4e année, N° 20, Novembre - Decembre 1944.

(2) ذكرى الشابي – « مع الشابي » ص . 111 .

(3) كفاح الشابي – الطبعة الثالثة . ص . 73 .

(4) الحركة الأدبية والفكرية بتونس ص . 170 .

(5) هذا ما يقوله الشابى عن نفسه فى يومياته : « ... قام بنفسى ان أقضى الامسية فى ذلك المنتزه الجميل الحبيب الى نفسى « البلفدير » فكرت فيما ينبغى ان أحمله معى من الكتب فى نزهتى الجميلة وتلك عادة من عادات نفسى لا أستطيع أن اذهب الى البرية دون آن اصطحب كتابا سواء ان أحمل معى ديوان العقاد أم « تاييس » (يوم الجمعة 3 جانفى 1930) ويقول « اعتزمت الذهاب الى حديقة « البلفدير » صحبة رفيق لى فبريت القلم وأعددت القرطاس وتأبطت كتابا » (يوم الخميس 16 جانفى 1930) .

وإنك — فوق ذلك — لواجد فيها وثيقة نفيسة تزجي إليك صورة صادقة من نفسية الشابي بل نفسية طائفة من شباب ذلك العصر ، فاذا أنت تلفي فيهم نفوسا حيرى يعذبها الحرمان أشد عذاب وتبرح بها الاشواق أيما تبريح فهم بين واقع حرموا منه إلا تفاهته واحلام جامحة انطلقت بهم إلى ما فوق الواقع إلى عالم الميتافيزيا حيث تاهوا في بحثهم عن سر الحياة والحياة تجري على مرأى منهم كأشهى ما تكون الحياة ماثلة أمامهم في تلك القدود الرشيقة والاجسام الغضة في لاعبات التنس من عذارى الافرنج . فهذا الجمال المعروض نعمة لغيرهم حرام عليهم وليس لهم منه إلا أن يداعبوه بأنظارهم الحالمة ويعانقوه بأرواحهم الظمأى ثم ينصرفون إلى هذيانهم حول الحياة كيف تكون وكيف تؤخذ .

وإنك بعد ذلك لمدرك لشيء من سرّ اغراق ذلك الجيل في الرومنتيكية فقد منعوا الحياة واعطوا الاحلام و « الحلم آكل أكول من أكلة البشر » فلا عجب أن كانت نفوسهم معذبة وارواحهم ثائرة .

روح ثائـــــرة

عرفته أديبا له حظ موفور من بعد النظر ورجاحة التفكير وجمال الاسلوب وعرفته شاعرا له روح حساسة مرهفة كالوتر المشدود واحلام غريبة لا تخلو من الشذوذ وخيال قوي وثاب إلى المجهول .

وكنت إذا جلست إلى الناس واستمعت أحاديثهم شعرت بالخمول يدبّ في مشاعري ويستحوذ على نفسي حتى كأنما انقلبت قبضة من رماد خابية في ليالي الشتاء واحسست بالحاجة إلى ما يثير عواطفي ويحرك وجداني ويؤجج في داخلي نيران الحياة .

أما بجواره فقد كانت مشاعري تتقد وتتوهج وتتدفق وتستجيش كعاصفة من نار وكنت أحس أنني شعلة حيّة نامية تضطرم في موقد هذا الوجود وتندفع طاغية عارمة في احشاء الزمن . لانه كان يحمل بين جنبيه روحا مشبوبة ثائرة تدوي بتيارات الحياة . ولم يكن يحمل بركة راكدة آجنة تعكس صفحتها النائمة أشباح الجبال واطلال الغيوم . ولانني كنت أجد في صدره تلك النفس الحساسة الطموح الجياشة بشتى المعاني والصور وذلك القلب الشاعر الملتهب الذي يطبع كل ما يلامسه بطابع من نار .

وقد مرت أمواج الزمن متعاقبة حاملة إلى خضم الابد المجهول أشلاء الموت وأنقاض الحياة ولكن صورته ما زالت ماثلة أمامي بوجهه الشاحب المهزول وقامته المديدة وعينيه الغارقتين في ضباب الاسى وشفتيه الذاويتين بلفح الالم وما برحت ذكرى تلك العشية الرائعة حيّة في قلبي كأنها أمسية الامس القريب تلك العشية الرائعة التي اكتشفت فيها مناجم قلبه الذهبية واطلعت على ما في روحه الشجية من كنوز غريبة كانت علة تعاسته وشقائه .

كان الوقت أصيلا والشمس تلقى على اشجار « بلفدير » حلة ذهبية ساحرة وفي السماء غيوم رقيقة ملونة زاهية وأنا جالس صحبة رفيق لي إلى مقعد من تلك المقاعد الخشبية المبثوثة في ظلال الاغصان وأمامنا سرب من عذارى الافرنج يلعبن لعبة « التنس » في رشاقة وخفة كالعصافير وكان صاحبي يطالع «تاييس» وفي يميني أنا كتاب « رفائيل » الذي رسم به لامرتين صورا من شبابه الزاخر بالعواطف والاحلام وأنا أجيل بصري مرة في جمال السماء التي توشحها الغيوم وأخرى في رقة الشمس الذائبة على ذوائب الاشجار وطورا في فن الحياة الماثل في هؤلاء الغواني اللواتي ترنح اعطافهن جميعا حميا الشباب .

وأقبل صاحبنا الشاعر وأنا أطالع صفحة من « رفائيل » ورفيقي غارق في « تاييس » إلى أم رأسه فقال يخاطبني وهو ما زال واقفا : « عجيب ألا يصرفك جمال الوجود وفتنة هؤلاء العذارى اللاعبات في مرح الشباب عن اوراق الكتب وقد عهدتك من عباد الطبيعة والجمال ؟ ألا توافقني على ان الكتب رغم — ما فيها — أحيانا — من غذاء شهي للفكر وللعاطفة — كثيرا ما أركبت الناس متن الشطط في أحكامهم وأنه خير لهم لو أخذوا دروسهم رأسا عن هذا الكون العجيب ؟ » فنهضنا إليه وصافحناه في حرارة وافسحنا له مكانا بيننا وقلت له « لو كان الناس يستقون من منبع واحد هو هذا العالم الرائع لكان الناس أسعد حالا مما هم عليه الآن ولاستراحوا — على الاقل — من كثير من الاضاليل والاوهام التي تثقل عقولهم وتنوء بها أرواحهم في أودية الزمان . ولكن الله لم يطبعهم على غرار واحد في المواهب والملكات حتى يمكنهم — كلهم — ان يتلقوا دروس المعرفة عن هذا العالم الكبير . أما استصحاب الكتب فقد اصبحت عادة لي كلما ذهبت إلى منتزه اطالعها حينا وأطالع الكون أحيانا واسترسل مع نفسي آونة في عالم كله أطياف واحلام » فأطرق قليلا ثم التفت إلى صاحبي وكان قد رجع إلى الانكباب على « تاييس » وقال له : « وأنت ماذا تطالع يا صديقي ؟ فانني أرى كتابك قد فتنك عن كل

ما حولك وملأ كل فجاج نفسك » فأجابه وهو يبتسم « تاييس » فقال : « إن هذه القصة الفلسفية جميلة ساحرة ولكنها لا تعدو — كآثار كل اولئك الذين ندعوهم فلاسفة وشعراء ومفكرين — ان تكون ثرثرة نفوس معذبة تحترق في جحيم الحياة... » فقلت كالمنكر : « وكيف ذلك ؟ » قال « لقد كتب هؤلاء الفلاسفة والشعراء والمفكرون كثيرا بل اكثر مما يتصور العقل ولكن الانسان ما زال في صميمه هو ذلك الانسان الاول الذي يقضي أيامه باحثا عن طريدته بين الادغال والاودية وفي شعاب الجبال واحشاء الكهوف وما برحت الطبيعة — كعهدها منذ الازل — تلك الغابة الآبدة المرهبة التي يدلف في ظلماتها المرعبة ركب الانسانية التائه باقدام مهزولة وأجفان مطبقة... » فقال له صاحبي وهو يعابث صفحات الكتاب . « فمالك تنظم الشعر إذا يا صاحبي ؟ » فتجهّم قليلا وطفحت عيناه بمعاني الالم المكبوح واجابه بلهجة ملؤها المرارة الموجعة وقد افترت شفتاه عن شبه ابتسامة ساخرة : « لانني لم أجد دورا أسخف من هذا أمثله في رواية الحياة السخيفة » فابتسمنا حائرين ثم صمتنا واجمين ثم أطرقنا مكتئبين واخرج هو سقارة أشعلها وانطلق يدخن صامتا ثم وضع رجلا على رجل وأطرق برأسه إلى الارض وراح يغني اغنية رقيقة هادئة كان كثيرا ما يغنيها حينما تكون نفسه طافحة مترعة وافكاره مضطربة هائجة .

ومرت فترة من الزمن مثقلة بالحيرة والشجو والملل كان يتغنى أثناءها بصوت خفيض ندي بالدمع كأنما يناجي به نفسه ويخاطب به روحا هائمة في ذلك الفضاء الذي حوله .

ومرّ بنا صبي صغير يقتاد قردا وهو يعرضه على النظارة والمتنزهين المنبثين هنا وهناك ليمثل ادوارا علمته إياه العادة والمران فأشرت إليه في شيء من السخرية والجفاء وقلت لصاحبي الشاعر استدرجه إلى الحديث : « يا للشقاء والخيبة ! أعلى مثل هؤلاء تشيد الامم صروح الامل ؟ » فرفع رأسه وقال مهتاجا

« السخرية الاشمئزاز الجفاء الكلام ذلك ما علمتنا الايام... أما الحقائق فهي تبكي وحدها بين الجبال... » ثم سكت قليلا وقال بصوت هادىء وهو ينظر إلى السماء نظرة كئيبة تائهة « لا تسخر يا صحبي فان كل واحد من ابناء الانسان يجرّ من نفسه وطباعه قردا او قردة في مسالك الحياة الوعرة... واحد يجرّه من سخافاته وادعائه وواحد من غروره وكبريائه وواحد من دناءة الطبع وخساسة النفس وواحد من إقفار الذمة وخراب الضمير.. إلى كثير غير ذلك من انواع القردة المعنوية التي يجرها الناس كل يوم وهم لا يشعرون... » .

ثم نهض واقفا وهو يقول : « لقد مللت هذا المكان فهل لكم في غيره ؟ » فنهضنا معه وقلت له ونحن نمشي بين مخارف الاشجار : « وكيف تمل هذا المشهد الطبيعي الجميل وأمامك اولئك الصبايا اللواتي لم تخرجهن الحياة إلا ليحركن في الناس عبادة الحبّ والجمال » فقال متضجرا : « دعونا يا عبيد الحياة من هاته الكلمات الجوفاء ذات الرنين ما الحب ؟ ما الجمال ؟ ما الافراح؟ ما اللذات ؟ ما الاحلام ؟ ما الشهوات ؟ انها ليست سوى اشراك ذهبية لامعة تنصبها لنا الحياة لتقودنا بها عبيدا مسخرين إلى غايتها البعيدة الغامضة » فقال له صاحبي وهو يحاوره : « وهل تريد منا يا صاحبي ان نتحرر من عبودية الحياة ؟... » قال : « لا لان التحرر من عبودية الحياة معناه الانتحار معناه الموت . بل ليس في استطاعة من قبل اقدام الحياة ان يتحرر من عبوديتها حتى بالموت لان الموت نفسه ليس إلا لونا آخر من ألوان هاته العبودية المحتومة الخالدة . وانما أريد من العبد المصفد ان لا يكون مغرورا فيحسب القيد المموه حلية مهدأة فيتلقاها بالتهليل والشدو والنشيد... أريد منه إذا لم يكن بد من ان يدخل يده في السلاسل والاغلال ان يدخلها وهو عالم أنها قيود وإن كانت من ذهب... » فقلت معارضا : « أي فكرة ؟ وما جدوى كل هذا ؟ وما هاته الافكار التي تشوه وجه هذا العالم وتجعل من الدنيا جحيما أليما ؟ لا يا صاحبي انه خير لنا ان نعيش في وهمنا القديم مبتهجين بما تعرضه علينا

الحياة كل يوم من افراح وملذات وحماقات جليلة وحقيرة من هذا العالم الجديد الذي يجعلنا نتلقى هبات السماء وكأنها لعنات محتومة... خير لنا ان نبقى اطفالا سعداء بجهلنا من ان نكون جبابرة اشقياء نتعذب على صخرة (بروميتيوس (1) العاتية » .

فاحنى رأسه قليلا وقال كمن يحادث نفسه : « ما الجدوى ؟ ما الفائدة ؟ ذلك هو السؤال الوحيد الذي علمتهم الايام ان يرجموا به كل شيء حتى الحقائق يريدون ان يسألوا ما جدواها ؟ يا للسخافة ! ما لهم لا يسألون الاعاصير عن ثورتها الطاغية ؟ ما لهم لا يسألون البحار عن ضجتها وهديرها ؟ ما لهم لا يقولون للقدر : ما جدوى خلقنا في هذا الوجود ؟... يا للسخافة ! ما الجدوى ؟ ما الفائدة ؟ انهم يريدون بهاته الاسئلة الجامدة الفرار من نار الحقيقة المحرقة إلى ظل الخرافات والاوهام.. يا للسخافة ! » .

وسكت قليلا ثم رفع صوته عن ذي قبل وقال : « ولكن... طوبى لعبيد الحياة الذين استطاعوا ان يبتسموا للشمس ويمشوا مع الدهر غير شاعرين بوطأة هاته العبودية المرهبة !... اولئك أطفال يمشون في مواكب الايام بأجفان ضاحكة وأعطاف راقصة وأقدام سكرى بالنشيد ... أما اولئك الذين يقضون أيامهم في قطف اوراد الحياة وانتزاع اوراقها والبحث في اعماقها عن البذور الخالدة فانهم اشقى الاشقياء وإن حسبهم الناس أحيى الاحياء... اولئك افئدة قريحة تتمشى بأعصاب عارية على بساط من لهيب... » .

وكنا قد وصلنا قمة (بلفدير) وكان الليل قد شمل السماء والبحر غطى ارجاء الوجود والصمت يخيم على تلك الحديقة الفسيحة المترامية حتى ليعجب المرء لتلك الحياة الزاخرة الجائشة كيف غاضت وأين اختفت في هذا السكون ؟

(1) بروميتيوس في الاساطير اليونانية : هو الإله الذي وهب الإنسان شعلة من نار السماء : « العقل » فكان جزاؤه على ذلك ان غضب عليه كبير الألهة (زوس) وقيده إلى قمة صخرة عاتية وأرسل عليه العواصف الصم والصواعق .

وكانت المدينة تبدو في جوف الظلام كخيال شاعر مفتون وكأنما أعدانا ذلك السكون الشامل فسكتنا وراح كل منا يصغي لاحلام قلبه التي ايقظها جمال الليل الساهم الحزين وراحت الاحلام والافكار والذكريات تغرد أغاريدها الشجية في صمت الظلام...

ونهض الشاعر بغتة فانتبهنا وصحت انفسنا من نشوتها المغرية وطارت إلى ظلمات الفضاء كل تلك الاحلام والذكريات والافكار وقال : « اودعكما فأنا ذاهب » . قلت : « وإلى أين ؟ » قال : « لا أعلم على التحقيق ولكنني أرجوك ان تقول لاولئك الذين يمشون سعداء بجهلهم في مناكب الارض : إن الحياة امرأة ناضجة الشباب كاملة معاني الانوثة وانها لا تهب قلبها الزاخر بذخر الانوثة الحافل بحلاوة الاستسلام لمن يقف أمامها باكيا متضرعا وشاكيا متوجعا ولا لذلك الذي يقف تحت نافذتها في ضياء القمر مشببا بسحر عينيها ورقة شفتيها وفتنة ذراعيها مغنيا لها أشجى الاغاني وأحلى الاناشيد وانما تهبه — كله — لذلك الرجل القوي الجبار الذي يحملها بساعديه الشديدين ويمضي بها قائلا : « أنت لي » قلت : « فمالك أنت لا تكون هذا الرجل ؟ » فقال وهو يسدد خطاه إلى وجهته المجهولة : « إنني لا أفعل ذلك لانني لا يفتنني سحرها المكذوب ولا يغرني جمالها المجلوب... » واختفى بين الاشجار الكثيفة كما تختفي الاشباح .

***

وقد مرت سنون لم أره خلالها ولما سألت عنه قيل لي إنه قد ذهب في رحلة مجهولة لا يعلم أحد ما غرضه منها وما غايته .

توزر : ابو القاسم الشابي

العالم الادبي السنة الثالثة عدد 8 افريل 1932

عيد المولد النبوي

هذا نص محاضرة القاها ابو القاسم الشابـي بنادي توزر سنة 1932 ثم نشرتها له تباعا مجلة العالم . ولكننا لم نظفر منها إلا بالقسم الاول والثانـي لفقدان بقية الاعداد من مجموعة « العالم » الموجودة بالمكتبة الوطنية .

وقد صدر القسم الاول منها بعنوان « الهجرة النبوية » والقسم الثاني بعنوان « عيد المولد النبوي » وذكرتها كل المصادر بالعنوان الاول مع ان القارىء لهذا الجزء من نص المحاضرة لا يصادف للهجرة ذكرا إذ لا كلام إلا على المولد النبوي وهذا ما جعلنا نرجح العنوان الثاني إلا أن يكون أبو القاسم اراد ان يستهل محاضرته بالحديث عن المولد النبوي ريثما ينتقل إلى موضوع الهجرة وهذا أمر ممكن ولكنه غير محقق .

فهل نحن في حاجة إلى التأكيد على ما لمثل هذه المحاضرة من قيمة في نظر الباحث من حيث إنها تجلو لنا موقف الشابـي من الدين وحقيقة مفهومه له . والمسألة ذات خطورة لان الروح الدينية معدومة من شعر ابـي القاسم أو تكاد وهذه ظاهرة تلفت النظر ثم لان الرجل قد اتهم في عقيدته بل رمـي بالكفر والإلحاد مما نجد صداه خاصة في قصيدة « النبي المجهول » ولعل من طريف ما جاء في هذا الصدد الكلمة التي ألقاها الشيخ مختار بن محمود في ذكرى الشابـي الثالثة . فقد اجتهد الشيخ ابن محمود — وهو مدرس بالكلية الزيتونية — في تنزيه الشابـي عن الكفر والإلحاد فقال : « فشاعرنا رجل قوي الإيمان ثابت العقيدة غير متلاعب بدينه . فليس هو من أولئك الذين يَستترون بحجاب الفلسفة والذكاء واتساع النظر ليتوصلوا إلى العبث بالاديان المعتقدات ثم يتخذونها سخرية » (1) على ان الشيخ ابن محمود نفسه قد تحرج بعد ذلك من

(1) الشاعر الفيلسوف المتدين في شعره — مجلة « الافكار » عدد 2 — ديسمبر 1936 .

بعض ما جاء في اشعار الشابي فأضاف قائلا : « وإذا فرضنا أنه في بعض الاحيان قد سبق لسانه إلى تعبير منتقد بظاهره فلا ينبغي ان يجعل ذلك مقياسا للحكم عليه بل يقصر الانتقاد على مواقع الخلل ويحكم على الشاعر بمقتضى ما يعرف من افكاره في خارج المنطقة الشعرية وبالنظر إلى المبادي الغالبة في شعره على ان ذلك لا يخرج عن كونه هفوات اللسان التي قلما سلم منها إنسان » .

فاذا كان هذا موقف شيخ من المشائخ المتحررين فما بالك بموقف المحافظين .

والناظر في ما ننشره من نص المحاضرة لا يسعه إلا أن يسلم بأن الشابي كان صادق الإيمان صحيح العقيدة . غير انه لا يريد ان يقنع من الدين بمظاهره المزرية المتمثلة في حلقات الذكر وحفلات الرقص الجنوني وما إلى ذلك من صنوف الشعوذة . وانه لينزع في ذلك نزعة اصلاحية واضحة وليس في الامر من غرابة لان كثيرا من المصادر تدل على انه كان قد تأثر خاصة في حياته الطالبية بحركة الاصلاح فهو يذهب مذهبها في وجوب تطهير معدن الدين من البدع التي شوهته عساه ان يستعيد صفاءه الاصلي .

والنص – علاوة على ظاهرة الاصلاح تلك – يجلو لنا ظاهرة أخرى لعلها من أخص خصائص نفسية الشابي وهي ذلك الظمأ الدائم إلى حياة باطنية عامرة بأسمى معاني الروحانية . فمن ثم حرصه على تجاوز المظاهر المادية إلى ما في الاسلام من روحانية قد تروي غلته .

ولكن الشابي في هذا الجزء – على الاقل – من محاضرته لم يتناول موضوع الدين إلا من ناحية النقد لبعض ظواهره الاجتماعية . أما جوهره وكيف يتمثله الانسان في حياته العصرية فلم يحدثنا عنه إلا بعبارات مجملة لا يمكن اعتبارها

قط طريفة ولا جديدة وقد يكون عالج المشكلة في بقية المحاضرة وهذا ما يجعلنا نتطلع إلى قراءة كامل النص .

وما دمنا نتحدث عن موقف الشابي من الدين فلا بأس من أن نشير إلى أن شاعرنا – على عمق شعوره الديني – ما كان متعصبا قط . فلعله – إذ يرى في الدين ناحيته الروحانية خاصة – ان يكون على مذهب من يعتبر الدين مسألة شخصية بين الفرد وربه . ودليلنا على ذلك ما جاء في بعض يومياته من انه لم يكن يستنكف من مصاحبة الملاحدة ومجالستهم – ويبدو ان الالحاد إذاك كان فاشيا في الاوساط الادبية سرا وعلانية – بل وكان يظن ان ما من أحد فهمه مثلما فهمه أديب من الادباء الملحدين . قال الشابي : « اجتمعت هذا اليوم بأديبين اعرفهما كثيرا ولا أريد ان أسميهما أحدهما ملحد متجاهر بالحاده وثانيهما ملحد يكتم الحاده إلا على الخاصة من خلصائه الذين لا يخشى لهم مغبة وما ان استقر بي المجلس حتى قال ثانيهما يخاطبني... ولما انتهى صاحبي من كلمته احسست باليأس والقنوط يستحوذ علي وقلت في نفسي كما قال يوليوس قيصر حين لعبت به السيوف « وحتى أنت يا بروتوس » أجل فقد كنت أحسب أنه خير من فهمني وأدرك أشواق قلبي واجراحي واصغى لالحان روحي وأغانيها في ظلمة القفر البعيد » (1) .

(1) يوميات الشابي بتاريخ يوم الثلاثاء في 7 جانفي 1930 وقد نشر النص بكتاب « آثار الشابي » لأبي القاسم كرو ص . 151 – 152 .

عيد المولد النبوى

أيها السادة ،

ان الامم الحية والشعوب الشاعرة ، الشعوب التي تعلم أنها لم تخلق عبثا في هذا العالم تأكل وتلهو وتتطاحن وتموت بل انها خلقت لغايات انبل من ذلك وأسمى خلقت لتعين الانسانية على الوصول إلى غاية الكمال الانساني المنشود الشعوب التي تعرف ان لجانب هاته الحياة المادية حياة اخرى روحية هي أجل وأقدس . هاته الامم والشعوب لا تهمل ما لها من تراث تاريخي وثروة معنوية حادتها الاجيال . ذلك لانها تعلم ان ليس تاريخ الامة إلا جزءا حيا من كيانها بل لعله أهم جزء من هذا الكيان . ولانها تعتقد ان ليست حياة كل شعب إلا سلسلة متصلة الحلقات ترتبط فيها افراح الحاضر بذكريات الماضي واشواق المستقبل واحلامه . وان تكلم الامة التي ليس لها ماضي تعتز به أو تاريخ تستند إليه ليست إلا كتلة مهملة ضائعة في غبار الاجيال وشعبا تائها مجهولا يتخبط في ظلمات الدهورة ولذلك فان هاته الشعوب لا تنسى ماضيها بل انها لا تستطيع ان تنساه .

هاته الشعوب — ايها السادة — تتخذ من تاريخها هيكلا مقدسا تزوره من آن لآخر وتقف في فنائه خاشعة النفس ثائرة المشاعر متغنية بمجد هذا المصلح او ذاك الشاعر او ذلك الفيلسوف مرددة على مسامع العالم ما كان له من اثر خالد او سعي نبيل متخذة من ذكرى مولده او مماته موسما أدبيا لا يتسامع الناس فيه إلا باسمه ولا يتذاكرون إلا حديثه هذا يتحدث بأخباره وهذا يترنم بأشعاره وذاك يتغنى بآثاره وذلك يبسط إلى الناس زبدة افكاره . طائفة تحاضر في حياته وموته وأخرى تسامر في طريقته واسلوبه . وهؤلاء ينقبون عن دلائل العبقرية في طفولته او اولئك يبحثون عنها في ايام شبابه بحيث يكون رجل الموسم هو روحه القوية الحية السائدة على هاتيك الربوع وفي تلك الجموع او

تقف مشببة بذكرى ساعة من ساعتها السعيدة الماضية او يوم من تاريخها كان له الاثر القوي في تكييف صياغها وتلوينها بصبغة خاصة او توجيهها في سبيل محمود جاعلة من ذكر ذلك اليوم او تلك الساعة موسما وعيدا ترفرف تلك الذكرى على النفوس فتحرك فيها أدق المشاعر .

ذلكم – ايها السادة – ما يقع في الامم الحية الشاعرة التي تقدر قيمة الماضي وتعلم ما له من أثر في توجيه تيارات الحاضر والمستقبل . أما نحن – واعني بكلمة « نحن » أمة الاسلام في مشارقها ومغاربها – فاننا لا نكاد نلتفت إلى ذلك الماضي الماجد وذلك الامس النبيل الحافل بعظماء الرجال وجلائل الاعمال الزاخر باقدس ذكرياتنا وأجمل ساعاتنا . ذلك الماضي المحفوف بهالة من نور لا نحفل به ولا نكاد نلتفت اليه فضلا عن ان نقف وقفات خاشعة نمجد فيها عظيما من عظماء الاسلام او بطلا من ابطاله او عبقريا من عباقرته الكثيرين . ورغم ما في تاريخنا من ذكريات جليلة مقدسة . ذكريات لا يكون المسلم مسلما ان لم يقف أمامها خاشع القلب ثائر الوجدان متضح الاحساس مشبوب الشعور . رغم كل ذلك فاننا نتركها مهملة ضائعة مطمورة في غمار النسيان وإن ذكرناها او حفلنا بها واتخذنا من بعضها عيدا فانما نحتفل به احتفالا ماديا ننصرف فيه إلى ضروب التسلية واللهو والتأنق في المأكل والمشرب واللباس وربما احتفلنا بها احتفالا أدبيا ولكنه لا يكون إلا احتفالا معكوسا ولنأخذ لذلك مثلا قريبا حتى تتبين لنا هاته الحقيقة الاليمة بأتم معناها

المولد النبوي الشريف موسم ديني يحتفل فيه المسلمون – ولا غرو – بذكرى مقدسة هي ذكر مولد ذلك النبي الخالد نبيء الاسلام العظيم فكيف ترانا نحتفل ؟

يبدو لاحدنا – وهو المسلم الصميم – ان يشارك الناس في هاته الحفلة الدينية المقدسة فيمضي إلى هاته الناحية . فاذا لفيف من الناس والوان من الخلق واشكال من البشر وفوج يموج في فوج وموج من ورائه موج وضجة كانما

انطلقت شياطين الارض تعج عجيجا وحناجر تكاد تنفجر وعيون توشك ان تتفطر وطار يضج وبندير يعج وصفوف من الناس ترقص رقصا عنيفا جنونيا... فيأخذ العجب من نفس صاحبنا ويسأل رجلا بجانبه فيخبره ان القوم يحتفلون بالمولد الشريف فيسأله مستغربا : وأين روح محمد الهادئة المطمئنة المفكرة التي يحتفلون بميلادها من هاته الضجة الخاوية والثورة الداوية ؟ او أين بساطة الاسلام في جوهره الساذج البرىء مما يفعل هؤلاء الناس ؟ فيقول له صاحبه في شيء من الضجر واليأس : « ماذا تقول ؟ الم تفهم ؟ انهم يحتفلون بمولد النبيء قلت لك ! » . ثم يعرض عنه في شيء من العسف إلى ذلك الضجيج والعجيج.

فيخرج صاحبنا فارا بنفسه من هاته الامة الظالم أهلها عله يجد فريقا آخر اقوم واهدى سبيلا فما هو إلا قليل حتى يتعثر بحلقة أخرى من الناس فاذا شكل آخر من اشكال الظلال ولون جديد من الوان هذه الحفلات المعكوسة طائفة من الشبان المتأنقين وفريق من الشيوخ المتشالين وثلة من المنصتين يقضون ليلهم بين نقر الطار وتحريك الاوتار والتغني بما جن الاشعار فمن طرف كحيل إلى خد أسيل إلى صبابة مصبوبة واشواق مشبوبة فيسأل صاحبه بجانبه فما يفعل هؤلاء الناس فيقول له في شيء من الاستغراب : انهم ينشدون قصيدة « في الجدّ » للشيخ فلان يتشوق فيها إلى المقام المحمدي . فيعجب صاحبنا من هاته الغرائز الممسوخة والطبائع المرتكسة والافهام السقيمة المعوجة والنفوس الوقحة التي لا تستحي ان تتغنى « بسحر الجفون » و « توهج الخدود » في مجلس يحتفل فيه بذكرى مولد ذلك الشيء العظيم بل لا تخجل ان تسند هاته الجمل وما اليها من تلك الكلمات الخليعة الماجنة إلى ذات المصطفى (ص) فَيَهُمّ صاحبنا ان يصرخ فيهم قائلا :

« أيها الناس ! ما كان محمد رسول الجمال ولا شاعر الحبّ حتى تحيوا ذكره بمثل هاته المعاني الغرامية ولكنه كان رسول الله وخاتم النبيئين جاءكم بالهدى ونور الحق والرحمة والموعظة فاذا أردتم ان تحتفلوا بذكره فاحتفلوه

بهاته المعانـي القديسية السامية وبهاته المعانـي الجليلة يجب ان يتغنى شعراؤكم ويتحـدث خطباؤكـم ويتكـلـم محاضروكـم . مالـكـم ضللتـم حجة الحـق فـأصبحتم لا تفرقون بين الظلمة والنور ؟ ولا بين الظل والحرور ؟ واصبحتم ولا تـكـادون تميزون بين ذكـرى النبوءة في معناها الرائع المقدس الجليل وبين ذكـرى الجمال في معناه الساحر الجميل ! » .

ثم يبدو له فيعدل عن رأيه لانه يعلم ان صرح الضلال والاباطيل لا تنسفه صيحة رجل فرد . ثم يذهب من ذلك المجتمع الوبيل فما يـكـاد يمشي قليلا حتى يجد حلقة فيها جمع من الناس يهتفون بأصوات غليظة منـكـرة ببعض القصائد . فيصغـي قليلا . فاذا هـي أناشيد دينية باردة خالية من ذلك الاحساس الدينـي العميق الذي يثير المشاعر ويهز الـكـيان هزا وليس من تلك الانـاشيد القوية الثائرة التـي تشتعل حماسا حتى تـكـاد تلمس فيها رفرفة اللهيب المشبوب وإنما هـي الفاظ مقفرة مرصوصة على نمط مخصوص وجمل خاوية لا تـكـاد تحرك عاطفة دينية او نزعة اسلامية او فضيلة انسانية... فتغشـي نفس صاحبنا ويصدا ذوقه ويشعر بالحاجة إلى أفق أفسح من هذا الافق الخانق الوبيل ويخرج من هاته المحافل وفي نفسه آلام وحسرات آلام لما سمع وشاهد وحسرات على هاته الامة التـي لا تعرف حتى كـيف تحتفل بذكـرياتها المقدسة !

تلـكـم — ايها السادة ! — صورة مصغرة من احتفال هذه الامة بأقدس ذكـرى حفظها لها التاريـخ وفي جميعها لا يجد المرء شيئا من طبيعة الاسـلام السمحة البسيطة الواضحة ولا يشاهد أثرا لروح النبـي العظيم الذي يحتفلـون بميلاده ذلك الروح القوي الخالد الجليل الذي تفجر في صحراء الجزيرة العربية فـكـان منبعا سماويا فاض على جنبات هذا العالم وأروى غلة الانسانية التائهة إلى غير قرار هذا الروح العميق الهادي الذي كان يذهب إلى شعاب مـكـة ووديانها ويقضـي الايام والليالي متعبدا منفردا في هذا الوجـود وهناك في غـار « حراء » كان ينصرف إلى ربّهبقلب خاشع وشعور متـأجج واحساس عميق . هذا الروح الذي كان يفـكـر طويلا ولا يتـكـلم إلا قليـلا فاذا تـكـلم جـاء

بالحكمة وفصل الخطاب . وهذا الروح الذي كان من شبابه الاول لا يركن إلى ما يركن إليه العرب من منكر واثم وبغي واستهتار باللذة وتهالك على الشهوات . وهذا الروح الذي أدرك العرب ما فيه من عبقرية وسمو جليل ينأى به عن محظرات الامور وصغائرها فلقبوه بهذا اللقب الذي لا يخلو من غرابة « الامين » والذي يدل على ما كان يضمره أولئك العرب لرجلهم السامي المزايا من تقدير واحترام ذلك الرجل الذي يمشي بينهم وكانه ليس منهم فاذا ائتمروا لصالح كان من بينهم وإذا بيتوا لمنكر ار بغي لم يجدوه او إن وجدوه فانما في موقف الواعظ الناهي رغم فتوته وشبابه .

أقول : ولا يسمع في تلك الحفلات ذكر لذلك العقل العبقري الجبار ولا لتلك القوة النفسية الخارقة التي استطاعت ان تجعل من اولئك الذين ألفوا شظف الجزيرة ومنكرات الطباع والذين كانت كبرى فضائلهم قتل النفس ونهب الاموال والثمرات استطاعت ان تجعل منهم أمة مهذبة ناهضة وان تؤلف في تلك القبائل المتناحرة المتشاجرة وحدة قوية تناهض العالم جميعه وتنشر على ربوعه راية النور والمدنية والعدل .

كل هاته المعاني السامية — أيها السادة ! — لا يجدها من يقف على تلك المجالس وقفة المستطلع النقاد وإنما يجد ضجة تعم الآذان وذوات بشرية تتلوى من الصرع كمن يتخبطه الشيطان من المس يبرأ من جميعها الاسلام في مظهره الهادي الجميل وفي جوهره البسيط التي تكاد تدل عليه كلمة « الاسلام » وحدها . او يجد وصفا لمن يحتفلون بذكراه بتورد الخدّ وتلالؤ الجيد وسحر العيون وما إلى ذلك مما يستحي المفكر من غير المسلمين اسناده في ذلك الاسلوب الغرامي الوقح إلى ذات النبيء صلى الله عليه وسلم فضلا عن المسلم الصميم الصادق في دينه وعقيدته . (يتبع)

(محاضرة القاها الاديب أبو القاسم الشابي بتوزر)

العالم العدد 6 (1 جوان 1932)

العالم العدد 7 (1 جويلية 1932)

اللصوصيـــة في الشعـــر

كـتب ابو القاسم هذا الفصل ليسهم في النقاش الذي دار على صفحات « الزمان » بين البشروش والحليوي في موضوع السرقات الشعرية .

كان الاستاذ الحليوي كـتب بالزمان مقالا بعنوان « سفود من رصاص » (1) رد فيه على كـتاب « في السفود » المنسوب إلى الرافعي والمعركـة يومئذ في أشدها بين الرافعي إمام المحافظين والعقاد زعيم المجددين . وقد ورد في كـتاب الرافعي المذكور مطاعن عديدة على العقاد أخصها أنه سطا في شعره على الدواوين القديمة .

فاغتنم البشروش الفرصة وأثار في رسالة له إلى الحليوي منشورة مشكـلة اللصوصية في الشعر ومـا هـي إلا ان استحكم النقاش بين الاديبين فيما تبادلاه من رسائل نشرتها لهما الزمان كـلها (2) .

وقد سؤل ابو القاسم رأيه في القضية فأبداه في هذا النص وكـأن قوله كـان القول الفصل إذ به انتهى النقـاش .

لم يعالج الشابـي قضية السرقات الشعرية إلا عرضا فقد تجاوزها إلى ما هو أهم إلى حقيقة الشعر ومفهومه له .

وليست هذه أول مرة يتصدى فيها الشابـي لدراسة الشعر من الوجهة النظرية فقد سبقت له فصول أخرى في ذلك — علاوة على الخيال الشعري — وهـي « الشعر : ما يجب ان يفهم منه ؟ وما هو مقياسه الصحيـح ؟ » و « التعليق على مقال الشعر في تونس » و « الشعر والشاعر عندنا » (3) .

---

(1) « الـزمـان » 24 كـتـوبـر 1932 .

(2) « الـزمـان » الاعداد 238 — 239 — 242 — سنة 1934 .

(3) أعاد الحليوي نشر الفصل الثاني بكـتابه « مع الشابـي » ص . 46 وأما البقية فقد أعـاد نشرها الاستاذ كـرو في « آثـار الشابـي » ص . 130 — و 138 .

على ان هذا الفصل وإن لم يكن آخر فصل له في الموضوع – إذ تلاه تقديم ديوان « الينبوع » (1) لابي شادي – ليمثل بحق اقصى ما انتهى إليه رأى ابي القاسم في الشعر والفن ناهيك انه في مقدمة « الينبوع » قد اكتفى في تعريفه للفن والشعر بمقتطفات مطولة من فصله هذا .

ونحن إذا ما ضممنا هذه الآثار المختلفة حول الشعر بعضها إلى بعض وقعنا منها للشابي على نظرية فنية مكتملة متسقة – وليست هي عند التأمل بنظرية مبتكرة كل الابتكار في خطوطها العامة على الاقل وذلك لا باعتبار اروبا فقط بل حتى باعتبار الشرق العربي – فيقيننا ان الشابي قد استوحى معالمها الكبرى من حديث ميخائيل نعيمة عن الشعر في « الغربال » وانك لتجد لها في هذا الكتاب مشابه عديدة بل إن آثار الاقتباس لتبدو واضحة احيانا وحسب القارىء ان يطالع فصل أبي القاسم المذكور « الشعر مفهومه ومقاييسه » ليتحقق من ذلك .

ولكن الشابي لم يعدم مع ذلك نصيبا في هذه النظرية فان لم يكن هو رب عذرتها فله فيها على الاقل فضل التوسع في شرح أصولها والتعمق في تحليل معانيها والتطوير لبعض عناصرها – بحيث إنها اصبحت له في نهاية الامر بالتبني وحسن التمثل والزيادة – وعلى كل فهي النظرية التي اخلص لها فيما اتيح له من العمر ولم يتنكر لها قط لا من جهة التفكير النظري ولا من جهة العمل الشعري – وهي بلا ريب مفتاح اشعاره لانه عاش تجربته الشعرية على ضوء تعاليمها . ومن ثم فنحن نعتقد جازم الاعتقاد أنه لا يتيسر للدارس – متى كان رائده الجد – ان يفهم شعر الشابي على وجهه الاصح الاكمل إلا إذا ألم بمبادئ هذه النظرية .

(1) تقديم ديوان « الينبوع » – ويعرف بالألمامة – سابق في النشر « للصوصية » ولا حق في التحرير

ومع ان قصدنا من عملنا هذا إنما هو بالمرتبة الاولى التعريف بـأثر قيم من آثار الشابـي المنسية فسوف نحاول في عجالة أن نعرض الخطوط العامـة لهذه النظرية ومناحـي تـأثيرها على شعر الشابـي مع التعليق والمناقشة .

فأول ما يعجبك من هذه النظرية انها تنزل الشعر والشاعر من الحياة منزلـة في غـايـة السمـو .

فقد كان الشعر بتونس إذاك إما منصة للدعاية الوطنية والاصلاح الاجتماعـي او مجرد حلية يتحلى بها الاديب في المحافل او ضربا من ضروب اللهو والتسلية. فجاء الشابـي واعلن انه « جد صارم يتصل بأعمق أعماق الحياة » (1) وأنـه « ضرورة من ضروراتها » (2) .

فارتفع به عن ان يسخر لغير غرضه او أن يكون أداة تظرف وتكايس اووسيلة لجلب الترفيه ورده إلى أصله باعتباره نشاطا انسانيا خلاقا متولدا عن حاجة في النفس حيوية . بل رأى فيه أسمى ما يتاح للانسان ان يحيـى من ضروب الحياة وقد غامر في سبيل ذلك مغامرة فريدة في نوعها في بلادنا .

ولم يـكـتف بتعريف الشعر تعريفا مبدئيا بل كان من الادباء العرب القلائل الذين عنوا بتحليل العملية الشعرية في ماديتها . وإذا الشعر معادلة فنية بين نسب العاطفة والفكـر والخيال والاسلوب والوزن حتى تنسجم في القصيدة « انسجام النور والعطر والماء والهواء في الزهرة الجميلة » .

وهذا التعريف للشعر في ماديتـه انما هو مشتق من مفهوم الفن الذي ساد أروبا إلى بداية القرن العشرين والذي يعتبر الجمال الفنـي متمثلا في التناسب والانسجام (harmonie) . وهو بدون شك تعريف جديد كـل الجدة بالقيـاس إلى التعاريف العربية الـكـلاسيـكـية المتداولة بين شعراء تونس في عصر الشابـي.

(2) (1) الشعر والشاعر عندنا – « آثـار الشابـي » ص . 141 .

هذا الشعر وأما الشاعر فقد ذهب في اجلاله إلى أقصى حد فهو — عنده — جبار شبيه بالانبياء بل شبيه بالله . له من خصائص الجبابرة القدرة على السمو بالروح والفكر إلى القمم الشاهقة ومن طبع الانبياء القوة على النفاذ بالبصر إلى ما لا يراه البشر وعلى الاحساس بما تقتصر دونه حواسهم ومن صفات الله الطاقة على الخلق والانشاء . وما كان الشابي ليجل الشاعر هذا الاجلال كله لولا إيمانه الشديد بأن له رسالة في الناس يؤديها وهي رسالة الشعر والفن والجمال التي تقتضي الشاعر أن يغوص في أغوار القلب البشري يصوغ من صادق عواطفه أناشيد وأن يجوس مدى الوجود المديد يفجر في صميمه ينابيع الفن والجمال وأن يرود فضاء الكون الرحيب يستنطقه بالسحر والروعة . او بعبارة اوجز فرسالة الشاعر ليست اقل من ان يستوعب في نشيده روح الحياة في لا نهاية ابعدها الانسانية ولا نهاية ابعادها الكونية .

أفنعجب بعد ذلك ان يكون الشابي قد احدث في الشعر التونسي منذ ثلاثين سنة ثورة هائلة قلبت مفهومه رأسا على عقب ؟

وقد لا نقدر مدى هذه الثورة حق التقدير ما لم نقف على حالة الشعر إذاك.

كان الشعر يصرف — اكثر ما يصرف — في وجهين : « وطنيات » وبها اشتهر الشاذلي خزندار و « اجتماعيات » او « اخلاقيات » وبها عرف مصطفى آغة وإن عداهما فالى « الغزليات » أو « الاخوانيات » من تعزية وتهنئة ومدح ورثاء وعتاب واعتذار ومفاكهة وما إلى ذلك من التوافه .

ولئن طرأ عليه شيء غير قليل من التجديد في الموضوع فهو من ناحية الاسلوب ما زال يرسف في اغلال التقليد .

« فالوطنيات » لا تعدو في اسلوبها ما ألفناه من شعر الحماسة والفخر و « الاجتماعيات » وإن اتخذت قالب القصص لاشبه شيء في روحها بقريض

الفقهاء فكلا الصنفين منصة للخطابة او منبر للوعظ يروعك بطنطنته ولا يفيدك بطائل معنى فان هو إلا نفخ في الابواق وقرع على الطبول .

وأرك منهما واسخف « الغزليات » في فرط تصنعها فهي أبدا حديث معاد عن حسناء كالظبية قدها غصن بان وثغرها باسم عن لئال والوجنات منها ورد مضرج والالحاظ فيها سيوف صوارم وعن عاشق متيم ارقه الوجد وأماته الشوق وهو بين وصل وهجران يتقلب وبين عذال ورقيب إلى آخر الخرافة المعروفة .

ولعل أخص خصائص ذلك الشعر انه من فرط التقليد متشابه على اختلاف متعاطيه فهو شعر لا شخصي وعبثا تحاول ان تقف فيه على معالم ذاتية الشاعر فلن تجد سوى معان متداولة صبت في قوالب من اللفظ جاهزة وعبارات مهيأة مجتها الاذواق منذ احقاب . وهذا ما يقوله ابو القاسم عن أصحاب ذلك الشعر : « ما لنا نجالسهم ونتحدث إليهم فاذا لكل ملامحه وصفاته واسلوبه الخاص في فهم الاشياء وتقديرها وطريقته الفريدة في الاشارة والنظرة والحديث ثم نحن نفارقهم ونرجع إلى أشعارهم نتلمس تلك الفروق الواضحة التي كنا نشاهدها وهم يتحدثون فاذا ملامح متشابهة وأساليب متقاربة وارواح متماثلة كأنها منتسخة من أصل واحد مخبوء في عالم الغيب... » (1)

ويا ليتك مع ذلك تجد فيها ما تجده في روائع القديم — مجموعا او مفروقا — من جزالة اللفظ ومتانة السبك وعمق المعنى وبراعة التصوير وقوة الإيقاع وحلاوة النغم .

كذلك الشعر في تونس قبل الشابي وحتى بعده .

(1) الشعر والشاعر عندنا « آثار الشابي » ص 140 .

فبادر أبو القاسم بافساح مجاله لترجمة المشاعر الذاتية وخلجات النفس الصادقة وإذا الشعر ينبع من الوجدان غناء خالصا وإذا قد اشيع فيه من الروح والحيوية ما لم يكن له من قبل بتونس وما نفى عنه كل رتابة وتشابه .

وكما شق ابو القاسم للشعر طريقه إلى النفس كذلك شق له طريقه إلى الوجود والكون حتى يستوعب ما فيهما من جمال وروعة .

وما ذلك سوى مظهر لما تولد في نفوس شباب ذلك العصر من حاجة جديدة ملحة إلى التنعم بحياة عاطفية زاخرة والاستمتاع بالجمال .

واعمق من الثورة في الموضوع الثورة في الاسلوب فتلك معجزة الشابي الشعرية

فقد اهتدى إلى ان الشعر في جوهره إيحاء لا تقرير لأن الشاعر يروم بواسطة الكلم تأدية تجاربه على نحو كلي وهذا ما لا ينهض به التعبير المعتاد فهو يحتال على اللغة ويستعين على بلوغ غرضه بوسيلتي التخيل والنغم . ومن ثم ما يطالعك في اشعار الشابي من الصور الرائعة التي تنثال في رفق تارة وطورا تتناثر كالألعاب النارية وطورا آخر تتلاحق سراعا في نَفَسٍ يشبه اللهاث. وهي صور لا تقوم على أساس الاستعارة المعقولة او التشبيه المنطقي المفصل المألوفين في الشعر الكلاسيكي وإنما تقوم على الربط بين المتباعدات من أطرافها الخفية بدون ما تدقيق في تحديد ماهية تلك الروابط حتى تبقى الصورة محفوفة بهالة من الغموض فتفتح أمام النفس آفاق التخيل والحلم . وحسنا دليلا على ذلك البيتان الأول والثاني من « صلوات في هيكل الحب » :

عذبة أنت كالطفولة كالاحلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد كابتسام الوليد

وأما النغم في شعر الشابي فأمر عجيب . يدركه الحس ولا يحيط به الوصف فهو وليد الكيمياء اللفظية أي تلطف الشاعر في المزج بين الكلم مزجا يجعل من اصوات الحروف والمفردات أنغاما مئتلفة . وإذا لم يكن بد

من التعليل فلنقل إن النغم يرجع فيما يرجع إليه من الأسباب إلى إيثار الشابي لبعض الأبنية العربية ذات الجرس الممدد الحلو من امثال فعيل (الوادي النضير - الروض المطير - المرج الخضير) وفعول (تعوب - يؤوس) ومفعول (منضور - معمود - مجرود) وأكثر ما يكون ذلك في القافية (1) .

وخلاصة القول أن لغة الشابي لغة شعرية من الطراز الأول لها إشعاع سحري وامتدادات في النفس بعيدة وهذا بقطع النظر عن القيمة المعنوية والفكرية او عدمها .

ويصف لنا الشيخ السنوسي ثورة الشابي في الشعر فيقول : « لقد سقط ميزان حرارة السياسة اليوم في الادب بعض السقوط بما أباح لدعاة التجديد الظهور فرأينا الحركة تنشط من جديد ورأينا الشعراء الحديثين يتخلصون من قيود التقليد والمصلحة إلى منابع الشعر ومركزه السامي ألا وهي نفس الانسان وما ينطبع فيها ويحس به واصبحنا نسمع من يقول :

شعـــري نفـاثـة قلبـــــي إن جـــاش فيــه شعـــوري

فاصبح (الاجتماع) والسياسة ليستا عماد الشعر بل عماده ما يجيش فيه من قوة وجمـــال » (2) .

تلك وجوه التجديد العميق الذي ادخله الشابي على الشعر بتونس وقد صدر فيه — فكرة وإنشاء — عن المذهب الرومنتيكي .

ولكن هذه الرومنتيكية التي أتاحت له — قبل ثلاثين سنة — ان يفتح في الشعر التونسي فتحا عظيما هي التي تزهدنا اليوم في قسم وافر من شعره .

(1) وقد سبق الاستاذ الشاذلي بويحيى إلى تحليل ذلك تحليلا دقيقا في فصله « ابو القاسم الشابي والشاعرية الحق » (مجلة الفكر السنة 5 - العدد 8 - ماي 1960 ص . 8 - 9 -) .

(2) موضوع الشعر — النهضة — 22 مارس 1928 .

فقد أضلته — بما فيها من الإشادة المسرفة بالفردية ومن الاغراق في المثالية والتجريد الميتافيزي — عن واقع الحياة . فبتأثيرها انقلب الغناء بالذات انطواء عليها والذوبان وفي الوجود والكون مروقا من الحياة . ومما غذى فيه هذه النزعة الفردية المثالية الغالية ضحالة الشعر الوطني والاجتماعي في عصره — فقد التبس عليه أمر هذا الشعر فظن — واهما — ان لو استلهم الحياة الواقعية لاسف يشعر وانحط إلى مستوى خزندار او مصطفى آغة وما درى ان العيب في شعر ذينك الشاعرين ليس في طبيعة الموضوع وإنما هو في طريقة التناول وأساليب الصياغة فاستمع إليه يحدثك عن « الشعر الاجتماعي » في عصره حتى تفهم حقيقة موقفه منه وتدرك ان إيغاله في الفردية والمثالية يعد من بعض الوجوه رد فعل عنيفا على ذلك النوع من الشعر . قال : « وإن خرجوا عنها (المواضيع التقليدية) فالى مواضيع صحفية مبذولة باردة يسمونها في غفلة مضحكة « شعرا اجتماعيا »

وبذلك أصبح الشاعر ينظم في احداث عصره ومشاكل يومه حتى لقد نظموا في أزمة المعاش وغيرها من توافه الدنيا ومحقرات الامور » (1) .

وجلي ان الشابي لا يحكم بفساد الشعر الاجتماعي باعتبار الاسلوب فحسب بل وباعتبار الموضوع كذلك . فان دل هذا الموقف على شيء فانما يدل على نفرة شاعرنا من الواقع الاجتماعي من حيث هو واقع ومن حيث هو مورد للفن . فمن الوجهة الاولى يبدو الشابي كالمترف او كالمرفه (لم يتوفر لدينا بعد من الحقائق ما يخول لنا القطع بذلك) لا يعبأ كثيرا بما قد طرأ على حياة الناس من عسر . وكم كنا نود لو أنه تنزل من عليائه وداخل الناس في حياتهم اليومية المريرة حتى تنصهر نفسه بالواقع فتنضج وتحتك آراؤه به فتصح وتعمق . ولكنه آثر الترفع عن حياة الناس وظن ان قلبه قد يغنيه عن تجارب المجتمع فما أغناه وإنه إن وفق إلى تصوير بعض ما في القلب البشري من صادق الخلجات

(1) الشعر والشاعر عندنا « آثار الشابي » ص . 140 .

لتبدو لنا أكثر آلامه وهمية لا علة لها ولا واقع ولا نشاطره فيها بل كثيرا ما تضجرنا – هكذا آل أمره إلى الانطوائية . وأما من الوجهة الثانية فهو يأبى على فنه إباء الاستمداد من الاحداث الاجتماعية لانها لا تصلح قط ان تكون مادة للشعر .

والمسألة – لو نعلم – تتعدى أزمة المعاش إلى سائر حياة الشعب ولنتأكد من ذلك نسوق ما قاله في مناسبة أخرى « إذا انحط الفن إلى خدمة الشعب واتباع منازعه وغاياته وأصبح أداة يصرفها كيف شاء فقد أنقلب عبثا صبيانيا ساذجا لا قدسية فيه ولا جلال » (1) هذا الكلام فيه كثير من التطرف يرجع إلى أن الشابي كان – حين قاله – موتورا وذلك انه لم ينتخب من جملة الشعراء الثلاثة الذين اسفر استفتاء مجلة العالم الادبي عن انهم اشعر شعراء شمال افريقيا وهم حسب الترتيب عبد الرزاق كرباكة ومحمود بورقيبة والطاهر القصار -- يبقى ان قول ابي القاسم الشابي – حتى إذا قرأنا حساب مفعول الاستفتاء في نفسه – صريح في انه يجب تنزيه الشعر عن خدمة الشعب – نبادر فنقول ان هذا الكلام على شدته لا يدل قط على ازدراء الشابي للشعب وإنه لمن الخطأ الفادح ان نظن ذلك وإنما يدل على ان أبا القاسم يكره ان يتملق بشعره عواطف الشعب لينال لديه حظوة هينة كما يفعله اصحاب الشعر الاجتماعي الذي « يصغون إلى ثرثرة الشعب ولا يصغون إلى أصوات قلبه الكثيرة » (2) . فالشابي يأبى على نفسه السهولة ويريد ان يلتقي بشعبه في مستوى ارقى هو مستوى الفن والجمال « ان انشودة تغني فينة للدنيا وجمال الوجود لاجدى على روحه (الشعب) وأعود عليه من ذلك الوعظ الفاتر والتعاليم الجامدة وكل الاشعار المقفرة الخالية من روح الفن وحرارة الحياة التي ملأوا بها سمعه واثقلوا بها قلبه المسكين » (3) وما رام الشابي ذلك من نفسه إلا لانه

(1) التعقيب على الشعر في تونس – « مع الشابي » ص . 48 .
(2) الشعر والشاعر عندنا – « آثار الشابي » ص . 139 .
(3) المصدر نفسه ص . 141 .

كان يؤمن إيمانا صادقا بأن روح الشعب « غنية زاخرة بقوة الفن » « أجل يا صديقي إن في قلب الشعب التونسي ثروة روحية وفنا قويا ولكنها ثروة مهملة وفن غير مصقول وإن في طبيعة هاته البلاد سحرا يلهم أسمى المعاني وأرفع الافكار لو كانت للصخر مشاعر حية واعية وإن الداء كل الداء في الالسن المعبرة لا في روح الشعب ولا في طبيعة البلاد » (1) .

ثم إن الشابي من وجهة أخرى كان يطمح في ان يبلغ بشعره الحقائق البشرية الخالدة وظن انه لن يحقق من ذلك شيئا ما دام ملاصقا للبيئة ملابسا لاحوال عصره . فمن عيوب رواد الشعر الاجتماعي — في رأيه — « أنهم يتغنون برغبات المجتمع الزائلة ولا يتغنون بمطامح الانسانية الخالدة » (2) . وإنه ليؤكد هذا المعنى تأكيدا في صورة تذكرنا بالمثل الذي ضربه « بودلير » للشاعر في قصيدته المشهورة « l'Albatros » (له جناحا عملاق يمنعانه من المشي) يقول الشابي : « ثم ما ذا أصنع يا صديقي مع ذلك الشاعر الذي وهبته الحياة اجنحة لا تخفق إلا في لا نهايات الحياة والموت والخلود ؟ ماذا نقول له إذا كانت اجنحته اعظم من قفص البيئة المحدود المحبوكة قضبانه من مظاهر الايام المتقلبة بما فيها من عادات وأخلاق وميول ؟ هل نقول له حطم جناحيك أيها الجبار واحشر نفسك في سجن الوسط فانك لن تكون عظيما إلا إذا احتوتك جدرانه الصلبة واضلاعه الضيقة ؟ أم ماذا ترانا صانعين به ؟ » (3) .

فكل هذه المواقف صحيحة مبدئيا وتدل على سمو معنى الفن عند الشابي ولكن الرومنتيكية اوهمته — رهذه جنايتها عليه — بأن ما يطلبه من فن وجمال ومن حقائق بشرية خالدة لا يوجد في واقع المجتمع ولا في حياة الناس وإنما في السماء السرمد .

---

(1) الشعر والشاعر عندنا — « آثار الشابي » ص . 142 .
(2) المصدر نفسه ص . 139 .
(3) « التعقيب على مقال الشعر في تونس » — « مع الشابي » ص 51 .

ويسير علينا ان نتبين كيف تم – من الوجهة النظرية البحت ومن الوجهة العملية – افلات الشابي من الواقع من حيث اراد تعمقه .

فقد فرض ان ليس للشعر من الحياة إلا جانبها المصفى لان الحياة بعجرها وبجرها تبلغ من السخف ما لا يؤهلها لان تكون مادة له صالحة . وهذه « الحياة المصفاة » هي حسب عبارته « ارفع صور الحياة وأسماها » فالشابي حر في اختياره ونحن لا نريد ان نناقشه في ما له من حق الاختيار فذلك من العبث إذا أصبح من المسلم لدينا اليوم ان يخلى بين الفنان وفنه ينتقى ما شاء له من المواد ينتخب ولكن نحب ان ننبه إلى أن عملية « التصفية » هذه قد بلغت من التناهي ما لم يبق معه من مادة الواقع الثرية الخصيبة إلا أشباح هزيلة هي أشباح المثل العليا والقيم المطلقة المجردة . فعلى هذا النحو اقلع بفنه من الحياة الحقيقية ليحلق في سماء المثالية والتجريد .

ونحن نتبرأ من ان نكون أردنا من الشابي ان ينحبس في سطح الواقع لا يستبطنه فيكتنه حقائقه الباقية ولا يعلوه فيرمي بطرفه إلى آفاق الحياة النائية او ان ينزل بفنه إلى مستوى شعر المناسبات يسجل الاحداث في مظاهرها العابرة ويترجم الواقع ترجمة حرفية – فشعر المناسبات شيء واستلهام الواقع شيء آخر –

وإنه لذهب في طريق المثالية إلى ابعد من ذلك . فهو لا يعتقد – شأن كل المثاليين – ان الفن معان وصور متولدة من ممارسة البشر لحقيقة حياتهم بل مثل قائمة بذاتها في عالم علوي مفارق – حسب عبارة فلاسفة الاسلام – تنزل على الشاعر الجبار من السماء بواسطة الوحي والالهام وفي ذلك يقول « إن الفن الرفيع حقيقة سماوية تنزل على الناس من افكار الجبابرة وأرواحهم ولن تحافظ على سمو عنصرها ونبل غايتها إلا إذا ظلت بعيدة عن الشعب منزهة عن رغائبه وأهوائه » (1) .

(1) التعليق على الشعر في تونس – « مع الشابي » . ص . 48 .

وما دام الشابي يستلهم سماء الفن ولا يستلهم أرض البشر فطبيعي ان يجلس من الحياة على قمة « صخرة عالية تجللها الغيوم والاضواء والظلمات » على انه ظن ان قد عانق احق حقائق الحياة وما عانق سوى أوهام واشباح فهل فوق السحب حياة وإنما الحياة على الارض المدحوة المتطامنة » حيث يكدح « ابناء التراب » ويصنعون بكدحهم القيم والمثل العليا . فقد تاه الشابي برومنتيكيته في متاهات الميتافيزيا . وإنه لاوغل في التجريد حتى تعرت حقائق الوجود من صورها المادية التي هي قوامها ولحمتها واستحالت إلى معان ميتافيزية صرف فالحياة والفن والجمال إلخ... قد اصبحت من قبيل المثل الافلاطونية كليات مطلقة تبدو شاحبة فاترة لاطعم لها ولا رائحة بالقياس إلى غزارة الواقع ونضارته ونكهته ومتعته .

وأغلب شعره شاهد على ذلك فهو مغازلة متصلة بمثل عليا عجز عن تجسيمها تجسيما يحملك على الإيمان بحقيقتها والاحساس العميق بجمالها . وإن فعل ذلك — وقلما فعل — تبدت لك في صور ساذجة .

هاك الحب كما رآه ابو القاسم :

لا الحب يرقص فوقها متغنيا للناس بين جداول وزهور
متورد الوجنات سكران الخطا يهتز من مرح وفرط حبور
متكلّلا بالورد ينثر للورى اوراق ورد « اللذة » المنضور

وهاك الفن :

كلا ولا الفن الجميل يظاهر في الكون تحت غمامة من نور
متوشحا بالسحر ينفخ نايه المشبوب بين خمائل وغدير
او يلمس العود المقدس واصفا للموت للايام للديجور
ما في الحياة من المسرة والاسى والسحر واللذات والتغرير

على أنه والحق يقال وفق توفيقا مدهشا إلى تصوير فتنة المرأة في رائعته « صلوات في هيكل الحب » او بالاحرى في القسم الاول منها قبل أن يأخذ في الصلوات والترتيل . فقد اورد فيها من صنوف الابداع ما لا نظير له ناهيك أنه يوقفك من تلك الحسناء على كنوز عجيبة من الجمال الشهي المغري ويؤلف من مفاتن جسدها ورشاقة حركاتها سمفونية إلهية .

وما كان ليوفق هذا التوفيق كله لولا أنه احس بجمال هذه الغانية احساسا غريزيا مزق رداء مثاليته إلى حين .

ولا نخالك بعد هذا إلا مدركا لفساد هذه الرومنتيكية التي باعدت بين الشابي وبين الواقع فلولاها لكان شعره مثلما هو في قصيدة « صلوات » آية في الروعة .

واكثر ما تلمس آثار التجريد فيما يرسمه من عالم اشواقه المنشود . فهو عالم لم يستنبط ملامحه من جوف الحياة الراهنة بحيث يكون تطويرا لها طبيعيا وامتدادا في المستقبل فيستحث الناس على توليده بجهودهم وصنعه بأيديهم وقد ألفوه قُدّ على قدر بشريتهم فيه من اشواقهم خبز طري وورد جني وإنما صاغه من محض تصوره لا يعمره إلا الفن والجمال والحب والشعر وسائر المثل العليا والمعاني المطلقة وعالم كهذا لا نراه يصلح إلا للملائكة وأما البشري فنحسب أن لو دخله لاخذت جلدته قشعريرة البرد ولخرج منه إلى جحيم الحياة يهرول .

تلك هي الدنيا التي يتغزل بها الشابي والتي تطمح إليها نفوس الشعراء العالميين حسب قوله : « وإذا بأولئك الشعراء العالميين الذين يرتفعون بأرواحهم إلى آفاق فسيحة ارحب واسمى من سماء البيئة المحدودة متغزلين بدنيا غريبة

رائعة لم تخلقها الحياة إلا في أعماق قلوبهم الملأى ببهاء الكـون ومثل الحيـاة العليـا » (1) .

وإن أنت أبيت التحليق معه في سماء المثالية دعاك إلى عالم آخر له هو عالم الغاب فيه جداول « تشدو بمعسول الغناء » وخمائل ظليلة تميل أغصانها مع النسيم أنى هب وعنادل تصفر بالبكرة والعشـي وعرائس تخطر على المروج أطيـافا من الخيـال .

أما ان هذا الغاب لايخلو من بعض الطراوة فهذا ما لا جدال فيه وأما أنـه غاب حقيقي كما يمكن لك انتقع عليه في بلادنا او غير بلادنا فهذا ما نشك فيه . فقد فعلت المثالية فيه فعلها في عالـم الشابـي الاول . فهو يبدو على جانب كبيـر من الظرف المصنوع . فانك قلما تستشعر فيه جلال الطبيعة ولا قواها العاتية او اسرارها المهولة وإنما تقع منه عامة على مناظر ساذجة في منتهى الظرف تداعب منك اطراف الحواس ولا تهز فيك مـكـامن الشعور فهو أشبه بالبستان المأنوس المهذب منه بالغاب الطبيعـي الابد .

ويقيننا ان الشابـي ما اهتدى إلى معنى الطبيعة لا كما فهمه الرومنتيـكـيون ولا كما اصبحنا نفهمه نحن اليـوم . إن هـي إلا إطار محلى مرصع اصطنعـه بايحاء الرومنتيـكـية ليرعى في جنباته احلام نفسه — وإنه على صورته تلك لتزهد نفوسنا في سكـناه لاننا سئمنا منذ حين رقرقة المياه وزقزقة العصافير وزئير الـريـاح وقصف الرعود رأشعة الشمس الذهبيـة عند الآصال وأشعة القمر الفضيـة في الليالي الساجية . وإنها اليوم لساعات معدودات نقضيها في الارياف وبين الغابات للراحة والسكـينة ثم يـكـون الملال منها والحنين إلى المدينة إلى انوارها وضوضائها وإلى الحياة تجري في شرايينها هائجة مائجة فان زهدت نفوسنا في الطبيعة على صورتها تلك الساذجة فكـيف إذا أقام الشابـي منها معبدا يصون فيه ما تـوهمه

(1) التعليق على الشعر في تونس — « مع الشابـي » ص . 50 .

قداسة الحياة من دنس الناس . وإذا تساءلت : أي حياة في الغاب أجابك الشابي :

فأعيش في الغاب حياة كلها   للفن للاحلام للالهام

. . . .

عيشة للجمال والفن ابتغيها   بعيدا عن أمتي وبلادي
وبعيدا عن المدينة والناس   بعيدا عن لغو تلك النوادي
فهو من معدن السخافة والافك   ومن ذلك الهراء العادي
أين هو خرير ساقية الوادي   وخفق الصدى وشدو الشادي
وحفيف الغصون نمقها الطل   وهمس النسيم للاوراد
هذه عيشة تقدسها نفسي   وأدعو لمجدها وأنادي

لا نريد الآن ان نناقشه في حياة الناس وهل كانت حقا من « معدن السخافة» كما وصف ولكن نحب ان نسجل ان هروبه إلى الغاب هو من قبيل ذلك التسامي الذي جعله يترفع بالفن أبدا عن الحياة الحقيقية فهو هو الذي عرج به إلى عالم التجريد الميتافيزي وهو هو الذي يذهب به إلى الغاب . وكما ان نفسك زهدت في عالم احلامه كذلك هي تزهد في غابه لانها لاتجد في هذا ولا في ذاك طعم الواقع ولا نكهة الحياة .

على أن هذه الجوانب التي ننعاها اليوم على الشابي لهي التي كانت تعتبر إلى عهد غير بعيد مواطن الاصالة في شعره . فقديما قال السيد محمد الحليوى « فتقديس الشعر وتقديس المرأة وتقديس الطبيعة هي أغلب المطالب التي نظم فقيدنا العزيز فيها شعره واسمعنا في الكلام عليها وحي عبقريته ودفعنا بقراءتها إلى أسمى ما تسمو إليه تلك المعاني فسكب في قلوبنا أحاسيس جديدة وجعلها

تضطرب بمعان علوية لم نكن نضطرب بها قبل ان نقرأ شعره » (1) لا ندري أما زال خضرته محافظا على رأيه هذر أم لا ؟ لاننا مضطرون إلى مخالفته فان التقديس وما إليه من سائر مظاهر المثالية الرومنتيكية لهو العلة في ان شعر الشابي اليوم لئن امتع حواسنا بجمال موسيقاه واستثار خيالنا ببديع تصاويره لا يرضي فينا العاطفة إرضاء لاولا الطموح فهو يلذ لاسماعنا ولا يغذي ارواحنا إلا في قليله وهي روائعه التي بلغ فيها قمة الشعر معنى ولطفا وما بلغها إلا لانه خلع عنه — لحظة — رداء المثالية .

ومن ثم فاننا مضطرون كذلك إلى مخالفة الزميلين الاستاذ الشاذلي بويحيى والاستاذ المنجي الشملي .

قال الاستاذ بويحيى « وقف الشابي أمام الوجود والقدر تلك الوقفة التي يود « الانسان » لو استطاعها فبكى بكاء الانسان وضحك ضحكته وسأل سؤاله وخاب خيبته وثار ثورته ولعن لعنته وانصرف وكذلك يموت انسان ويحيى إنسان ووقفته هي تلك يترنم بمعسول النشيد ولا يشعر ان الشعر ليس شعره فأنت الشابي والشابي أنت في ساعات نجواك » (2) .

وقال الاستاذ الشملي : « فكن تونسيا إن شئت وانتسب إلى ما طاب لك من الجنسيات فأنت في أبي القاسم واجد قصتك وأنت في أبي القاسم ظافر بذاتك فالشابي كيفما قلبته — في سرك وفي علنك — صورة منك والشابي كيفما نظرت إليه أنت » (3) .

(1) « مع الشابي » ص . 80 .

(2) ابو القاسم الشابي والشاعرية الحق -- الفكر السنة 5 — العدد 8 ماي 1960 .

(3) منزلة الشابي في الأدبين الشرقي والغربي — ص . 30 .

فان كان المراد من هذين القولين انّ شعر الشابي لا يخلو — في أصفى معادنه — من قيمة إنسانية بالغة فذاك وإن كان بمعنى الاستيفاء لقصة الانسان والشمول لشتى احواله فلا .

فقد قرأنا شعر الشابي — كما قرأه الزميلان — فما ألفينا أن الشاعر كان إيانا — على معنى الكل . او أنّا إياه كنّا في سرنا والعلانية وفي نجوانا وملابسة الناس . فقد بحثنا في شعره عن الحياة فما وجدنا منها — مع لهفة عليها محرفة — إلا سماء للملائكة أو غابا للعصافير وبحثنا فيه عن البشر فألفينا هروبا منهم وانطواء على نفس وقعت نهبا للألام المبرحة والاحلام الجامحة لا نرق لها ساعة نقاسمها صادق لوعتها إلا لنصد عنها باقي الوقت فارّين من كثرة هواجسها وأوهامها . وبحثنا فيه عن معنى الفن والجمال فصادفنا مغازلة لهما موصولة بل عبادة وما ظفرنا منها بسوى كليات مطلقة وسذاجة غريره .

أفنحن زاعمون بعد هذا أنّا وجدنا في الشابي ذاتنا وظفرنا فيه بقصتنا ؟ أم ترانا ننكر أن يكون منا في شيء وأن نكون منه ؟ لا هذا ولا ذاك . فنحن منه بعضه وكذلك هو منا . فان بدا شذوذا ما ارتأينا او تطرفا فهو رأينا الذى به نومن وعليه نبقى . والقول الفصل للايام وإنها لعدت بعد على شعر الشابي وأبلت منه .

وبعد فلسنا نطلب من الشابي محالا لا ولا حتى شططا فحسبنا منه أن يكون من حياتنا — وكذلك هو — لحظات ممتازة بعضها على النفس عسر ويسر بعضها الآخر .

فاننا ونحن شديدو الإيمان بالحياة وبأنها رهينة الجهد الانساني ليعترينا في بعض أيامنا شك مميت في ما نفعل وفي الحياة وإننا في حيرتنا تلك لنلتقي بالشابي ومعه نردد .

« نحن نمشي وحولنا هذه الاكوان تمشي ولكن لاية غاية »

ثم يعود لنا إيماننا بعد الشك أمتن وأصح وإذا نحن بلسان الشابي نهتف :

« إن ابن آدم في قرارة نفسه عبد الحياة الصادق الايمان »

ولا نيأس معه فنصرخ :

« فاحتضني وضمّني – كالماضي فهذا الوجود علة بأسي »

. . . .

« سأم هذه الحياة معاد وصباح يكر في اثر ليل »

« ليتني لم أفد إلى هذه الدنيا ولم تسبح الكواكب حولي »

وقد نستبطيء سير شعبنا نحو ما ننشد له من سامي الغايات ونعدم التجاوب معه لحظة فنود لو أن لنا من القوى الهائلة ما نستحث به خطاه ونسددها وننشد مع الشابي :

« أيها الشعب ليتني كنت حطابا فأهوي على الجذوع بفأسي »

« ليتني كنت كالسيول إذا سالت تهدّ القبور رمسا برمس »

ولا نرمي الشعب مع ذلك بالغباوة ، فقد لقننا في الماضي وما زال يلقننا من الحكم أبلغها .

وقد تثقل علينا الهموم وتنوء نفسنا تحت وقرها فنتمثل بقول الشابي :

« تمشي على قلبي الحياة ويزحف الكون الكبير »

وكأنه حمل عنّا عبأنا فنتنفس الصعداء .

وما عدنا اليوم نرى فاتنة تزخر بالشباب وبالحياة إلا وبادرت إلى ذهننا أبيات الشابي الخالدة فنرتل :

« خطوات سكرانة بالاناشيد وصوت كرجع ناي بعيد »
« وقوام يكاد ينطق بالالحان في كل وقفة وقعود »
« كل شيء موقع فيك حتى لفتة الجيد واهتزاز النهود »

وكلما حنت نفسنا إلى دنيا طفولتنا العجيبة شخصت لنا وفيها من شعر الشابي ألوان وأنغام فهمسنا :

« أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير »
« وطهارة الموج الجميل وسحر شاطئه المنير »

ولنا معه مواعيد أخرى ولكن كم لنا في حياتنا الراهنة من مواقف نود لو أننا نلقاه فيها فلا نلقاه او نلقاه فيها غريبا عنا . فما عصره عصرنا ولا شأنه دوما شأننا .—

تلك نظرية الشابي في الفن وتلك آثارها في شعره وذلك موقفنا اليوم منها

وحسب الشابي فخرا أنه آمن بالفن حين لم يكن للفن حرمة ولا حتى وجود وأنه غامر في سبيله مغامرة فريدة . ولئن اخطأ في نظريته فقد انتج لنا في جملة اشعاره قصائد فيها من معاني الانسانية الحق ومن روعة الفنّ الشعرى ما يكتب لاسمه البقاء .

كلمة الى صديقه عبد الخالق

يا صديقي !

أنت تسألني رأيي في هذه الطائفة التي تسميها عامدا « شعراء الاختيار » وتريد منها تلك الفئة من النظامين التي لا تستلهم السماء ولا الارض ولا تستوحي الموت ولا الحياة ولكنها تستوحي الكتب والاوراق والقصائد والاناشيد .

وما أحسبك تجهل رأيي في مثل هاته الطائفة بل أحسب انه لم يحملك على مسألتي هذا السؤال إلا لانك تريدني ان اضرب بسهم في هذا الحوار الجميل الرائع الذي يدور بينك وبين أخينا الحليوي هادئا هينا وديعا وإن كانت شقة الخلاف بعيدة فيه كل البعد . فانك لتعلم اني وصفت الشاعر في بعض ما كتبت بأنه « ذلك الخلاق الذي يبعث في آثاره شعلة من روحه ونسمة من حياته فاذا هي ناطقة تعبر في قوة وابداع عما في هذا الوجود من سحر وفن وجمال وتتغنى بما يزخر في اعماق القلب البشري في عطف وبغض ويأس وحنين ولذة وألم وغايات ومثل... » وانه « ذلك الجبار الذي يرتفع بقلبه فوق البشر ليتحدث بلغة السماء عن نشوة الروح وحيرة الفكر التائه بين نواميس العالم وجمال الوجود... » .

ولكن لندع هاته القمة الشاهقة التي يجلس منها الشاعر على صخرة عالية تجللها الغيوم والاضواء والظلمات مشرفا على تلك الدنيا المقدسة الساحرة المستقرة في احشاء الحياة وطوايا هذا الوجود . ولنتزل إلى هاته الارض المدحوة المتطامنة التي يمشي في مناكبها ابناء التراب ولنتحدث عن الفن كما أفهمه ثم عن هاته الطائفة التي تسميها « شعراء الاختيار » ونصيبها منه . وإذا فما هو الفن اولا ؟ الفن في نظري حياة موسيقية مصطفاة سواء كانت قطعة تنشد او لحنا يعزف او صورة ترسم او تمثالا ينحت . هو « حياة » لان الفن في صميمه إنما

هو صورة من تلك الحياة التي يحياها الفنان في هذا الكون الزاخر الرحيب او في دنيا خياله واحلامه وكيفما كانت تلك الصورة في اللون والشكل والغرض وهو حياة « موسيقية » لان الفن في جميع صوره والوانه إنما هو نسب موسيقية يوازن الفنان بينها موازنة حكيمة ملهمة يحس بها ويأتيها وربما لا يفهمها حق الفهم او بعضه . فالشاعر العظيم هو ذلك الذي يوفق إلى المعادلة بين نسب العاطفة والفكر والخيال والاسلوب والوزن بحيث يكون لكل منها نسبة فنية تجاوب بقية النسب الاخرى وتنسجم معها في القصيد انسجام النور والعطر والماء والهواء في الزهرة الجميلة اليانعة والرسام العظيم هو الذي يوفق في الصورة إلى الموازنة الموسيقية بين الالوان والاضواء والظلال والروح الفنية الشائعة في كل ذلك شيوع الضياء في السماء وليقل مثل ذلك فيما بقي من ضروب الفن واشكاله

وهو حياة موسيقية « مصطفاة » لان الفنان المخاص لفنه لا يعبر بفنه او هو مكره على ألا يعبر به إلا عن ارفع صور الحياة واسماها وإلا فان في الحياة كثيرا من السخافات والدنايا لا ينحط إليها الفن الرفيع بحال .

وعلى هذا فان الشعر حياة موسيقية مختارة تعبر عن نفسها في فن من الكلام والموسيقى حياة موسيقية مختارة ترفرف بالحان مجنحة في جو منغم موزون وكذلك يقال في المثالة والنحت والتصوير .

فأنت ترى ان لباب الفن وصميمه في رأيي هو « الحياة » بكل ما فيها من شعور وفكر وبداهة وخيال .

وإذا فما حظ هذه الطائفة التي تسميها عامدا « شعراء الاختيار » من « الحياة » التي لا يكون الفن بدونها فنا ؟

لننظر .

إن أحدهم ليغلق سمعه وبصره عن كل ما يعرضه الكون من مرأى ومسمع وعن كل ما يعج بقلبه من هواتف واحلام عاكفا على الكتب منصرفا

إليها يلتقط منها ما يفتنه من ضوء وزهر وظلال لينشىء منها « حديقة » بزعم انها نامية ريانة بالحياة !

قد نقول له حين ننظر إلى حديقته : ما أجملها !

لكننا لا نستطيع ان نقول له : ما أحيا حديقتك يا صاح ! لاننا لن نجد إلا جمالا هندسيا لا عطف فيه ولا حياة .

وقد نصفه بلطف الذوق والبراعة او الذكاء ولكننا لن نصفه بالفن او العبقرية او الالهام فالذوق شيء والفن شيء آخر والبراعة شيء والالهام شيء آخر والذكاء شيء والعبقرية شيء آخر تلك لا تحتاج إلا إلى الكد والدأب وحسن الاختيار وأما هاته فانها هبة السماء وشعلة الحياة وشتان بين الجواهر والمظاهر وبين القشور واللباب . والبراعة وما إليها قد تستطيع ان تختار وتؤلف وتنضد وتوفق إلى حظ غير يسير من جمال التنسيق والتأليف ولكنها لا تستطيع بحال ان تخلق الاشياء خلقا فتلك مزية العبقرية ربة الإنشاء والابداع . الحق يا صديقي ان هاته الطائفة التي تزجها في الشعراء زجا ليست من الشعر في شيء وانما هي آلات صماء تتحرك بلا قلب وتنطق بلا شعور وهي قد تكون بارعة في الوثب والقفز والمسير رقيقة في النجوى والحديث والنشيد ولكنه سير مقلد وحديث معاد تلعنه الحياة ويبرأ منه الشعر والفن . وماذا يبقى في الشعر والفن عموما من سحر إذا انطفأت فيه الحياة وفقدنا ما فيه من حرارة وحركة وشعور ؟ لا شيء إلا جمال الشعوذة ورنين الالفاظ وهو جمال خامد لا أحسبه يضل ويفتن إلا أطفال الادب وصغار العقول .

وهذا الجمال الميت الزائف هو كل ما « لشعراء الاختيار » من بضاعة مزجاة . وإني لاعجب لك يا صاحبي كيف تؤمن مع هذا بانهم على شيء من الشعر والفن .

أما أنا فما اشبههم في عالم الشعر إلا بتلك الطفيليات التي لا تورق ولا تزدهر ولا تثمر ولا تستطيع ان تستخلص من الكون عصير الحياة . إنما كل عملها ان تلتف على بعض الجذوع الحية النامية تقاسمها ما امتصته من قوة الارض والماء والسماء.... هاته كل على النبات وتلك كل على الشعراء وكلتاهما عبء على الحياة ثقيل .

قد يسبق إلى وهمك مما تقدم انني أريد من الشاعر ان يخلق آثاره من العدم ويأتي بها غير مسبوقة بصورة او مثال كلا فتلك حماقة جلية لا يقول بها من يعلم ان الحياة نفسها ليست إلا حرية ترسف في القيود وسلسلة يتصل فيها التليد بالجديد . وإنما أريد من الشاعر في فنه ان يترسم خطى الحياة في فنها فالزهرة التي هي فن من فنون الحياة ليست إلا بعض ما في التراب والماء والسماء من روح الوجود ولكنها مع ذلك فن منها جديد يخيل لك أنه بعيد عنها جد بعيد . ونحن ابناء الانسان ننحدر إلى هاته الدنيا وفينا مشابه من آبائنا الاولين في الملامح والميول والاطوار ولكن لكل منا روحه الخاصة وطابعه الممتاز وكذلك تتدفق الكائنات من قلب الحياة الازلي الذي لا ينضب وكأنها صورة ممتازة متباينة رغم ما بينها من وشائج الرحم والقربى ولولا ذلك لاصبح عمل الحياة عبثا متواصلا معادا لا جدوى وراءه ولا متاع .

كذلك يفعل الشاعر . فهو لا يخرج ولا يستطيع ان يخرج عما في نفسه التي بين جنبيه وما في هذا العالم من سحر وألم وما خلفته الانسانية من فن ورأي ودين . ولكن ينبغي ان لا يلقي إلينا ما ينتجه من ذلك إلا بعد ان يحيا في قلبه ويتوهج في حياته فيبرز للدنيا موسوما بوسمه مطبوعا بطابعه الذي طبعته به الحياة .

ذلك رأيـي يا صديقـي أدفعه إليك ولست أعلم ما سيـكون وقعه من نفسك ورأيك ولـكـنني أقول إننا ما زلنا في بداية نهضة روحية وفي مستهل فجر جديد وانه خير لنا وأخلق ان نتمسك بأدق المذاهب روحانية وابعدها غورا واسطعها ضياء من ان ندين بهاته المذاهب السطحية المتساهلة التـي لا تتجاوز المظاهر إلى الاعماق . وإلا فعلى نهضتنا وأدبنا وشعرنا سلام الوداع .

الزمـان عـدد 244 — (4 سبتمبـر 1934)

ابو القاسم الشابي من خلال رسائله

نشر السيد محمد الحليوى فصله هذا لاول مرة فى مجلة « الافكار » التونسية بعددها الاول المؤرخ بيوم 1 نوفمبر سنة 1936 ولم يثبته ثانية فيما اعاد نشره من فصوله ضمن كتابه « مع الشابى » مع ان هذا الفصل فى غاية الاهمية لانه يحتوى على مقتطفات نفيسة من بعض الرسائل التى كان الشابى راسله بها والتى لم تنشر الى يومنا هذا وذلك علاوة على ما فى النص من تعاليق السيد الحليوى السديدة التى تكشف لنا بدقة عن جانب التشكى والتبرم من نفسية ابى القاسم .

فلهذين السببين رأينا ان نعيد نشر فصله .

لقد كانت وما تزال الرسائل المتبادلة بين الادباء ذات أهمية كبرى في معرفة نفسية الكاتب وتفكيره في مختلف الاطوار التي مرّ بها في حياته . وقد يعثر الباحث في اثناء دراسته لاديب من الادباء على نصوص ووثائق تفتح له مغالق من شخصية ذلك الاديب وتوقفه على اسرار واعترافات لا يمكن ان يقف عليها في آثاره وكتاباته . ذلك ان الاديب الذي يكتب الرسالة لصديقه يتجرد من قواعد الفن ويرسل نفسه على سجيتها ويترك لها العنان في وصف ما يتكاءدها ويثقل عليها ويحيط بها من العوامل والاحوال وما ينصب عليها من الطوارىء والانفعالات التي تنفعل بنفس الاديب متى لامست العالم الخارجي او عنيت بشأن من شؤون المحيط الذي تحيا فيه .

وقد كانت بيني وبين الشابي مراسلة مسترسلة لان كل واحد منّا كان في غربة روحية فقد كنت ببني خلاد وهي قرية من قرى الوطن القبلي ليس بها من المتع الروحية لا القليل ولا الكثير وكان هو في قرية الشابية البعيدة عن عاصمة الجريد وليس له في قريته من يعاطفه ويفهم روحه ويستمع إلى أحاديث نفسه وكنا بطبيعة الحال نتبادل الاراء ويحدث بيننا هذا التجاوب الذي لا بد منه للأديب فما نشر أحدنا شيئا إلا ووجد صداه في الرسائل المتبادلة وما ظهرت

فكرة في عالم الادب او نشر كتاب او كثر الحديث حول موضوع او فكر أحدنا في مشروع إلا ووقع التراسل بيننا .

على ان الظاهرة التي تلفت النظر في رسائل الشابي هي شكواه ووصف آلامه وما يلقاه في حياته من معاكسة الاقدار واشتداد وطأة المرض وتفاهة الحياة التي يحياها في ذلك الوسط فهو تارة يشكو من المرض فيكتب :

« لقد اشتد الضعف على قلبي في هاته المدة الاخيرة بما أوجب معه الطبيب على حرماني من كل الاعمال الفكرية لا فرق بين مطالعة او تحضير او كتابة... لا تألم ياصديقي لاخيك فان قلبي هو منبع آلامي في هذا العالم . ومن يدري ؟ لعل سيكون منبعا لمثل هاته الآلام في عالم آخر ان قلبي يا صديقي هو منبع آلام هاته النفس التائهة المعذبة وهذا الجسد المعنى المنهوك وما دمت أحمل بين جنبي هذا القلب الكسير وما دامت الحياة تهد منه ولا ترحم فانني اشقى ابنائها » .

وتارة تضيق به الحياة بعد موت أبيه فيصرخ :

« أنا في ساحة تعصف بها الهموم وتنعقد من فوقها الاحزان وتخر عليها أمواج الدموع . إن استمعت إلى نفسي لم ألف إلا الاسى يبكي وأصخت إلى قلبي لم أسمع إلا النحيب او قلبت طرفي فيما حولي لم أبصر إلا ظلمات تتدجى من فوقها ظلمات... إن قلبي الرازح بهموم البشر لأضعف من ان يضطلع بكل ما في هذه الدنيا من مصائب.. »

وقد تضيق به قريته ويشعر بالوحشة القاتلة فيخرج إلى الصحراء عله يجد في سعة آفاقها سعة وفي جلالها سلوة وملهاة :

« إنني الان في عزلة محببة إلى نفسي في الصحراء او تحت ظلال النخيل وليس معنى هذا انني هجرت المدينة وفررت بنفسي إلى احضان الطبيعة التي

أجد فيها من معانـي الجمال والعطف والحنان ما لا أجده في قلوب البشر الذين مللتهم ومللت أحلامهم الصغيرة وأحاديثهم السخيفة وضحكـاتهم التافهة وإن كانت مخضوبة بالدموع لا فأنت تعلم أننـي مكـبل بقيود من لحم ودم تجبرنـي على خوض هاته الحياة البغيضة المستثقلة وتحرمنـي من تلك اللذة الوحيدة التـي تحن لها اشواقـي حنينا صادقا في هـذا العـالـم . وانمـا أعنـي بعزلتـي اننـي اصبحت بعيدا عن الناس ابتعادا » .

وقد تبلغ به خواطر الوحدة إلى ان يسبغ على ما حوله من الاشياء صفات الالم والشقاء فيقول مثلا في الصحراء :

« جمال الصحراء الذي يمتد أمامـي جمال ساهم محموم . ولقد يخيل إلي أحيانا انه يفـكـر في ما وراء هذا العالم الصاخب الموار... في معانـي الفناء والموت والظلام . ولقد يبلغ بـي الوهم أحيانا ان أحسبه شاعرة مسلولة تناجـي في حمى السقام احلامها الحزينة الصامتة الموشحة بأردية الموت » .

هـكـذا يظل يشكـو من كـل شـيء ويتفجع لـكـل شـيء ويرى كـل شـيء على مثاله يشعر بوجوده ويثور على الحياة التـي اضطرته إلى تلك الحياة .

فيا ليت شعري هل كان مبعث تشاؤم الشابـي هو مرضه ونـكـباته في حياته وعزلته في الصحراء أم هو ولد متشائما كما تولد الوردة بأشواكـها ولو سقيـت بنمير الماء وغذيت بمشرق الضياء وظلت بزرقة السماء .

مجلـة « الافـكـار » التـونسيـة

العـــدد 1 — (اول نوفمبـر 1936)

السنة الاخيرة من حياة الشابي

نشر البشروش هذا النص لاول مرة بصحيفة الزمان في عددها المؤرخ بيوم 16 نوفمبر 1938 وقد قدم قلم تحرير الزمان لهذا النص بكلمة نوه فيها بمجهود البشروش ومنها نقتطف ما يلي : « وها هو اليوم يقدم لهم صفحة من كتاب يعده في دراسة أدب صديقه فقيد الشعر العربي ونابغة الشمال الافريقي المرحوم ابي القاسم الشابي بمناسبة ذكراه الرابعة » .

وقد رأينا أن نعيد نشر هذا النص لاسباب عدة .

اولا لانه وثيقة هامة خطها قلم صديق للشابي حميم لابسه في حياته العامة والخاصة كما لم يلابسه أي صديق آخر له . وقد ورد في هذه الوثيقة — وإن بشيء من الاقتضاب — معلومات كثيرة دقيقة عن أهم ما عاناه ابو القاسم في سنته الاخيرة مما يساعد على ضبط الطور النهائي من حياته .

ثانيا لان هذه الوثيقة تعتمد — فيما تعتمده — فقرات عديدة مقتطعة من رسائل لابي القاسم لم تنشر إلى يومنا هذا بحذافيرها وهي الآن ولا شك في حوزة آل البشروش ونحن نحب ان ننبه إلى أهميتها عسى ان يسرع آل البشروش إلى نشرها .

ثالثا لان النص صفحة من كتاب مخطوط كان صاحبه يعده في دراسة ابي القاسم الشابي وأدبه ونحن — إذ نعيد نشره — نحب ان نكبر مجهود البشروش وهو من المغمورين وان ننوه بنشاطه الثقافي وبخالص وفائه لروح صديقه الشابي ريثما تتحرك همة آل البشروش او اصدقائه إلى نشر هذا الكتاب برمته .

صفحـات من كـتـاب
السنـة الاخيـرة من حيـاة الشابـي
بمناسبـة مرور اربعـة اعـوام على وفاتـه

بقلم الاستاذ محمد البشروش

رجع الشابي إلى توزر في أراخر نوفمبر من سنة 1933 فوجد في انتظاره مكتوبا من الدكتور أبي شادي يرجوه ان يكتب تصديرا لديوانه (الينبوع) فكتب التصدير وارسله إليه وطلع علينا بعد ذلك (ينبوع) ابي شادي مصدرا بقلم ابي القاسم وهو تصدير بديع يطالعنا بفهم الشابي للشعر ونظرة الشابي لشعر أبي شادي .

وقد اشتد على الصديق اثناء شهر رمضان من هاته السنة مرضه حتى ألزمه الفراش وأعجزه عن السير . فظل ما يقرب من الاربعين يوما لا يغادر سريره وكنت كثير الترداد عليه في هاته الايام . وكان رغم تعبه لا يفتأ يتطلع إلى أخبار اصدقائه ولا يفتأ يتحدث عن الادب وحركته بتونس وعن آمال كنا نبنيها ونشيد صروحها فتهدم... وكان يزيد في آلام مرضه انه لا يستطيع أن يزايل البيت إلى الغاب القريب . فمال إلي ذات يوم وكنت اهون عليه الامر وأسليه مال إلي وقال بمرارة :

— حرمت حتى عطف الطبيعة وحنوها يا صديقي !

وما كاد يحس بخفة وطأة الالم حتى ذهب إلى بلد الحامة (حامة توزر) لاعتدال طقسه وخفته بالنسبة لطقس بلاد الجريد وكتب إلي منها يوم 24 افريل 1934

« وبعد فان ذكراك يا صديقي أبدا حية في نفسي وأقسم أني لم أنسك منذ حللت الحامّة إلى اليوم وفي كل يوم اعتزم الكتابة إليك ثم يصدّني الكسل والخمول » .

ونفهم اسباب هذا الكسل وهذا الخمول فان صحته بعد المرض كانت أحوج إلى الزهد في كل شيء وإلى الراحة المطلقة . وقد زهد الشابي في كل شيء وأقبل على الراحة المطلقة يقول :

« ليس لي من عمل الآن سوى لعب الكارطة والاستماع والمشاركة في الاحاديث التي اكثرها فارغ لا يجدي وقد كنت وعدتني بالزيارة ولم تفعل وفوت فرصا كثيرة لذلك وبقيت انتظر بلا جدوى . فوت فرصة (باك) وفوت عطلة الاحد الاخير وقد وليته عطلة عاشوراء » .

وزرته بعد ذلك بأيام وكان نظام يومه في الحامة ان يستيقظ بكرة ويخرج إلى الغاب القريب حتى الضحى فيرجع إلى القرية ويقضي اوقاته في الاحاديث واللعب بالاوراق وفي المساء يجتمع مع معلمي المدرسة وأعيان البلد ممن ينتسبون إلى العلم ويمر الوقت في الاحاديث والممازحة أحيانا .

والاحظ ان هذا النوع من الحياة كان يمقته الشابي ولكن العناية بصحته باغفال جميع الاعمال الفكرية هو الذي دفعه إليه .

وقد كان لإقامته بالحامة أثر طيب على صحته : يقول في الرسالة التي سبق ذكرها :

« أما أنا يا أخي فصحتي إذا نظرت إلى حالتي عند مرضي الاخير وعندما فارقتك فهي احسن ولكنها ما زالت أقل مما كنت عليه قبل المرض وما زلت لا احتمل السير ولا استطيعه إلا على هون وراحة تتخلله » .

ورغم هذا كله فقد كان يفكر في طبع ديوانه تفكيرا جديا وأراد جمع ما وقع ترويجه من الاشتراكات فكتب إلي يوم 24 ماي 1934 يقول :

« إنني الآن أريد ان أعرف ما وقع ترويجه من الاشتراكات حتى اقدم الديوان للطبع » .

وكان ينوي طبع ديوانه بمصر لاتقان الطباعة في مصر اتقانا يضمن لـه اخراجه للناس في المظهر الذي يناسبه . فكتب إلى الدكتور ابي شادي في هذا الصدد واعلمني بمكتوب مؤرخ في 24 جويلية 1934 بما يلي :

الآن قاربت انجاز نسخ الديوان وانني انتظر الجواب من مصر ولكن بقيت بعض القصائد لم تنجز ونفسي الآن موصودة لا تتحرك بها أطياف الخيال ولست أدري ما سيكون الحال » .

ومن القصائد التي لم تنجز إذاك قصيدة (الغاب) انجزها على كل حال قبل موته وترك لنا ديوانه وما اختار جمعه من أشعاره كاملا غير منقوص .

ولم يقع اقبال على الاشتراك في الديوان وهذا نعلمه مما جاء في مكتوبه هـذا قـال :

« لاحظت ان الصديق القرقني لم يجبك وهذا عين ما وقع لي مع اكثر أصدقائي الذين طلبت منهم معاضدتي في توزيع الاشتراك . بل ان كثيرا منهم كاتبتهم مرتين طالبا إعلامي بالنتيجة فلم يجيبوني ولا بحرف .

وهذا بعض انواع الذل والهوان التي يلقاها المؤلف التونسي في هذا الشعب »

واثناء هاته المدة تحسنت صحته نوعا ما .

« صحتي الآن خير مما تركتني عليه وقد عدلت عن مباشرة « الرياضة » واستعضت عنها بالاستحمام الشمسي وأظن أنني سأقضي بالحامة شهرا آخر من الآن... » .

إلا أنه إذا كانت صحته قد تحسنت في أوائل الأمر فقد اتبعه مرض زوجته وابنه الاصغر جلال .

« إن افكاري مبلبلة مضطربة فان زوجتي مريضة من زمان وهي الآن تحت المعالجة كما ان جلال مريض بعينه مرضا أتعبه ولا أدري متى تهادننا احداث الزمان » .

وقد وقعت معالجة زوجته وولده ببلد المتلوي وكان يقضي اوقاته « بين الحامة والمتلوي اين تعالج زوجتي الآن بمستشفاه هي وجلال ابني » .

وكتب إلي بتاريخ 4 اوت 1934 يقول :

« إن الحالة الصحية الآن خير من قبل وأظن انني أفارق الحامة إلى توزر بجملة العائلة بعد اسبوع » .

وكتب إلي بتاريخ 12 اوت 1934 :

« انني اليوم سأرجع إلى توزر بعد غيبتي الطويلة عنها واحمد الله انني ارجع إليها احسن مما فارقتها وفي نيتي أن أزور العاصمة في أواخر هذا الشهر اوت ولا بد أن أعلمك بيوم زيارتي إلى العاصمة » .

ولم يعلمني بيوم قدومه إلى العاصمة كما وعد ولكنني كنت مارا بالحاضرة في يوم 28 سبتمبر من السنة نفسها فبلغني ان مرضه اشتد عليه يوم قدومه فنصح له الطبيب بالاقامة في أريانة .

وزرته في مساء اليوم نفسه ودخلت عليه فوجدته يعاني الامرين رحمه الله وعلى صدره الثلج كما أمر الطبيب واعلمني أنه كتب إلى ولكن مكتوبه وصل إلى نابل بعد أن غادرتها .

والمسكن الذي أقام به بأريانة عدد 5 — 9 من بناية « فريوه » رقم 23 طريق جعفر .

وفارقته بعد ان وعدته بالرجوع إليه قريبا ولكنه زاد اشتداد المرض عليه بعدي فدخل إلى المستشفى الافرنسي (1) ويموت اليوم التاسع من اكتوبر على الساعة الرابعة صباحا . ويبلغني نعيه في وقت كنت أنوي فيه السفر لزيارته وهكذا انتهى اكبر شاعر عرفناه لتونس في جميع عصورها وهكذا انتهى الشاعر الذي يخاطبه ابو شادي راثيا :

أبا القاسم الشابي أبا القاسم الشابي مكانك في الاخرى مكانة أرباب

ودفن ابو القاسم في مقبرة اسلافه على تخوم الصحراء التي كانت تلذه ويضيق بها ذرعا .

الزمان (16 نوفمبر 1938)

---

(1) والصواب انه دخل المستشفى الايطالي وبه توفي كما أثبت ذلك بأدلة قاطعة الاستاذ عامر غديرة ـ راجع فصله « محاولة جعل إطار لترجمة الشابي » ـ مجلة الفكر السنة 5 ـ العدد 3 ديسمبر 1959 . (ت ـ ب)

نقـد الكتب

« حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها »

تأليف الدكتور عبد الرحمـان يـاغي
493 صحيفـة . ط . دار الثقـافـة
بيروت سنـة 1961

(نقد الشاذلي بـويحيى)

أوّل كتاب ظهر في سلسلة جديدة تسمّى « المكتبة المغربيّة » (1) اختار لها فيه أصحابها والمؤلّف أجمل موضوع وأشهر أديب أنتجته تربة المغرب العربيّ وهما حياة القيروان وابنُ رشيق .

والقارىء المتطلّع الى معرفة شوامخ أدباء العرب لا يسعه الا الابتهاج بكتاب عليه جميع سمات الإتقان والدسامة : فعنوانه خلاّب ومؤلّفه دكتور (2) وحجمه ضخم وإخراجه وضّاح أنيق . والمتصفّح له يطمئنّ لعلامات العمل العلميّ الظاهرة عليه : فالصفحات زاخرة بالحواشي تذكر مراجع البحث

(1) ظهر بها كتاب ثان للمؤلف – لعل تأليفه سبق الاول – عنوانه « ديوان ابن رشيق القيرواني » نعتزم التعريف به في عدد مقبل .

(2) وددنا لو علمنا من أية جامعة تخرج . « فالدكتورا » أنواع ودرجات تظهر آثارها في قيمة الإنتاج العلمي .

بضبط مواطنها ثم جمعت أهمّ هذه المصادر والمراجع في آخر الكتاب يتلوها فهرس واحد هو فهرس الاعلام وفي آخر صفحته من الكتاب «فهرس» المحتويات . فيؤمل من تفاصيله الزاد الوافر والبسط الواضح إذ هو يعد بتناول الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية في زمن بني زيري ثم سيرة ابن رشيق — حياته وشيوخه ومعاصريه وتلاميذه — وابن رشيق والحياة السياسية فالحياة الاجتماعية فالحياة الفكرية وأخيرا ابن رشيق الشاعر فالكاتب فالناقد .

وقرأنا الكتاب منذ أن ظهر بتونس سنة 1962 وتركناه متمثلين بقول الشاعر « مَا أنْتَ أوّلُ سَارٍ غرَّهُ قَمَرُ » للبون الكبير بين ما توسّمناه فيه وما وجدنا ثم إنّنا رأينا للكتاب بعض الرّواج عند من سمّيناهم بالمتطلّعين الى الادب وخاصّة الطلبة منهم وكان قد أعلِن عنه وقدِّم في بعض المجلاّت المحلّية (3) بشيء من الإطراء والإعجاب غير قليل فخشينا مغبّة التضليل — على الناشئة خاصّة — وهم محلّ عنايتنا — فعزمنا على التعريف بالكتاب لكشف الغطاء عنه لا للمساهمة في ما لا يستحقّه من رواج ثم غضبا لابن رشيق وصيانة لصيته وإعلاء للحقّ لا لمناقشة ما ليس محلاّ للنقاش .

فالكاتب في حقيقة كنهه — رغم ظاهره الغرور — مزيج من الحقائق المتعارفة الغنيّة عن التعريف والتأليف فيها من جديد وبين آراء واستنتاجات جهَد المؤلف في أن يبرز منها ابن رشيق في أشوه صورة نعرفها لاديب وشاعر عربيّ بل ولإنسان أيضا ملتجئا في ذلك — بعد كثير من العجز والغلط والخطإ — الى افتراض ما لا يجد له حقيقة والى المغالطة — أو هو الغلط وعند ذلك فالعذر أقبح — في تأويل النصوص بل في قراءتها بأن يبدل الكلمة بالاخرى حتّى يتسنّى له تقبيح ابن رشيق في أخلاقه وكرامته وتشويه سمعته

(3) « الفكر » (تونس . السنة 8 عدد 1 أكتوبر 1962 ص . 99 — وخاصة عدد 3 — ديسمبر 1962 ص . 285 — 289) .

كـشاعر وكاتب . كـلّ ذلك في إلحـاح حاقـد وعبـارة الشتم البـذيئـة نساءل بعدهما لماذا أضاع الوقت في الاعتناء بمن لا قيمة له عنده .

والحقيقة أن الـكـتاب تعوزه الصبغة العلميـّة — بله النزاهة وحتى الامانة — فعوّض عنها وعن القيمة الصحيحة بارادة الشذوذ فتوخّى صاحبـه فيه طريقـة النقد للنقد لا طريقة النقد البنّـاء .

يظهر زيف الـكـتاب في حشوه المفرط بما لا علاقة له بغرض الـكـتاب من ناحية وبما ليس من قلم المؤلّف من ناحية أخرى . فالذي نقرأه من وصف افريقية والقيروان وأهلها وتاريخها بعنوان زمن بنـي زيري (ص 5 — 108) إنّما جلّه عموميّات في غير دولتهم . وباب « ابن رشيق الناقد » (ص 379 — 454) مدعاة لاستعراض حركـة النقد عند العرب في اكـثر من عشرين صحيفة قبل ان يصل إلى ابن رشيق . لـكـنّ ذلك كـلّه يـكـون مرضيّا محمودا لو كان من عند المؤلف بقلمه وإنشائه إلاّ أنّه حشر فيـه أقـوال من أخـذ عنهـم نقـلا لا استخلاصا او اختصارا فترى الفقرات الطويلة تتتابـع من كـلام المؤرّخيـن والادباء والنقّاد وقد يتبعها تـأويل المؤلف لها وهو غـالبـا مجـرّد إعـادة لتلك الفقرات ثم إذا انتقل الى دراسته الشخصيّة لنقد ابن رشيق فإنّه يورد فقـرات من كـتاب « العمدة » — وكان قد فعل ذلك في أبواب أخرى — ثم يتنـاول الـكـتاب بتحليل هو أقرب الى التلخيص منه الى التحليـل المدعّـم للـدّراسـة العلميّة . وكـذلك ينقل من كـلام ابن رشيق في « الانموذج » و « قراضـة الذهب » ويـكرّره في شبه تلخيص على عادته فاذا جمـع ما في الـكـتاب من منقول وإعادة له لم يبق منه للمؤلّف إلاّ أقلّه .

غير أنّنا لا نرى التقصير باعتبارنا الـكـمّ بقدر ما نراه في طريقة البحث والتـأليف . ومعروف انّ الدراسة العلميّة اليوم — في الشرق وفي الغرب — تُعرض بتاتا عن طريقة الرواية المحض وسرد الاقوال المتتابعة في حوار منسّق أو غير ذي تنسيق وتتوخّى طريقة استنباط فـكـرة شاملـة يستخرجهـا البـاحث

بعمليّة تحليليّة ثم تأليفيّة استنادا الى علماء او رواة يقتصر على الإشارة الى موطن كلامهم من مؤلّفاتهم فتأتي الفكرة فكرتَه هو قد صنعها هو فكفى بذلك القارىء مؤنة صنعها .

ومن خصائص عقم تلك الطريقة ما يكتسي به الكتاب من صبغة التلفيق وقلّة التنسيق بين النصوص والآراء والابواب ايضا فتكثر عبارات : «ونجد... ولا نجد... » او « قالوا [الشعراء] في... وقالوا في... وفي... » الخ...

وهذه الملاحظات تبيّن أنّنا نقرّ بما جمعه المؤلّف من مادّة غزيرة وما رجع اليه من مصادر واسعة غير أنّه علاوة على استعمالها بقليل هضم لها فمن الغريب أننا نراه يترك الامّهات من المصادر أحيانا ويلجأ الى من استعملها فيذكرها لنا من عند هذا الثاني كأن يستشهد بقول حاجّي خليفة بقلا عن « المكتبة الصقلّيّة » للمستشرق أماري (ص 323) فهل يتعذّر عليه مراجعة « كشف الظنون » مباشرة ؟ وكذلك يفعل عندما يستشهد بمن ذكرهم الميمني الراجكوتي وهم في متناول الجميع الا أن ذلك راجع الى طريقة في العمل رأيناها تعتمد النقل والرواية المجردة القريبة لا الغوص على المادّة في مواطنها ثم استنتاج الزبدة منها .

لكنّ الكتاب ليس خلِوا من استنتاجات المؤلّف الشخصيّة واعتماده المصادر والاخبار والروايات لاستنباط « حقائق » ونتائج يصيب في بعضها إلا انّه يخطىء في بعض آخر إن لم نقل يقصد الى المغالطة أحيانا لما أشرنا إليه من تعصّبه على ابن رشيق وإن هوّن من ادّعاءاته بقوله « لعلّ » او « كأنّ » وهو يكثر من استعمال أدوات الافتراض غير أنّ أداة الافتراض تُنسى ويبقى ما جاء معها وقد يكون خطيرا وهو خطأ .

خذ مثالا لذلك — والكتاب كلّه مثال لهذا — ما جاء عن القزّاز في ذكر شيوخ ابن رشيق . يبتدىء الحديث عنه بقوله (4) : « ولعلّ القزّاز... أن يكون

(4) ص . 137 .

من أشهر شيوخ ابن رشيق » ثم (5) : « ولعلّ تعلّق ابن رشيق به كان له في حياته أبلغ الاثر فجعل صاحبنا يتناول فنونا مختلفة بالدرس والتحصيل . ولعلّ صلة القزّاز بالسلطان (تعليق : العزير بن المعزّ العبيدي) قد فعلت في نفس ابن رشيق فحبّبت اليه محاولة الاتّصال بالمعزّ الصنهاجي فسلك السبيل المؤدّية إلى ذلك » (ولا نعلّق على هذا !) . كما أنّه يرى في جميع من عرفهم ابن رشيق شيوخا له أو مؤثرين في انتاجه . فابن رشيق تأثّر بجميع من عرف وسمع وقرأ بل تبعهم وأخذ عنهم حتى انه لما عثر ابن رشيق على غرام للشاعر يعلى الاربسي وهو معه في بعض أزقّة القيروان فانّ المؤلف يرى في ذلك الحادث تدريب يعلى الاربسي لابن رشيق على المغامرات الغراميّة ! فيقول « ... وبذلك يدرّبه على العشق دربة عمليّة من حيث يدري ومن حيث لا يدري » (6) (والله أعلم بما يدسّ في عبارة « دربة عمليّة ») .

فهذا نموذج من طريقة معروفة عند بعضهم في بناء « الحقائق » بالاستنباط اللاّ منطقي حسب الهوى والاغراض . بل وقد يطغى على المؤلّف ما بين يديه من « مادّة » فلا يستطيع فهمها واستغلالها لما مرّ من عقم طريقة الرواية فيضطرب مثلا في أمر حياة الناس في القيروان زمن بني زيري فتبدو من كلامه في صورة قاتمة من الاستبداد والمعارضة والثورات وتناحر الاحزاب والخوف والقلق بينما يذكر الثراء والسلم وخصب العمران وخفض العيش والمتع بالملاذّ وتوفّر أسبابها في الموطن الواحد من الكتاب (7) وذلك لاعتماده على أخبار وقصص جزئيّة فيها هذا وذاك فلم يستطع إخضاعها الى التمحيص فالنقد فالتأليف .

وعلم التاريخ وعمله ليس باليسير والنجاح فيه أعسر . وقد يتجاوز الامر في هذا الكتاب عدم التحكّم في المادّة الى الخطإ والغلط . ولنا مثال لذلك

---

(5) ص . 138 .

(6) ص . 158 - 59 .

(7) ص . 79 وما بعدها .

في مناقشة المؤلّف حول تاريخ وفاة ابن رشيق حتى يرجّح سنة 463 على سنة 456 وقد رجّحها ابن خلّكان ولعلّها الصحيحة . فالمؤلّف يعتمد أوّلا على ما يدّعي (8) انّ ابن بسّام قد أورده من خبر وفاة ابن شرف سنة 362 (كذا) نقلا عن ابن رشيق في « قراضة الذهب » فتكون وفاة ابن رشيق بعد هذه السنة لا قبلها طبعا . ونحن لا نزيد على ان نلاحظ ان المؤلّف قرأ ونقل وكتب سنة 362 وهو يعتقد أنها سنة 462 . ونصّ ابن بسّام جاء في أخبار ابن شرف (الذّخيرة 4 — 1 ص 179) غير أنّه يتعلّق بابن هانـي وكانت وفاته سنة 362 حقّا لا بابن شرف . فليراجعه الدكتور . واستعمال الضمائر في ذلك النصّ لا يُشكل إلاّ على من فاتته أسرار العربيّة .

وحجّته الثانية (9) انّ الامير عبّادا الذي أراد ابن رشيق الالتحاق به من صقلّيّة الى الاندلس قد ولي الامر سنة 461 فتكون وفاة ابن رشيق حينئذ بعد سنة 461 اي سنة 463 لا سنة 456 . والحجّة باطلة لانّ سنة 461 هي سنة وفاة عبّاد المعتضد بالله لا سنة استيلائه على الامر ! فانه ولي إمرة إشبيلية من سنة 434 الى سنة 461 . وقد اختلط الامر على المؤلّف فهو يقرأ اسم عبّاد في المصادر التـي يعتمدها ويظنّه ابنه المعتمد بن عبّاد فيسجّل تاريخه ! (10) .

والاغلاط التاريخية من قبيل ما ذكرنا عديدة في الكتاب فاحشة أحيانا خطيرة العواقب في البحث لا سبيل الى تتبّعها كلّها فليس قصدنا إصلاح ما فسد من الكتاب لكنّنا نشير الى بعضها حتى نبرّر حكمنا السابق وقد يبدو قاسيا . الاّ أنّه الحقّ .

---

(8) ص . 118 .

(9) ص . 118 .

(10) يعتمد في هذا التاريخ على « وفيات الأعيان » لكن ابن خلكان ذكر غير ما قوله المؤلف فقد جاء في « الوفيات » (ط . القاهرة 1948 — 4 — ص 114 — 15) أن المعتضد بالله عبادا ولي الأمر سنة 433 وتوفي سنة 461 .

فمن ذلك ما جاء (11) من أنّ « أعظم أولياء تونس سيّدي محرز... كان يدفع الناس حينما تنزل بهم المصائب مثل احتلال ابـي يزيد الخارجـي الثائر مدينتهم سنة 322 هـ . الى أن ينظموا أسباب الاتّجار فيما بينهم... » ومعروف أنّ محرز بن خلف توفّـي سنة 413 أفـكـان ينصح الناس قبل ذلك بتسعين سنة؟ حتى وإن كان أعظم أولياء تونس ! ثم إن ثورة ابـي يزيد صاحب الحمار كانت من سنة 326 الى سنة 336 فما سنة 322 هذه ؟

ويزعم المؤلّف (12) انّ صبرة « إنما سمّيت المنصوريّة نسبة للمنصور بن يوسف بن زيري بن مناد جدّ المعزّ بن باديس » . بيد أنها وسمت باسماعيل المنصور بن القائم بن عبيد الله المهدي وقد أسّسها سنة 337 إثر انتصاره على صاحب الحمار ولم تبدأ بعد دولة بني زيري .

ويزعم المؤلّف (13) أنّ ابن خلّكان يذكر لابن رشيق ديوانا في ترجمة الحسن بن رشيق . وعبثا يبحث عنه القارىء هناك فالحقيقة أنّ ذلك جاء في ترجمة ابن يعيش شارح المفصّل (14) لا في ترجمة ابن رشيق الى غير ذلك من الهنات التـي تجرّد الكتاب — بتعدّدها — من القيمة العلميّة او قل إنّها دليل على فقده الصبغة العلميّة .

ولا يضير ذلك حضارة القيروان في شيء إذ هـي في غنـى عن مثل هذه الدراسة بعد أن وضع فيها شيخنا المحقّق الاستاذ حسن حسنـي عبد الوهاب منذ أكثر من نصف قرن كتيّبا (15) لم يزل على ايجازه مرجعا أساسيّا وتصويرا كافيا لتلك الحضارة لم يزد عليه كتاب الدكتور ياغـي سوى ذبول الصورة ومسخها أحيانا .

---

(11) ص . 74 — يحدد المؤرخون اندلاع ثورة ابـي يزيد الدامية سنة 332 .
(12) ص 66 —
(13) ص . 329 .
(14) وفيات الأعيان ط . القاهرة 1943 ج 6 ص . 50 .
(15) بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق . تونس سنة 1330 هـ .

وأمّا القسم الخاصّ من الكتاب بدراسة ابن رشيق فهو الذي قد ينتظر منه القارىء جديدا . غير أن عيوب الكتاب التي أشرنا إلى بعضها يزيدها استفحالا ما نعتقد انه تكالب على ابن رشيق لا نفهم مصدره ونقتصر لبيانه على بعض مظاهر بحث المؤلف واستنتاجاته وتصريحاته التي يعوزها التثبّت والرصانة والامانة أحيانا بل والمنطق والدراية بتاريخ الادب العربي . على أنّ ما لا نتعرّض اليه من سفالة عبارات الشتم والاحتقار ومن التلويح والظنون طعنا في ابن رشيق أشدّ دلالة على ما ندّعيه ممّا يتسنّى للناقد ذكره او وصفه .

فالمؤلّف يعيب ابن رشيق (16) بنصيحته الشعراء احترام السلطان والسكون الى أمره واجتناب القيام عليه ومعارضته ويرميه بالسخافة والحطة لسعيه الى الاتّصال بالوزير ابن ابي الرجال ثم بالامير المعز بن باديس والمبالغة في مدحه ! وينسى في ذلك كلّه — او يتناسى — ان آداب الشاعر التي يجمعها ابن رشيق في العمدة او يتوخّاها في شعره إنما هي تلك التي اصطلح عليها العرب منذ ان كان لهم شعر . والتأليف في الشعر والشعراء انّما هو قبل كلّ شيء تسجيل وضبط لتلك الآداب المقررة فلا تبعة على مؤلّفها وليس الذنب ذنبه . وهو ينسى — او يتناسى — أنّ ذلك هو مفهوم الشعر عند العرب في تلك العصور ومفهوم دور الشاعر بل وحال الشاعر ايضا . فأساس الشعر العربي القصيدة وموضوعها قبل كلّ شيء المدح وما هو مفهوم المدح ان لم يكن ذلك الذي يعيب به المؤلف ابنَ رشيق ؟ انما هو في ذلك كلّه يحكم على شاعر وناقد عربيّ عاش في القرن الخامس الهجري اعتمادا على نظريّة وليدة فكر رجل يعيش في القرن الرابع عشر الهجري يستند في النقد الى الآراء الاشتراكية او التقدّميّة او غير ذلك بل أكثر من ذلك من أحلام مثاليّة . وهو خطل في البحث يرفضه العقل السليم وتحذّر منه طرق العلم المنهجيّة فكأنّ المؤلّف

(16) ص . 245 وما بعدها . وكأن المؤلف يستنكف من تسمية ابن رشيق باسمه فيكاد لا يسميه الا بعبارة « صاحبنا » .

يلوم ابن رشيق على عدم شذوذه التّام ّ في بيئته حتى يسير في القيروان في أوائل القرن الخامس سيرة من يعيش اليوم في أشدّ بلاد أروبّا تشبّعا بالديمقراطية بل سيرة الديمقراطـي المثالي في « مدينة فاضلة » وهكـذا يتعرّض في نقد مدح ابن رشيق الى جميـع خصائص المدح عند العرب وأهمـّها المبالغة في الإطـراء على الممدوح ليسلّط تبعتها على ابن رشيق وحده في نقاش مبهت من حيث سذاجة التفـكـير أو خطله ومن حيث استعمال عبارات الشتم التـي لا تمسّ من كـرامة ابن رشيق بل هـي على حدّ قول المتنبّـي « ...الشهـادة له بـأنّه كـامــل... » .

فالصفحات العديدة من بداية باب « ابن رشيق والحياة السياسية » سلسلـة من شتم يصل بصاحبه الى حـدّ « الهستيـريّـة » واعتمـاده فيـه على أوهـام واستنتاجات واهية من قبيل ما رأيناه من خلال طريقته العقيمة . فانك تقـرأ في دهشة أمثال هذه العبارات والفقرات التـي لا مبرّر لها إلا تعصّب وحقـد غريب على رجل اتّفق جميـع من ترجم له على نعته بـكـلمة « الفاضل » :

ص 245 : « رأي يحطّ من قيمته » ؛ « منهج ليس من الـكـرامة في شــيء » ؛

ص 246 : « ... يـكـشف عن نفس ليس لها كـبير نصيب من الاعتداد او الاستقلال او الاعتزاز او الـكـرامة » .

ص 247 : « وقد يزعم بعض الدارسين أن ذلك [المبالغة في المدح] لون من التقدير وانه تقليد في التعبير يسلـكـه الـكـتّاب في تلك العصور ولـكـنـه تقديـر او تقليـد او مسلـك لا نستطيـع ان نجـرّده او نخليـه مـن إيحـاءاتـه البغيضة المزرية التـي تبدو النفس من ورائها في ثياب من المذلة والضعـة والهوان »

ص 250 ــ 251 : « وهو [ابن رشيق] يبالغ في المدح حين رأى المدح قد جذبه الى البلاط ثم يمعن فيه حتى يبلغ درجة التزلف والخضوع

كـتبـت ولـو اننــي استطيــع لإجـلال قــدرك دون البشـــر
قــددت اليــراعـة مـن أنمـــلي وكــان المــداد ســواد البصــر

وهـي آفة تصيب ذوي النفوس الخاضعة التـي تذوب في ظلال غيرها وقد لمسنا مثل هذا اللّون من النفوس في أيامنا التـي نعيش فيها حين عمد بعض الشباب الى رقعة كـتبوها بدمائهم ورفعوها الى أعتاب السراي وقد استنزفوا دماءها من أذرعهـم » اهـ .

فلينظر الناس الآن كـيف ينبغـي ان يحكموا على جميـع شعراء العرب وفي مقدّمتهم المتنبّـي فانْ جهِل المؤلف الشعر العربـي وتاريخ الادب العربـي أو تجاهله فهلاّ ذكـر ما جاء من أنّ « ... الشعراء... يقولون ما لا يفعلون » على أنّ في استشهاده على تـأويله بيتـي ابن رشيق بالحادث الذي يذكـره دليـل على سخافة عقل ليست من شيم نقدة الادب .

ويواصل فيقول وهو أغرب من الغريب في منطق المؤلف : « ولعلّ قـرب عهد البيئة بالعبيديين الفاطميين وشعرائهم ان يكـون قد أعان في هذا الغلو في المدح والإسراف في الثناء... » وهلمّ جرّا .

ص 253 : « وكـأنّ بعض من كانوا حوله [حول ابن رشيق] قد أحسّـوا بأنه مطواع كالذلول يرخـي رسنه لمولاه يصرفه حيث شاء وأنه خاضع له خضوعا ليس فيه نسمة من اعتراض .»

ص 254 : « وكـأنّ ضعفه هذا هو الذي جعله يلجأ الى السلطان ليكـون له نسبا وحافظا ودفعه الى أن يحتمـي بابن ابـي الرجال ليكـون له راعيا حاميا . ولا يعفـي أحدا استضعفه من لسانه فاذا ظفر بمخلوق ضعيف ليس له حـام يحميه أطلق فيه لسانه فهو في رأيه لا أخلاق له في الادب ولا معرفة له بحقائق

الـكـلام جاهل سـيء الفهم مشاغب قليل الإنصاف » ويوهم أنّ العبارة لابـن رشيق إذ يشير في التعليـق عليهـا إلى موطن اقتباسهـا في ص 10 من « قراضـة الذهب » لابن رشيق . وعبارة ابن رشيق ليس فيها شـيء من هذا السباب فهـو يدعو لمراسله فيقول له : « ... أسأل الله... أن يُجري مناظِرك في حسن الادب على رسمك ويجعل الإنصاف كما تؤثر حكما بينك وبين خصمك... بلغنـي... أن بعض من لا خلاق له في الادب ولا معرفة له بحقائـق الكـلام عـارضك... » .

فأنت ترى ان ابن رشيق نزّه لسانه وكـتابه عمّا لم يتنزّه عنه المؤلّف وأنّه لم يرم غيره بالجهل وسوء الفهم والمشاغبة وقلّة الإنصاف بل هـي افتراءات من المؤلّف على ابن رشيق ويظهر الافتراء جليّا في ما سمّيناه بقلّة الامانه حين يعمد المؤلّف الى التدليس فيبدل عبارة « من لا خلاق له في الادب » بعبـارة « من لا أخـلاق له » (17) . فإن كان ذلك جهـلا لا عمـدا فليـدع البحث والتـأليف لاهلـه وذويـه .

فهل ترانا في حاجة بعد هذا الى متابعة النقاش لـكـشف الغطاء ؟ بل هـل الـكـتاب يستحقّ ذلك لولا ما قدّمنا من خطر هذه الدراسة المتلبّسة بالصبغـة العلميّة والموضوعيّة على من ليس له كـبير دراية بالموضوع ؟

وهـل ترانـا نستطيـع متابعـة تقـويم ما هو أقـرب الى التعصّـب منـه الى الاعوجاج ؟ فـكـيف نردّ على نقده العاطفـيّ الضغـِن شعرَ ابن رشيق حيث لا يرى الا ركاكـة او صناعة أو محض سرقة من شعر شعراء الشرق كـلـّهـم . وما نقده مثل قصيدة ابن رشيق في رثاء القيروان — وهـي على ما يعلم الناس من الروعة الفنـيّة وصدق العاطفة حتى صارت المثال ينسج على منواله الشعراء كـلـّما أصابت الإسلامَ رزيئة — إلاّ دليل على تطفّـل على الصناعة .

---

(17) فالهمزة لا وجود لها في المطبوعة ولا في مخطوطتـي القاهرة وباريس — وبين يدينا صورة مـن كـلتيهما — ولا يعرف للقراضة مخطوطة ثالثة .

ونثر ابن رشيق ؟ ينتقد المؤلّف لونا منه بالاعتماد على مقدّمة العمدة ! كأنّه يجهل – بل ومن أدراك ؟ فلعلّه يجهل – أنّ المقدّمة في التآليف القديمة والإهداء يستعمل فيهما نثر فنّي لا يصحّ الاعتماد عليه لوصف نثر الكاتب .

ونختم هذا التعريف بالكتاب بما قد يبرهن على توخّينا الإنصاف دون القصد الى مجرّد المعارضة فنقول إن ابن رشيق الناقد قد حظي برضى المؤلّف فبيّن امتيازه عن غيره من نقّاد الادب العربي القدماء وقيمة نقده ومنهجيّته – على أنّنا لا نوافق موافقة تامّة نظريّة المؤلّف في تاريخ النقد عند العرب –

ش. بُويحيى

أصول النظـام الاجتمـاعى فى الاســلام

تــاليف الاستــاذ
الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور
طبـع المطبعـة الـرسميـة للجمهوريـة التونسية – 1964 – (236 ص . متوسط)
نشر الشركة القومية للنشر والتوزيع .

بقلـم : المنجى الشمـلي

أصدر العلامة التونسي الشيـخ محمد الطاهر ابن عاشور هذا الـكـتاب « اصول النظام الاجتماعي في الاسلام » وغرضه « أن يـكـون خدمة لنشر فضائل الاسلام وبيانها لمن قد يخفى عليه شـيء من دقائقها ، وعونـا لمن يلتـزّ الى اقناع المجادلين فيها » (ص 5) ؛ ويزيد المؤلف شرحا لهذا الغرض ، مبينـا أنه يرغب في أن يبحث « عن روح الاسلام وحقيقته من جهة مقدار تأثيرها في تـأسيس المدنية الصالحة ومقدار ما ينتزع المسلم بها من مرشدات يهتدي بها إلى مناهج الخير والسعادة.. » (ص 7) .

ثم يضبط المؤلف منهجه ، مشيرا إلى أن « الباحث عن علاقة دين بالمدنيـة وتـأثيره في ارتقاء الامة لا محيص له من النظر في تاريـخ الامة المتلقية للديـن وميزان الحـال التـي كانت عليها في زمن ظهوره » (ص 7) .

ولئن اعتمد الاستاذ الشيـخ محمد الطاهر ابن عاشور في هذا البحث القيّم « تاريـخ المسلمين في زمن النبوءة وزمن الخلفاء الراشدين فَمَنْ يليهم » ، فهو لم يرد بذلك « مطالعة الحوادث السياسية والانقلابات الدولية » . بل قصَدَ إلى ضبط « حالة المسلمين في مجتمعهم » (ص 7) ، بالرجوع إلى « كـتب السنة والسيرة النبويّة ، وكـتب الاخبار الصحيحة الخليّة عن الهوى » (ص 7) .

ويُفتـح هذا الـكتـاب بتمهيد وجيـز يليه بابٌ هامّ وُسِمَ « بغــرض الـكتاب » (ص 7 — 41) وبعد ذلك يـأتـي جوهر البحث وهو على قسميـن : القسم الاول : « في أصول إصلاح الافراد » ، والقسم الثاني : « في الاصلاح الاجتمـاعـي » .

وليس غرضنا في هذه الصفحة أن نعرض لهذا التـأليف بالتحليل والدرس حتى نبيّن أهميته ومكـانته بين الدراسات الاسلاميّة (ونرجو أن نعود إليه انخصه بما يستحقه من الفـكـر والنظر) ، إنما همنا أن ننبه إليه الباحثين في الاسلاميات والعاطفين على شؤون الاسلام في الشرق والغرب .

وإنّ أهمّ ما لفَت انتباهنا في هذا الـكـتاب هو غايته الدفاعية عن الاسلام، وإرجاعه الامور إلى أصولها بايرادِ الدلائل ، وفي هذا يقول المؤلف : « كـان كَلاَمـي متوخيّا طريق التحقيق ، ومتوقعا أن يورد عايه من يريد نقضه من عدو للدين أو صديق . لذلك سلكـت مسلك إيراد الدلائل على إثبات قضايا هذا الـكـتاب... » (ص 8) .

والباب الخاص بشرح الغرض يمتاز بتوضيـح خاصيات أساسية في الاسلام من حيث إنه دين الفطرة ، (راجـع ص 15 وما بعدها) ، ودين الاعتدال والوسط، (راجـع ص 23 وما بعدها) ، ودين السماحة (راجـع ص 25 وما بعدها) .

وكـل هذه الخـاصيـات نابعـة من ميـزة الاسلام الـكـبرى وهـي أن هذا « الدين دولـة » (ص 14) لان « دعوة الاسلام تخالف ما سبقتها مخالفة بينة من

جهة كـونه دينـا عـامـّا حيث استعد البشر إلى قبول دين عام... ومن جهـة امتـزاج الدين فيه مع الشريعة فضبط للأمة أحوال نظامها الاجتمـاعـي في تصاريف الحياة كـلها تـكملة للنظام الدينـي الذي هيأ أفراد الناسِ للاتحـاد والمعـاشرة... » (ص 13) .

وفي القسم الاول من جوهر الـكـتاب يعرض المؤلف إلى إصلاح الاعتقاد ، وإصلاح التفـكـير (في تلقـي العقيدة ، وتلقـي الشريعة ، والعبادة ، وتحصيل النجاة في الحياتين ، والحزم ، والمعاملة ، والاحوال العامة ومصادَفـَة الحق في المعلومات) وصـلاح العمـل (مـع تمحيص لخصلتيـن من « اعظـم الاخـلاق الاسلامية — أساء الجمهور وضعهما في مواضعهما — وشاع سوء الوضع بينهـم حتى صار كاليقين فـكـان ذلك سبب نـكـبات كـثيرة » وهما : التـوكـل ، والرضى بالقضاء والقدر .) ؛ ويواصل الـكـاتب بدرس « الوازع النفسـي » وآثاره في الاصلاح الفردي والاجتماعـي ، ويختم هذا القسم بفصل وسمـه « بشـأن المـرأة » .

والقسم الثانـي من الـكـتاب في الاصلاح الاجتماعـي ، وقد كـلـِفَ فيـه المؤلف كـلفـا خاصا ببحث « إيجاد الجامعة الاسلاميّة » مبرزا طرافة الاسلام الذي « جعل جامعة الدين هـي الجامعة الحق للمسلمين وأبقى ما عـداهـا من الجوامع جوامع فرعية ما لم تعد على الجامعة الـكـبرى بالانْـحلال » (ص 107) ويواصل المؤلّـف قائلا : « هذه الجامعة (الاسلامية) لا تعادلها جامعة أخـرى لانّ جوامع الانساب والمواطن جوامع اصطلاحية قاصرة... » (ص 108) .

ثم يتخلص إلى ضبط أصول نظام سياسة الامة ، فيردها إلى فـَنين أصليين : « فن القوانين الضابطة لتصرفات الناس في معاملاتهم... وفن القوانين التـي بها رعاية الامة في مرابـع الـكمال ، والذودُ عنها أسبابَ الاختلال » (ص 122) مفـكـكـا القول في كـلّ عنصر من عناصر هذين الفنين إلى نهاية التأليف . وكم وددنا لـَو جاءت فيه خاتمة تجمع الافـكـار الاساسية التي احتـَوى عليها

وتُبَلْوِرُ « الاسْبَاب التي أفادت المسلمين نهوضا .. والاسباب التي رجعت بهم عن ... التقـدم » ثم ترسم « وسائـل إصلاح احـوال المسلمين » حسب عبـارة المؤلف في التمهيد .

وهـكـذا فان الدارسَ لهذا الـكـتاب يجد فيه علما غزيرا وتدقيقا لجملة من أصول الاسلام وضبطا لمفاهيم عديدة بالرجوع إلى القرآن والسنة واعتمادا في كـثير من المواطن على التحليل اللغوي .

وفي الـكـتاب استشهـادٌ كـذلك باشعـار مختلفـة ورُجُـوعٌ أحيـانـا إلى نظريـات فلسفيـة .

ولقد جاء دقيق اللغة ، مضبوط العبارة لو ما تجده في أسلوبه أحيـانـا مـن التعقـد الذي قد يضنـي بدون أن يستعصـي .

م. الشمـلي

ظـــــلال مضيئـــــة

فلسفة الادب والفن ومشكـلات المجتمع والحياة

تـاليف محمود تيمور
مطبعـة المعرفـة 1963 نشـر مكتبـة
النهضـة المصريـة ـ القـاهـرة ـ
(253 ص • صغير)

بقلـم : المنجى الشملى

صدر هذا الكـتاب في مصر سنة 1963 ، وعرض في المكـتبات التجـارية بتونس أخيرا . وهو من تلك المؤلفات التـي قد لا يستهويك إخراجها وطبعهـا ولون ورقها ، حتى إذا تجاوزت عن كـل ذلك ، وأقبلت على قراءتها ، رفعتها مـكـانـا ، واتخذتها مرجعـا ثريّا في بحثك ، ونظرك واستقصائك .

أصدر محمود تيمور هذا الكـتاب زاخرا بالافـكـار الخطيرة ، والمسائـل الدقيقة ، والنوادر الطـريفة والنـكـت الظريفة ؛ فحريّ بقارئه أن يقف على حدوده ، ويتفـكـر في فصوله ، ليتبيّن فيه مرّ الحق في شأن ثقافتنا ، وصعـوبـة الجدّ في مختلف مشاكـلنا الفـكـريّة ، وثقل المسؤولية في أوضاعنا الاجتماعية .

ولعل أوّل ما يلـفت الانتباه عنوانُ الـكـتاب ؛ إلا أن المؤلّف يعلل ذلك ـ في المقدّمة ـ تعليـلا لطيفا مبينـا أن « محمود تيمور » ليس من الناس « الذين

يتهافتون على الاضواء الساطعة الالاّقة ،... وليس من الذين يُؤثرون القتامة والحلكة... (بل هو من الذين) يختارون الجنوح إلى الظلال يتفيّئونها في أمن وطمأنينة وسلام ، وينعمون فيها بضوء هادىء وديع ، فيه تأمل ولكنه لا يبلغ درجة الركود ، وفيه أمل ولكنه لا يشوبه جموح ، وفيه يقظة ولكن لا يعيبها طيش ونزق » (ص : 5 — 6)

وجاء هذا الكتاب في قالب « إجابة عما كان يوجّه إلى محمود تيمور من أسئلة شتى ، في ألوان من قضايا الادب والفكر ، وشكول من مشكلات المجتمع والحياة... وكانت الاجابة دائما في ضوء تلك — الظلال — بعيدا عن الوهج الخاطف ، بعيدا عن الظلام الموشح » . (ص : 6) .

سئل محود تيمور عن شخصه ، وحياته الخاصة ، وحياته الادبيّة ، وعن رأيه في نفسه ، وعن سيرته ، وزواجه ، وولده ونزعته في تربيتهم ، وعن اتجاهه الادبي ، ورأيه في الادب العربي الحديث ، ومشكلة اللغة عامة وقضية الفصحى والعامية خاصة ، وعن القصة وقضاياها ، وعن كبار الكتاب العرب ورايه فيهم ، وعن تمثيله الشعب بآماله وآلامه في قصصه ، وعن تأثر القصة العربيّة بالقصة الاوروبيّة...

اسئلة خطيرة ، أجاب عنها الكاتب مطنبا حينا ، موجزا أحيانا ، مرتاحا حينا ، مرتاعا أحيانا... وليس من غرضنا أن نلخصها ، ولو حاولنا ذلك لاستحال ، ولكنا نعرض لبعضها على سبيل الالماع .

1) وجهت إلى محمود تيمور اسئلة عديدة تكاد تكون متكررة — في دون إضجار — عن **اللغة العربيّة** وحاضرها اليوم ، وقضية التعبير اللغوي بين العامية والفصحى ، فكانت إجاباته المتعددة تحتل جزءا كبيرا من الكتاب قال — فيما قال — :

« من المغالاة القول بأن الفصحى كانت هي اللغة السائدة في أزهى العصور العربيّة السالفة ، فمما لا شك فيه أنه كانت هناك لغة

عـامية ــ بل لغـات متعددة ــ تحيـا بجـانب الفصحى في أمـانٍ واطمئنان : العامية للجاري من الاحاديث ، والمحاورات ، والتفاهم في ميدان الحياة العامة ، والفصحى للرأي والفكـر في الاندية والمجامع والمحافل... والـرأي الذي ينادي بتوحيد لغة الكتابة ولغـة الحديث رأي لا يزيد على أنه أمنيـَة معسولة لا تعين على تحقيقهـا طبـائـع المجتمعات وخصائص اللغات » . (ص : 46 ــ 47) .

ثم يقــول :

« لقـد اقنعتنـي تجـارب خمس وأربعيـن سنـة... بأنَ الاسلـوب الفصيـح الجيـّد هو خير الادوات للتعبير عن الفـكـرة ، ورسـم الصورة ، وترجمة ما يهتز به الوجدان من مشاعر وأحاسيس » . (ص : 80) .

ثم يـؤكـد قـائـلا :

« الفصحى أقوى من أن ينال منها استعمال اللهجة المحليـّة في بعض المسرحيات الممثلة . وحسبك أن الفصحى هـي لسان العلوم والفنون والآداب ، وهـي لغة الصحافة ، وأغلب ما يـُرسل من الاذاعة ، بل هـي ترجمان الثقافة على اوسع نطاق » . (ص : 177) .

2) وسئل محمود تيمور عن **مفهـوم الواقعية** ، فـأجاب :

« الواقعية في الادب حقيقة لا خلاف فيها ، بيد أن تطبيقهـا هـو الذي يتفاوت ، وهو الذي تختلف فيه الاراء .

ــ وعندي أن الواقعية إما سطحية تعبـّر عن المرئيات والمشاهد كما تبدو للعيون دون استبطان لِـمَا وَرَاءَها من دوافع ومن مقومات .
وهذه الواقعيـّة منقوصة الحظ من الخلود .

— وإما أن تكـون الواقعية عميقة تتصل بأغوار النفس البشريّة ، لتتبيّن الدوافع التي ينجم عنها والسلوك الاجتماعي الذي تراه . وهذه هي الواقعية الاصيلة الخالدة ، لانها موفورة الحظ من صميم النفس الخالدة » . (ص : 191) .

3) وسئل المؤلف عن رأيه في أن يكون **للقصة هدف سياسي أو اجتماعي** ، فقال :

« الهدفُ في العمل القصصي عنصر لا غُنْية عنه... ولكنّ افتعاله هو آفة الفن ، وهو جناية على الهدف نفسه . وإنك لتستطيع إذا كنت قصاصا فنانا أن تعالج أية فكرة سياسية أو اجتماعية ، وأن تطويَها على هدف مقصودٍ ، بشرط أساسي ، هو صدق الاحساس وصدق التأثر ، وعمق التغلغل في الفكرة ، ومدى استجابة المجتمع لها » . (ص : 199) .

على هذا النسق يتحدث محمود تيمور في صفحات هذا الكتاب ، مجملا الفكرة في غير إسفاف ، رصينا في غير ثقل ، متثبتا في غير ادّعاء ، معلنا في تواضع صادق أنه « تلميذ فيما يكتب ، تلميذ فيما يقرأ » (ص : 165) .

فهذا التأليف جديرٌ بأن يعدّ من أهمّ ما أنتجه كاتب عربي في حاضر الادب العربي ومشاكله .

م. الشملي

النحـو الـــوافى

تاليف عبـاس حسن
4 ـ اجـزاء ـ 542 ص ـ 459 ص ـ
515 ص ـ 610 ص ـ
ألقـاهرة ـ دار المعارف 1964 ـ 1963

تفتقر المكتبة العربية الى كتاب نحو متسع مفصل تُتَوخى في تأليفه طريقة حديثه فالدارس الذي يريد ان يراجع مسألة نحوية بالاعتماد على كتب عربية لا مناص له من استعمال المؤلفات القديمة ومن تحمل عناء البحث فيها وفي شروحها وحواشيها باسلوبها الذي كثيرا ما يعوزه الوضوح في نظر الدارس المعاصر .

ولقد أراد السيد عباس حسن ان يتلافى هذا النقص فألّف كتابه « النحو الوافي مع ربطه بالاساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة » . وكتاب النحو الوافي هذا كتاب ضخم شمل كل ما يتعلق ببنية اللفظة العربية وما يعتريها من تغيير نتيجة لمقتضيات الاشتقاق كما شمل كل ما يتعلق ببنية الجملة وما ينشأ عن مقتضيات التركيب من اعراب وقد كان هذا هو الغرض الاساسي للمؤلف اذ قد التزم كما يقول في المقدمة « تجميع مادّة النحو كله في كتاب واحد ذي اجزاء ثلاثة (1) كبار تحتوي صفحاتها ما تفرّق في امّهات الكتب وتغنى

(1) على ان اجـزاء الكتـاب بلغـت الاربعـة في النهـاية .

عنها... » . وقد قسم هذه المادة المتفرقة في مختلف المراجع القديمة الى قسمين نجدهما في كل فصل من فصول الكتاب ، قسم يتضمن المسائل الهامّة التي تناسب طلاّب الدراسات النحوية بالجامعات — دون غيرهم — غاية المناسبة » وقسم آخر فيه تفصيل لتلك المسائل يتضمن الجزئيات والشواذّ كما تتضمن حاشيته ابيات الفية ابن مالك التي التزم المؤلف « تدوين كل بيت من ابياتها وشرحها مع الدقّة التامة... » .

اما تخطيط الكتاب فمن العسير الاهتداء الى المبادىء المعتمدة فيه فقد تخلى المؤلف عن التقسيم المتعارف القائم على تمييز الصرف عن النحو والذي لا يخلو من فائدة رغم ما فيه احيانا من تكلف ناتج عن تغيير بنية بعض الالفاظ من أجل وظيفتها في الجملة فهو مثلا يدرس الاسماء المشتقة بعد دراسة المضاف ويفرد ابوابا للجملة الاسمية وعناصرها بعد ابواب ما يدرسه النحاة العرب في نطاق المعرفة من ضمائر واسماء الاشارة والاسماء الموصولة .

وقد اراد المؤلف ان يقدّم كتابا يخرج عن المراجع القديمة ووضع لنفسه دستورا اهمّ مبادئه « العناية اكمل العناية بلغة الكتاب وضوحا واشرافا واحكاما واسترسالا... « واختيار الامثلة ناجعة بارعة في اداء مهمتها من توضيح القواعد وكشف غامضها في سهولة ويسر واقتراب... « والفرار من العلل الزائفة وتعدد الآراء الضارة في المسألة الواحدة... » الا انه لم يوفق الى تجاوز مادّة المؤلفات القديمة بالنظر اليها نظرة جديدة تمكنه من تقدير تأويلات القدماء حق قدرها وبيان قيمة نظرياتهم والاحتراز من الاعتبارات التي كانوا يراعونها بدون مبرر في كثير من الاحيان ولئن كان من العسير تجديد النحو العربي تجديدا جوهريا في الحالة الراهنة وبدون اعادة استقراء التراث العربي قديمه وحديثه فانه يمكن بالاعتماد على الدراسات اللغوية المعاصرة وباستعمال اكتشافات فقه اللغة الحديث ان ينظر الى نحو العربية من زاوية الاستعمال وان تثار مشاكل عديدة لم يلتفت اليها القدماء نظرا الى ظروفهم الخاصّة والى اتجاه الدراسات

اللغوية في عصرهم فدراسة النحو العربـي دراسة واسعة شاملة تضيف مؤلفا جديدا الى عشرات المؤلفات القديمة لا مبرر لها في عصرنا الا اذا اجتهد الدارس الا يلتزم التقليد والا يعتبـر آراء القدمـاء من قبيـل الاراء المنـزّلـة التـي لا تقبـل نقـاشا ونظـرا .

عبد القادر المهيري

شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات

لأبى بكر محمد بن القاسم الانبارى

تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون

719 صفحة ـ نشر دار المعارف
بالقاهرة ـ 1963
(سلسلة ذخائر العرب عدد 35)

اعتنى رجال اللّغة في مختلف العصور اعتناء خاصّا بالقصائد المعروفة بالمعلّقات محاولين ضبط روايتها وبيان ظروفها وشرح غريبها (1) .

ولكنّ المحقّقين لم يعتنوا إلاّ قليلا بنشر هذه الشروح فبقي عدد عديد منها محفوظا في خزائن المخطوطات بدور الكتب (2) .

ومن هذه الشروح التي بقيت إلى عهد غير بعيد دفينة المكتبات شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات (3) لابي بكر محمّد بن القاسم الانباري

(1) انظر قائمة هذه الشروح في تاريخ الادب لبروكلمان (ترجمة عبد الحليم النجار) ج 1 ص 69 — 72 .
(2) انظر نفس المرجع .
(3) هذه أول نشرة لكامل الشرح وقد سبق أن نشر شرح معلقة طرفة وشرح معلقة زهير (انظر نفس المرجع ص 70) .

المتوفـّى سنة 328 هـ فـكـان الفضل في احياء هذه الذخيرة من ذخائر العـرب لعبد السلام محمد هارون فأضاف إلى سلسلة أعماله الجليلة في ميدان التحقيـق والنشر حلقة جديـدة ومـكّن دارسـي اللغة العربية وآدابهـا من مرجـع عظيـم الاهميـــة .

وقد ولد أبو بـكـر محمد بن القاسم الانباري (4) ببغداد وبها قضى حيـاته في الدّرس فالتّدريس إلى أن توفي سنة 328 هـ ولـكـنّـه يعدّ من ممثّلي مدرسة الـكـوفـة لانتمائـه إلى مذهبهـا وأخـذه عـن ائمتهـا إذ كـان من تلاميـذ ثعلـب البـارزيـن .

وقد كان ابن الانباري واسع الاطّلاع يعتبر حسب لفظ بعضهم « واحـد عصره في اللغة والادب وأعلمهم بـكـتاب الله ومعانيه واعرابه » . وقد صنّف كـتبا عديدة في النحو وتفسير مشـكـل القرآن وغريب الحديث أشارت إليهـا كـتب الادب (5) وإن لم يبق منها إلاّ القليل كما صنع طائفة من دواويـن شعراء الجاهلية وصدر الاسلام جاء ذكرها في الفهرست لابن النديم وروى عن أبيـه شرحـه للمفضّليات (6) .

وقد حاولنا أن نحدّد ولو تقريبا تاريـخ املائه لشرح القصائد السبـع الطوال الجاهليات (7) ولـكـنّنا لم نعثر على قرائن كافية لذلك وإن كـنّا وجدنا في شرحه (ص 117 س 4) ما يجعلنا نفترض أنّـه أملاه بعد سنة 304 إذ قال : « حدّثني أبي رحمه الله » ونحن نعلم أن أباه توفي سنة 304 .

---

(4) أعن الـكـتب التـي أوردت أخباره انظر بروكـلمان ج 2 ص ص 215 – 214 ومقدمة الناشر

(5) انظـــر المـرجعيـــن اعـــلاه .

(6) انظر ديوان المفضليات بشرح ابـي محمد القاسم بن محمد بن بشار الانباري تحقيق ك . ل . ي . ليـــال (بيروت 1920) .

(7) لم يتعرض الناشر في مقدمته إلى هذه المسألة .

وعلى كلّ فهذا الشرح من أقدم ما وصلنا من شروح « المعلّقات » لا ينازعه في هذا القدم إلاّ شرحا ابن كيسان المتوفي سنة 320 هـ (8) وابن النحّاس المتوفّي سنة 336 هـ (9) .

والمقارنة بين مصنفَيْ ابن الانباري وابن النحاس تبرز ما يمتاز به شرح أبي بكر من وفور المادّة وتنوّعها فقد قصد ابن الانباري إلى الاحاطة بالموضوع من مختلف جوانبه فاهتمّ بأنساب الشعراء وباختلاف روايات الابيات وجمع أقوال عدد عديد من ائمة اللّغة في شرح غريبها وتوسّع في تناول المسائل النحوية موردا لكثير من الشواهد القرآنية والشعرية بينما كان هدف ابن النحّاس في شرحه كما أوضح في مقدّمة كتابه (10) « استقصاء لطيف ما في القصائد من النحو مختصرا في غير ذلك » فلم « يكثر من الشواهد ولا الانساب » وأوجز في تفسير غريب اللغة .

وقد تناول ابن الانباري بالشرح قصائد امرىء القيس وطرفه فزهير وعنترة فعمرو بن كلثوم والحارث بن حلّزة فلبيد .

فهو يتّفق وابن النحّاس في تعيين المعلّقات ولكنّه يختلف عنه في تنظيمه لها بتقديمه لقصيدة عنترة إلى المرتبة الرابعة وقد اخّرها ابن النحّاس (11) إلى المرتبة الخامسة وقدّم قصيدة لبيد إلى المرتبة الرابعة (12) .

---

(8) وتذكر بعض المراجع سنة 299 هـ انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (ترجمة عبد الحليم النجار) ح 2 ص 171 .

(9) راجع بروكلمان تاريخ الأدب العربي ج 2 ص 275 . وقد اعتمد ابن النحاس في شرحه شرح ابن كيسان (انظر شرح القصائد السبع المشهورات لا بن النحاس مخطوط « المكتبة الصادقية» بالجامعة التونسية رقم 2805) .

(10) انظر المخطوط المذكور اعلاه الورقة 1 .

(11) اعتمدنا المخطوط المذكور وقد ذكر الاستاذ بلاشار غير هذا النظام (انظر : بلاشار : تاريخ الأدب العربي ج 1 ص 146) .

(12) لا نريد أن نخرج في هذا العرض عن الوصف إلى التعليل وقد نبين في مقال آخر قيمة اتفاقهما الجوهري واختلافهما الجزئي .

والظاهرة الغالبة على مصنّف ابن الانباري استقلال كـل ّ قصيدة عن شرح القصيدة الاخرى فليس له مقدّمة عامّة ولا خاتمة وشرح كـل ّ قصيدة يفتتح بالبسملة ويختم بـ « تمّت القصيدة بغريبها... » . ويحتوي كـل ّ شرح على مقدّمة يذكـر فيها الشارح نسب الشاعر وبعض أحداث حياته وأخيرا ما يروى عن الظروف التـي قيلت فيها القصيدة ثمّ يشرع في شرح أبياتهـا بيتـا فبيتـا مستعرضا مختلف رواياته مستقصيا لاقوال أئمة اللّغة في شرحه مستشهدا بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية والاشعار خاتما شرحه ببيان اعراب كـل ّ كـلمـة متوسّعا في بسط المسائل اللغوية التـي قد يثيرها ذلك الاعراب .

فقيمة هذا الشرح متمثّلة في احاطته بـكـل ّ الروايات والتفاسير المعروفة في عصره وفي توسّعه في الابحاث اللّغوية وفي كـثرة ما أورد من الشواهد فهو كـتاب جامع ثمين لا يمكـن للباحث الاستغناء عنه .

وقد اعتمد عبد السلام محمد هارون في تحقيقـه لنشرتـه على ثـلاث نسـخ مخطوطة ، نسختيـْن لعيـْن الشرح أشار إليهما بـ « أ » و « ب » (13) ونسخة لمختصر صنعه عالم مجهول في القرن السابـع الهجري أشار إليها بـ « م » .

والنسخة « أ » « ميـكـرو فيلم » من مخطوط محفوظ بمكـتبة نور عثمـانية بتركـيا تحت رقم 4052 وهـي حديثة نسبيا نسخها أحد الخطـّاطين بتـركـيـا سنــة 1108 .

والنسخة « ب » « ميـكـرو فيلم » من مخطوط مكـتبة أسعد أفندي بتركيا أيضا رقمه بها 2815 وليس فيه ما يشير إلى زمن نسخه ولا اسم الناسخ .

وقد اكـتفى المحقـّق في حديثه عن هذه المخطوطات بوصف خارجـيّ ولـم يتعرّض إلى قيمتها إلاّ ما ذكـر من « أنّ المختصر أمين دقيق ونسخته أمينـة

(13) ذكـر بروكـلمان في تاريخ الأدب العربـي (ترجمة النجار) ج 1 ص 69 مخطوطا ثالثا لم يذكـره المحقق .

دقيقة كذلك ، كان لها الفضل في تقويم كثير من نصوص الشرح وإلقاء الضوء لتبيانها وجلائها » (14) . فلم يحدّد النواحي التي اختصرت في المختصر ولم يقارن بين نسختي عين الشرح لمعرفة ايّ المخطوطين أقدم وهل هما عن أصل واحد أم عن أصلين مختلفين إلى غير ذلك ممّا لا تخفى أهميّته على الباحثين .

وقد حاولنا معتمدين حاشية التحقيق أن ننفذ إلى معرفة قيمة هذه المخطوطات فلاحظنا اتّفاق « أ » و « ب » اتّفاقا كاد يكون تامّا لولا بعض اخطاء النسخ في « ب » (15) ممّا يدلّ على أنّ « أ » و « ب » نسختا عن أصل واحد بل وقد تكون « ب » نسخت عن « أ » . أمّا المختصر (وهو كما ذكرنا أقدم المخطوطات) فعن أصل مختلف أدقّ وأصوب من أصل « أ » و « ب » لذلك كان مرجعا هامّا .

وقد اعتمد المحقّق من جهة أخرى عددا وافرا من كتب الادب واللغة (16) لتقويم النصّ أو لتحريج بعض الشواهد فجاءت حاشيته جمّة الفائدة وختم نشرته بتسعة فهارس فهرس للايات القرآنية وفهرس للأحاديث النبوية وضعهما على « نمط مستحدث إذ جعل ترتيبهما على المواد اللغوية التي يمثلها الاستشهاد» ليسهل على الباحث استعمالهما وفهرس للأمثال وفهرس للأشعار وفهرس للأرجاز ثم فهرس لغوي جمع في القسم الاوّل منه ما ورد شرحه في صلب الكتاب وفي القسم الثاني ما شرح في الحواشي ففهرس « لمسائل العربية الممثّلة لطائفة من النحو الكوفي الذي كان ابن الانباري أحد حامليه وقام بتطبيقه في اعراب أبيات المعلّقات » وفهرس للأعلام والقبائل والطوائف وأخيرا فهرس البلدان والمواضع .

---

(14) انظر المقدمة ص 14 .

(15) الاتفاق ظاهر في سائر نقط الحاشية والاختلاف لا يتجاوز سقوط بعض النقط أو العبارات : انظر ص 5 ح 2 و ص 12 ح 3 و ص 19 ح 3 و ص 112 ح 1 و ص 141 ص 1

(16) انظر فهرس المراجع ص 713 — 718 .

فجاءت هذه الفهارس محكمة الوضع سهلة الاستعمال يجد فيها الباحث خير معين له على مراجعة هذا الكتاب الجليل الفائدة .

أمّا المقدّمة القصيرة التي افتتح بها المحقّق نشرته فقد لا ترضي حاجة الباحث المستقصي ولكنّها توطئة مفيدة للتعريف بابن الانباري وشرحه .

وأخيرا لا يمكننا إلاّ أن نثني على الناشر لما بذله من مجهود لنشر هذا الاثر وتحقيقه تحقيقا دقيقا أمينا واخراجه اخراجا واضحا أنيقا .

محمد عبد السلام